المرأة العراقية والحصار

محتويات العدد :

كلمة التحرير / شكر و تقدير — أمينة رشيد و حسناء مكداشي

مقدمة العدد / «ماذا بعد الحزن يا خنساء؟»/ — فريال جبوري غزّول

شهادات

في مثل ما نحن فيه! — نازك الأعرجي

في الجهات الثماني للمدينة الجميلة — وداد الجوراني

شهادة الحب والحياة في زمن الموت والحصار — بشرى البستاني

بلاغة درس الحرب والحصار — هناء مال الله

في النهاية لن يصح إلا الصحيح! — ميسلون هادي

أيام تمضي . . . أيام تجيء . . . — سهيلة داود سلمان

محاصرة الكتاب — أمل الشرقي

إبداع

ربما الدموع . . . ربما المطر! إرادة الجبوري

نافذة الانتظار بديعة أمين

في اللعب بلا مظلة سهام جبّار

قراءة في رواية «كم بدت السماء قريبة» محمود أمين العالم

«الغلامة» وبنية ترجيعات القهر صبري حافظ

المكان في أدب المرأة ياسين النصيّر

تقاسيم وترنيمات : أطفال ونساء وليد الحمامصي

دراسات

العراق تحت الحصار : إبادة الشعوب كنظام عالمي "جديد" سهير مرسي

أثر الحصار على الواقع الصحي للمرأة العراقية اتحاد صالح عماش

الآثار الاجتماعية للحصار على المرأة العراقية إيمان العزاوي

المرأة العراقية وتغير أنماط حياتها تحت وطأة العقوبات نادية العلي

دور المرأة في مواجهة الحصار الظالم شذى عبد الباقي

بيبلوجرافيا الكاتبة العراقية باسم عبد الحميد حمودي

شكر وتقدير

هذا هو العدد الثالث من سلسلة «المرأة العربية والمقاومة» كان العدد الأول الذي صدر في ربيع ١٩٩٩ عن «المرأة الفلسطينية في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي»، والعدد الثاني الذي صدر في شتاء ٢٠٠٠ عن «المرأة اللبنانية في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي» في هذا العدد تقدم نور مجموعة من الشهادات والنصوص الإبداعية والدراسات، في محاولة لإحاطة أولية بواقع المرأة العراقية في مواجهة الحصار.

نعبّر عن عرفاننا لجميع الكاتبات و الكتاب الذين ساهموا في هذا العدد كما نتقدم بالشكر و الامتنان إلى جميع الأصدقاء الذين تبرعوا بجهودهم وبتكلفة الإعداد، وهم:

توفيق فرح، حسن الشريف، حنان الشيخ، رضوى عاشور، سميع البّنا، سهير مرسي، فدوى اللبدي، فريال جبوري غزول، كاميليا فوزي الصلح، لميس النقاش، لمياء الكيلاني، نجاح طاهر، نيكولاس هوبكنز، وليد الحمامصي، يحي الدقس.

«ماذا بعد الحزن يا خنساء؟»

فريال جبوري غزّول

في حصار مستمر لأكثر من عشرة أعوام، وهو حصار قاسٍ لم يسبق لبلد في العالم أن عانى مثله، ويأتي في أعقاب حرب طويلة في الثمانينات وحرب خاطفة ومدمرة في مطلع التسعينات، تكابد الشرائح الأفقر والفئات الأضعف أشد ويلاته، لهذا نجد الأطفال يتساقطون بمعدلات رهيبة وقد مُنع الغذاء والدواء عنهم، ناهيك عن الكتاب والقلم. فبعد حرب الخليج المدمرة التي أطاحت بالبنية التحتية التي توفر المرافق الصحية والحياتية للشعب العراقي، ظلت أرض العراق مستباحة لتهاجمها طائرات العدو، كلما عنّ لها ذلك، ومنذ نهاية ١٩٩٨، استمر العدوان بشكل يومي ومتواتر. إنها حرب إبادة بطيئة تستخدم العنف بالإضافة إلى الحصار، وتقوم بتدمير النشاط الإنساني في العراق، من صحة مواطنيه الجسدية والنفسية إلى حضارته وثقافته ونسيجه الاجتماعي. إنها عملية خنق لشعب قدّم للحضارة الإنسانية أول الأبجديات وأقدم الملاحم واكتشاف الزراعة وبنى المدن وسنّ القوانين. وحتى تستمر هذه الجريمة ضد الإنسانية، فقد قام مرتكبوها تحت قيادة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وحليفتها بريطانيا بالتعتيم على ما يفعلون، من جهة، وبالتعلل بأسباب متهافتة عندما تواجههم أسئلة المعترضين على هذه السياسة اللاإنسانية، بما في ذلك جماعات حيّة الضمير من شعوبهم، أخذت على عاتقها الاحتجاج والاستنكار لما يحدث للعراقيين. وقد فصلت الدراسات في هذا العدد، بإحصائياتها ومراجعها الوثائقية وإطارها النظري، سياق العولمة الإمبريالي لهذا الحصار وفنّدت كل التبريرات له.

وبعيدا عن الخطاب الرسمي والإنشاء الديبلوماسي الذي كثيرا ما يبثه الإعلام، بادرت مجلة «نور» باستكتاب عدد من المواطنات العراقيات اللائي عانين من الحصار، ليعبّرن بأقلامهن وإحساسهن ورؤيتهن عن ما يعني الحصار في حياتهن، فكتبت بعضهن شهادات، واسترسلت أقلام بعضهن في نصوص إبداعية، وسعت أخريات إلى دراسات وبحوث حول آثار الحصار. واستكمالا للصورة، ساهم عدد من العراقيين والمصريين في تقديم قراءاتهم للإنتاج الأدبي للمرأة العراقية، باعتباره مؤشرا على حالتها، كما عُني البعض بدراسات ترصد آثار الحصار، وخاصة على المرأة، بتشريح التداعيات الداخلية والإطار العالمي الذي سمح بهذا الظلم الفادح.

لماذا استنطاق المرأة؟ ليس لأن الرجل لا يعاني، فالمعاناة واحدة، لكن أثر الحصار يختلف في وقعه على المرأة عنه في وقعه على الرجل أو الطفل، لتفاوت دورها وموقعها في الحياة العامة والخاصة. وفي معظم الأحيان، نجد الرجل العراقي في الواجهة، سواء في داخل العراق أو خارجه، متحدثا باسم الجميع، المحاصرين أو المغتربين. فبينما يبرز الخطاب السائد على تنوعه صوت الرجل، يتوارى صوت المرأة ويخفت. وليس الطفل، في وضع يسمح له بأن يعبر عن نفسه، وإن كانت الإحصائيات والصور والأفلام التسجيلية تقدم محنته الصامتة. تبقى المرأة، إذن، بين صمت الطفل وجهورية الرجل صوتا متواريا يمكن استحضاره واستنطاق صاحبته، لا إعلاء من شأن المرأة على حساب الرجل والطفل، وإنما من باب إضافة صوتها إلى جانب صوت الرجل العالي أو في مواجهته. والمرأة بحكم التكوين العائلي أكثرمن الرجل التصاقاً بالطفل، وهي، أيضا أكثرمن الطفل مشاركة للرجل، ومن ثم، فهي الوسيط الذي يلتقي فيه الرجل بالطفل، وربما كانت هي الأكثر تعبيرا عن كل أفراد المجتمع نساءً ورجالاً وأطفالا، لتفاعلها معهم جميعا.

كيف نقرأ هذه الكتابة عن الحصار، هذه الكتابة المحاصرة؟ وكيف يتوصل خطاب المحاصر إلى التعبير الحرّ؟ كيف يمكن لفرد يفتقد مقومات الحياة الكريمة من غذاء ودواء، من راحة وسكينة، من قلم وورق، من فضاء للحوار، أن يكتب طليقا وبطلاقة؟ ألا يعوق الحصار قدرات التعبير وألا يشوّش طرائق الإفصاح؟ فأثر الحصار لا يقع على الجسد العراقي فحسب بل على الروح العراقية، تلك الروح الأبية المغامرة. هل تكسّر شيء ما في هذه الروح، وهل تراجع هاجس المغامرة وانزوت الكبرياء عند المرأة العراقية؟ هل استكانت وخنعت أم زادها الحصار تحديا ومقاومة؟ هل تستعير الخطاب الشائع لتقديم نفسها أم أنها تستكشف أعماقها بلغتها المتفردة؟ كل هذه الأسئلة تثيرها كتابة المحاصرات وعالمهن الذي يصفنه عبر المتخيل والواقع، عبر التجربة الفردية والإحصاءات الجماعية. ولهذا علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار زاوية البوح والبث، وعلينا أن نميز بين مستويات الكتابة وأغراضها، من تقديم المعلومة المباشرة إلى خلق أجواء تشي بالمكابدة، و من أجل ذلك، صنفّنا الكتابات إلى «شهادات» تعبر فيها الكاتبات عن تجاربهن الشخصية ومواقفهن الفردية، و إلى «إبداع» يضم نصوصا ذات طابع إبداعي ومجازي، مع قراءات لأعمال أدبية

وسينمائية تصور المرأة العراقية وعالمها، وأخيرا، «دراسات» تتصدى لأبحاث اجتماعية وصحية وتوثيقية عن آثار الحصار على المرأة، ورد فعلها على التغيرات الناجمة عنه، وينتهي العدد ببليوجرافيا في محاولة لجمع ثبت مرجعي بكتابات المرأة العراقية، مبدعة وباحثة.

وككل قراءة متمعنة، علينا أن ننظر إلى النصوص باعتبارها نوافذ على النفوس، ونستقرئ منها ما تسعى صاحباتها إلى توصيله، على الرغم من تضييق فضاء القول والفعل في زمن الحصار. فكيف يمكن لكاتبة أن ترفع صوتها أمام كل هذا الجور، وهي لا تملك الورق والقلم وحتى النور لتهتدي بضوئه على خط شهادتها؟ بل كيف تقوى الكاتبة على الكتابة؟ وقد عيل صبرها من أن يسمع صراخها أحد، أو يفسر لها لماذا يموت أطفالها ويبقى العالم شاهدا أخرس؟ وكيف يمكن لامرأة أصابها اليأس من الحوار ومن إمكانية الإصغاء لها أن تعبر عن مكنونها؟ وكيف تستطيع هذه المرأة التي لم تعد تملك الوقت لتتأمل، صوغ تأملاتها تحريريا؟ لقد زادت أعباءها وأنهكتها مسئولياتها الإضافية التي كانت تقوم بها المؤسسة التعليمية والطبية، كما تدهورت وسائل النقل والصيانة لغياب التيار الكهربائي وقطع الغيار، فأين لها بسويعات للعمل الفكري؟

لكن العراقية – كما تكتب ميسلون هادي – تعلمت تدوير الورق وتعديل الملابس وابتكار الأطباق تأقلماً مع الغلاء والندرة، كما تعلمت أن تتأمل وهي تغسل الملابس وترضع الأطفال، وتسرق لحظات من ليلها على ضوء الشموع لتكتب كلمتها. فكم من القصائد والأطروحات كتبت بفضل الشموع، كما تقول بشرى البستاني. فعلى الرغم من الآثار المأساوية التي أفرزها الحصار، ومع الخراب الاجتماعي والصحي الذي واكبه، استنفرت الحالة العراقية في التسعينات الفنان والأديب، المرأة والرجل، لتجاوز المحنة. وتستشهد بشرى البستاني بما قاله لها فنان تشكيلي: «والله لو نفد ورق الأرض وقماشها، ولو غيبوا جلود الحيوان وورق الشجر لرسمنا لوحتنا الصامدة على جلود أجسامنا وقلنا للعالم: ها نحن نتحدى الحصار». وهذا لا يعبر عن التحدي فحسب، بل يجعلنا ندرك أن الفن عند الفنان ليس شأنا كماليا يستغني عنه عندما تشح الأصباغ، بل هو بمثابة الماء والخبز، لابدّ منه. فعشق الفن كعشق الكلمة لا يعرف المستحيل، والعاشق يجد دائما حلاّ مهما تعذرت السبل. وتعرّف بشرى البستاني السلاح الذي توسلت به في مقاومتها للحصار واليأس بالتصوف: «التصوف من أجل مواصلة الحياة داخل قضبان الموت، ومواصلة التواصل داخل قضبان القطيعة».

وعند قراءتنا للشهادات نجد إشارات في الكثير منها إلى جلجامش، ذلك البطل الأسطوري من وادي الرافدين الذي حاول تحدي المستحيل، تحدي الموت ذاته ليسترجع رفيق عمره أنكيدو من براثن العدم، فقام ببحث مضن لاستكشاف ما يعيده إلى الحياة. تستهل نازك الأعرجي شهادتها المؤثرة باقتباس افتتاحي من ملحمة جلجامش:

أجل ! الموت في مضجعي يقيم
وحيثما وضعت قدميّ
يترصدني الهلاك

وتفتتح وداد الجوراني شهادتها بمخاطبة جلجامش في التفاتة أدبية:

أي جلجامش، ماذا تبغي؟
الآلهة الذين نفوْك إلى الجنة،
وضعوا الجحيم على راحتيك،
وقالوا لك: فلتمسك بالحياة !

لماذا من كل الأبطال جلجامش بالذات؟ علينا ألا نكتفي بقراءة كاتباتنا فحسب بل أن نستقرئهن، ونقرأ ما بين أسطرهن. ففي تناول العراقي المعاصر جلجامش – بطل العراق القديم – نوع من الاكتفاء الذاتي. فكما علّم الحصار العراقيين كيف يستثمرون ما عندهم ويستكشفون مواردهم الطبيعية، بعد أن كانوا يعتمدون على الوارد والمستورد في مجال الزراعة والصناعة، كذلك فعلوا في المجال الثقافي، فعكفوا على استلهام مصادرهم الذاتية. لقد لازم الاقتصاد الذاتي العكوف على الذات الحضارية والتأمل في تاريخ العراق الذي عانى من محنا عديدة من التتر القدامى إلى التتر المحدثين، لكنه استطاع أن يتجاوز أعتى الغزاة ليقوم بعد كبواته

المتتالية. وقد ساهم غياب الكتاب الوافد وشحة الكتب المنشورة في عقد التسعينات على قراءة وإعادة قراءة الإرث الثقافي والتراث الحضاري، لإيجاد معادلات يمكن أن تضيء الطريق المسدود- من الخنساء إلى الجيلاني - وعنوان مقدمتي مقتبس من سؤال بلاغي ورد في شهادة وداد الجوراني.

وجلجامش، بالإضافة إلى كونه عراقيا، فهو يعبّر عن المحنة الوجودية، الموت المقيم الذي يحاصرنا ويتوعدنا في كل لحظة، ولكننا نتناساه في الأيام العادية؛ لكن ليس في العراق أيام عادية. فكل لحظة لا تذكّر بالموت فحسب، بل تشهد عليه. ومقارعة جلجامش للموت تؤسطر ما يعايشه العراقي كل يوم: جحيم الموت الذي يحصد دون تمهل، الموت الذي يجئ عشوائيا فيقتل بصواريخه وأسلحته الفتاكة من يشاء وكيفما يشاء، وقد يأتي في مفارقة مصيرية فيخترق جدران الملجأ - ملجأ العامرية - الذي لاذ به الأطفال والنساء ليحتموا من القنابل، فأصبح الملاذ مقبرة جماعية.

وهكذا نجد التضافر والتوازي بين المعاناة في الملحمة القديمة والمعاناة في الواقع المعيش تدفع العراقي إلى البحث عن نموذج أصيل وأولي لنجدة الحاضر بكل تعقيداته وتشابكاته، كما تقول هناء مال الله، خاصة بعد أن شعر العراقيون بأن العالم كله - شرقا وغربا، أشقاء وأغرابا - قد نسوا العراق وأسقطوه من ذاكرتهم. من هنا برز وجه جلجامش الغامض ووجه دموزي، إله الخصوبة في زمن الجدب والخواء، الإله الذي يقوم بعد موته كالعنقاء. ومن هنا كان استحضار الأمثال السومرية التي تتقاطع وتستشرف الحاضر، كما في «ينحني القصب أمام الريح حين تمر العاصفة»، مستدعية هول «عاصفة الصحراء»، الحملة الشرسة التي قامت بها ثلاثون دولة مجتمعة لضرب العراق. ومع هذا فوداد الجوراني لا تذكر عن «قاماتنا شيئا سوى أنها أصبحت أطول فحصدت منها العاصفة الشيء الكثير وما تزال». إلا أن هذا الحصاد يمثل «موكب انتصار لتكنولوجيا الفراغ الدولي» ومن ثم، فهي تشير إلى أن ما يقابل تكنولوجيا القتل في النظام العالمي الجديد و يواجهها ألا وهو عراقة الحضارة ومهدها العراق. فقد تستطيع أسلحة الهيمنة والحصار أن تقتل مليون طفل، لكنها عاجزة عن توفير التحقق الإنساني أو تعزيز القيم الحضارية، مكتفية بعولمة الاستغلال وبالتشدق بحقوق الإنسان نفاقاً وادعاءً.

وتعبّر الفنانة التشكيلية هناء مال الله في تحليلها العميق للفعل ورد الفعل عن تحصّن العراقي بحضارته في مواجهة الغطرسة التكنولوجية:

«إن عقدة التفوق التقني لدى الآخر (الغرب) وتحديدا أوروبا وأمريكا، وعقدة النقص التي لدينا (التي هي في جزء كبير منها تكنولوجي)، هذه النقطة أنارتها بوضوح الوحشية التي استخدمت بها القنابل في الحرب، وكان التساؤل عن قيمة التطور التكنولوجي (السلعي)، بموازاة التساؤل عن قيمة التطور الحضاري (الفكري - الفني)، بمثابة وعي للسؤال عن قيمة الذات والهوية».

وترى الفنانة المفكرة أن «القنابل التي أسست خارطة خرائبية للمدينة، أسست خارطة وعي ومساءلة في نفوس شهود التجربة (سكانها)»، وهذا عند من يفكر فلسفيا في النوائب، وأما عند الكثير، كما تصف إرادة الجبوري في القصة - الشهادة، فيرتكزون على آليات التأقلم للسائد وميكانيزمات التعويض، فها هي الصحفية تخدر حواسها وتشغل نفسها وتساوم ضميرها في هذا العمل القصصي الذي يحمل عنوان «ربما الدموع.. ربما المطر»:

«سنوات العمل الطويلة جعلتني أعرف ما هو مطلوب مني، دون أن أضطر إلى الحذف أو يضطر غيري إلى التعديل... وبمرور الأيام اختفت نوبات غضبي وأنا أرى كلمة أو عبارة محذوفة أو مشوّهة».

وتعوّض الشخصية القصصية عن هذا الاستلاب والانسحاب الذهني من العمل برسوم للتسليّة في دفترها، «رسوم نخيل معتمة»، تاركة للقارئ تأويل البعد الإشاري في موضوع الرسم. هذه الرتابة في العمل تعوّضها الصحفية بقراءة روايات وأساطير قديمة والحلم بالنوارس والتحليق، كناية عن الرغبة في التسامي على الواقع الرث. ويصبح دجلة شاهدا غير مكترث بهذا الحاضر المفجع، ومن خلال توصيف عدم اكتراثه، نرصد محنة العراق:

«يسير غير عابئ بالأخبار المؤلمة، شائعات الأمل، صوت المذيع، مشاكل النص المسرحي، مقص الرقيب، الجرائم، صور المفقودين، التوابيت الملفوفة بالأعلام، أسعار المواد الغذائية... شموع النساء عند مرقد خضر إلياس، صراخ الأطفال المحتضرين

في مدينة الطب المطلة عليه، نحيب الأمهات، أصوات المرضى وصرخات أناس يرون المشارط في غرفة عمليات بلا مخدر».

إلا إن محاولات بطلتنا في محاكاة دجلة بعدم الاكتراث عند رجوعها إلى بيتها بعد عملها بينما السماء تمطر، توصلنا في آخر هذا العمل المحتشد بالبطلة رافعة المنديل إلى وجهها ليُترك للقارئ اختيار إذا ما كان ذلك دموعا أو مطرا.

وفي القصة – القصيدة «نافذة الانتظار» لبديعة أمين، تنتظر الأم بكل جوارحها ابنها الغائب المفقود في الحرب. تستحضره وتتخيله وتتذكر أحاديثه معها ووعده لها باصطحابها إلى المراقد المقدسة. ويستمر انتظارها المضني، إلى أن ترحل دون أن تعرف لماذا لم يعد ابنها «من الإجازة لتزور وأياه – كما وعدها – المراقد المقدسة». هذاالشجن العراقي الأصيل الذي حاولت إرادة الجبوري أن تزيحه وتكتمه في قصتها، تتمثله بديعة أمين دون السقوط في البكاء والنحيب، موظفة بساطة شخصية الأم وسذاجتها لتوصل لنا عمق المعاناة. وأما القصة – الأمثولة «في اللعب بلا مظلة» لسهام جبار فتقدم إلى المتلقي عملا سرياليا محوره اللعب بلا مظلة أو بلا غطاء يحمي. وتبدو الأديبة العراقية وكأنها تستلهم المفكر الهولندي جوهان هويزينغا الذي عرّف الإنسان بأنه كائن لاعب عوضا عن كائن ناطق أو كائن اجتماعي، كما سبق تعريفه في الفلسفة. وفي هذه اللعبة الإنسانية الكبرى أزرار متقابلة كالتذكر والنسيان، كالحب والكراهية؛ واللعبة لا تتوقف، «ولا يكف اللاعبون عن الفشل». ومما يجدر بالذكر في هذا السياق أن الأدب العراقي في مرحلة الحصار أقبل على تصوير غرائبية الواقع وتوظيف البعد الفانتازي في الكتابة، ليعبّر عن جنون الحاضر. ويبدو استغراق سهام جبار في لعبتها المجازية وفي مجازها اللعوب، وكأنها تخفف وطء الواقع بثقله وسحقه للإنسان، بتصوير العلاقات الإنسانية عبر اللعب، تخفيفا من مكابداتها.

وفي قراءة المفكر محمود أمين العالم لرواية بتول الخضيري الأولى وقراءة الناقد صبري حافظ لرواية عالية ممدوح الأخيرة، نجد استبطانا لتشابك الحياة في العراق وصراعاتها. ففي رواية «كم بدت السماء قريبة» لبتول الخضيري نجد «التمايز الحضاري بين الشرق والغرب» وترجمته سلوكيا في تربية طفلة عراقية لأب عراقي وأم إنجليزية، ويوضح لنا العالم كيف أن الصراع القومي بين المستعمر الإنجليزي والشعب العراقي يلقي بظلاله على هذه العائلة، مضافا إليه البعد الطبقي الذي يتجلى في رفض الأم الأجنبية للصداقة الجميلة التي تتشكل بعفوية بين الفتاة الصغيرة وفتاة فقيرة في سنّها، تقيم في كوخ مزرعة قريبة. ويرصد محمود أمين العالم رهافة أسلوب الرواية الذي يصل إلى تقطير شاعري في لعبة تسمية العطور التي يصنعها الأب، ويدخل ابنته في اختيار أسماء جذابة لها. وتعلُّق البنت بأبيها والسجال في البيت على تربيتها يتم على خلفية الحرب العراقية الإيرانية، مما أطلق عليها البعض حرب الخليج الأولى (١٩٨٠ – ١٩٨٨)، تمييزا لها عن حرب الخليج الثانية (١٩٩١). وعلى عكس خطاب البيانات الرسمية والأناشيد الحماسية، لا تقوم الرواية «في سردها عن تحيز لجانب ضد آخر بشكل مباشر في هذه الحرب، بل نستشعر الرفض الضمني لها بآثار ونتائج ما تسجله بياناتها ووقائعها المذاعة أو المروية» – كما يقول الناقد – والتي تستهدف السخرية غير المباشرة من الخطاب العسكري المباشر. من هنا نرى كيف يصبح الخطاب الإبداعي، وخطاب المرأة على وجه التخصيص، مختلفا عن الأدب الإعلامي، وبعيدا عن التطابق مع الموقف الرسمي. وهكذا، يمكننا أن نستشف من هذه الرواية وغيرها تنوع الأصوات وتمايزها، ولكن علينا أن نصغي إلى ما هو غير زاعق ونستكشف ما هو ضمني ومضمر. وانتقال الراويةإلى لندن، بعد موت الأب المفاجئ ومرض الأم الخبيث، يقدم صورة للحياة الإنجليزية في مقابلة تعاقبية تعزز ما سبق من ثنائيات وتضاد.

وفي قراءة صبري حافظ لرواية «الغلامة» لعالية ممدوح يتلمس الناقد ما جرى في العراق بين ١٩٦٣و ١٩٧٧، عبر بنية مونولوج داخلي. ويرى صبري حافظ أن البعد السياسي في هذا العمل حاضر، وأن معرفة «تاريخ العراق الحديث ضرورية لاكتشاف مختلف طبقات المعنى الثانوية في هذه الرواية»، إلا إنها في المقام الأول، تؤكد على التجربة الإنسانية، لا السياسية، وبشكل خاص تجربة الشخصيات النسائية، وتصوير «عبء هذا التاريخ الفادح الذي يصنعه الرجال على أرواح النساء، وآثاره الموجعة على أجسادهم وحيواتهم»، وبهذا تسجل الأديبة عالية ممدوح «اختلافها داخل النص، فكريا وفنيا على السواء». والمراوغة الأسلوبية –في رأي الناقد – هي سلاح المبدعة في تقديم السياسي دون تغليبه على الفني.

وفي مقالة «المكان في أدب المرأة» يقدم الناقد ياسين النصيّر ويحلل مركزية المكان في القصة العراقية والشعر العراقي والفن التشكيلي العراقي في إبداع المرأة، خاصة في اغترابها وبعدها عن الوطن. ويرى ياسين النصير أن مجرد مبادرة المرأة بالكتابة في

السياق المعاصر، سواء كانت كتابة في الأدب أو في غيره، يشكل «ثورة بحد ذاته وهزيمة لأي حصار أيا كانت هوية ذلك الحصار».
ويقدم الناقد نماذج من الأمكنة في إبداع المرأة العراقية: المكان الأليف عند سالمة صالح، والمكان المفترض عند الأديبة الكردية هيفاء زنكنة، والمكان المستعاد عند دنى طالب، والمكان المتخيل عند الفنانة رملة الجاسم، والمكان المعشوق عند الشاعرة الكردية دلسوز حمه. وبهذه المقالة نكتشف افتقاد الوطن وآليات استرجاعه عبر الكلمة والصورة عند العراقيات. ومن المعروف أن آلاف المبدعات العراقيات يقمن خارج الوطن، بسبب الحصار بأشكاله المتنوعة وآثاره المتعددة، لكنهن لم ينقطعن عن الإبداع. ومن المهم بمكان أن يعرّف بإنتاج المرأة العراقية الكردية – كما فعل ياسين النصّير – لأنها بحضورها الإبداعي والإنساني، جزء لا يتجزأ من ثقافة العراق. وكون المبدعة العراقية المغتربة مقيمة في الخارج لا يعني أنها تخلصت من الحصار الذي تعانيه العراقيات في الداخل، فهن يقمن في أرض غريبة لا تنطق بلغتهن ويعانين من مشاكل الغربة والتمييز ضد الوافدين والوافدات.

وننتقل من المكتوب إلى المرئي في مقالة وليد الحمامصي، حيث يستعرض مضمونا وتقنية ثلاثة أفلام تسجيلية تتناول الحصار. وتعزز هذه الأفلام ما أشارت إليه الشهادات والإبداعات. ففي فيلم «تقاسيم من بغداد» لسايد كعدو اللبناني تتحدث الكاتبة ناصرة السعدون عن مشاكل المرض في العراق المحاصر، لتنتقل الكاميرا بعد ذلك إلى صور الأمهات وأطفالهن في قاعات المستشفى. ويعتمد الفيلم، كما يقول وليد الحمامصي، على التقابل بين الخراب ومقاومة الخراب، محاولا توصيف الدمار، وفي الوقت نفسه التوكيد بلغة سينمائية عن وجود روح لا تستسلم له، حيث تقوم تقنيات الفيلم الذكية بتوصيل درامية الأحداث. وفي فيلمي المخرج المصري حسام علي «أوراس – ترنيمة حب لأطفال العراق» و«نساء تحت الحصار»، يعرض في الأول صورة مؤثرة ومتعاطفة مع الطفل العراقي أوراس الذي يتحدث أمام الكاميرا بعفوية وبراءة عن مدرسته واضطراره إلى العمل بعد المدرسة، كي يعين عائلته، فلا وقت لديه للعب. ويقدم الفيلم صورا للفتى وهو يعمل ويدرس ليرى المشاهد أوضاع المدرسة المهدمة والعمل المضني، وينتهي الفيلم بأغنية للفتى تكثف معاناة الطفولة في زمن الحصار. ويرى وليد الحمامصي في هذا الفيلم «دفقة شعورية تخرج من قلب المخرج لتصل مباشرة إلى قلب المشاهد». وفي فيلم حسام علي التسجيلي الثاني «نساء تحت الحصار»، يتناول نماذج للمقاومة والتجاوز وتحويل الطاقة الإنسانية إلى إنتاج، ويوظف المخرج لقطات أرشيفية، مع تقديم أم لشهداء ومعلمة وطبيبة وممثلة مسرحية.

وقبل أن ننتقل إلى قسم الدراسات ببحوثها الاجتماعية والصحية والتوثيقية، علينا أن نشير إلى تجربة وضعناها في قسم الشهادات لأنها تجربة شخصية، إلا إنها تمهد لقسم الدراسات، بتقديمها المفصل والدقيق وتحليلها العميق والذكي للحصار الذي أدى إلى تقليص منابر النشر، وتقاطع العوامل الداخلية والخارجية في محاصرة الكتاب. ففي الداخل، يشح الورق والحبر والدعم عند المحاصرات، وفي الخارج يضمر جمهور قراء المغتربات لندرة المتلقي للإبداع بلغات كالعربية والكردية. وقد قدمت في هذا الصدد الناشرة أمل الشرقي تجربتها مع «دار الشمس للنشر» في تحدي العقوبات الاقتصادية التي فرضت على العراق منذ ١٩٩٠. لقد حاولت جادة أن تنشر دون أن تحوّل موارد الكتاب من ورق وحبر إلى سلعة في السوق السوداء تتكسب من ورائها. ولكن تتقاطع سلبيات عديدة، منها بيروقراطية داخلية (في العراق) وانتهازية إقليمية (في الوطن العربي) وحظر عالمي (في المعمورة)، في إفشال مشروعها القيّم، على الرغم من نياتها ومثابرتها فتقول:

«أحيانا يغلبني الإحساس بالحيف الذي ينبع من كون ما وصلت إليه «دار الشمس» كان يمكن تفاديه، أو تفادي جزء منه، على الأقل، لو لم يتضافر الحصار الذاتي والحصار العربي (الطوعي) مع الحصار العالمي (المفروض) على خنق الكتاب العراقي، والكاتب العراقي، والفكر العراقي».

إن مقالة سهير مرسي، أستاذة الأنثروبولوجيا الطبية، «العراق تحت الحصار: الإبادة كنظام عالمي «جديد»، تستفيد من خبرتها كباحثة ميدانية عملت مع هيئة الأمم المتحدة في رصد حالة المرأة العراقية عام ١٩٩٧، ومن النظريات العلمية في الدراسات الإنسانية حول قضايا المرأة وقضايا العالم الثالث. تكشف سهير مرسي، بمنطق متماسك وباستشهادات مفصلة، عن قصدية تدمير العراق وإرادة شعبه عبر الحرب والحصار، بتخريب بيئته ومرافقه وصحته، بما في ذلك استخدام اليورانيوم المستنفد. وترجع إلى السياق التاريخي لترى في هذه الإبادة فصلا من فصول الاستغلال الكولونيالي والقهر الإمبريالي. وتغير المسميات – كما تقول الباحثة – لا يغير المسمى على الإطلاق، ألا وهو تحويل العالم الثالث بنسائه ورجاله إلى سوق استهلاكية لسلع الدولة الغازية، مع توفير

موارده لها بأبخس الأثمان. وتفند سهير مرسي كل التبريرات التي تقدمها الإمبريالية الأمريكية حول الحصار، وتفضح منطلقاتها وأساليبها، وتقدم مداخلات علماء وباحثين من الولايات المتحدة الأمريكية واجهوا حكومتهم ومواقفها اللاإنسانية، ومنهم رامزي كلارك ونعوم تشومسكي.

ويلي هذه الدراسة الجامعة عدد من الدراسات ، أولاها " أثر الحصار على الواقع الصحي للمرأة العراقية" لاتحاد صالح عماش التي تبين، بالرجوع إلى إحصائيات، تضرُّر برامج الرعاية الصحية ونتائجها، كما تقدم إيمان العزاوي في مقالة «الآثار الاجتماعية للحصار على العراق»، بتتبع ما رتبه من تراجع اجتماعي لمكانة المرأة في العراق، والمسئوليات الإضافية التي فرضت عليها، وزيادة حالات الطلاق والعنوسة، مما أدى بدوره إلى تقويض حقوق المرأة في قوانين الأحوال الشخصية وممارساتها. ومع هذا، فالباحثة تذكر إيجابيات المشهد السلبي، وتشير إلى قدرة المرأة على التكيف اقتصاديا وإيجاد بدائل غذائية، وأدوية من الأعشاب، والاعتماد على المعدات اليدوية عوضا عن التكنولوجيا في إدارة بيتها. وترسم دراسة نادية العلي «المرأة وتغير أنماط حياتها تحت وطأة العقوبات الاقتصادية»، ملامح التغير الذي يصل إلى درجة الانقلاب في النمط المعيشي عند المرأة العراقية، وتعتمد الدارسة على زيارة ممتدة لأهلها في العراق، وعلى حوارات واستبيانات مع عراقيات في الخارج وصفن تجربتهن تحت الحصار قبل مغادرتهن الوطن. وتقدم لنا صورة من صور نضال المرأة اليومي في سبيل توفير اللوازم الأساسية لها ولعائلتها، كما تتطرق إلى التغيرات الديموجرافية وعدم التوازن بين الجنسين وظهور طبقة الأثرياء الجدد وتعدد الزوجات والدعارة. وتختم شذى عبد الباقي العجيلي، هذه الدراسات بنغمة إيجابية، بالتركيز على «دور المرأة في مواجهة الحصار الظالم» الذي توثقه بالتفوق النوعي لها، وازدياد نسبة النساء المهنيات وإحراز تقدمهن في المجالات الأكاديمية. وأخيرا، هناك ببليوجرافيا تقدم إنتاج المرأة الأديبة والباحثة، وتحتوي ثبتا مرجعيا أوليا في طور الاستكمال، وهو يعطي فكرة عن نسب النشر في مختلف العقود، كما أنه يقدم عناوين ما نشر في عقد التسعينات، عقد الحصار بامتياز.

ولابدّ هنا من تحية مجلة «نور» التي بادرت إلى رفع الحصار عن الكتابة العراقية من منظور اهتمامها بالمرأة، بالجنس الذي طالما هُمّش في المجال العام واستغل في المجال الخاص. وبهذا فقد أعطت «نور» مساحة لمن استبعدن من بؤرة الأحداث وإن تحملن بصبر نتائجها ليعبرن عما هو مسكوت عنه في السياق العالمي، فعلى الرغم من الاهتمام المعلن بحقوق الطفل والمرأة والإنسان، لا نجد إلا أصواتا معدودة من هذه المؤسسات الإنسانية تعير قضية الإنسان العراقي أهمية. ومع أن هناك أسماء عديدة كنا نتمنى حضورها في هذا العدد إلا أن ضرورة إخراج العدد دون تأجيل أو تأخير، ليفي بغرضه النبيل ، جعل المجلة بحيزها المحدود تستقبل ما هو ممكن ، باعتباره خطوة أولى في رحلة الألف ميل. أما المجهود الذي بذلته الناقدة نازك الأعرجي في استكتاب الكاتبات داخل العراق، ومجهود المشرفين على المجلة واستكتاب آخرين من الخارج لتجميع هذا الملف المحتشد على الرغم من صعوبة الاتصال والتوصيل، فهو أقرب ما يكون إلى معجزة صغيرة في زمن التصدعات الكبيرة. ومن ذاق طعم العمل الجماعي في زمن القطيعة عرف.

في مِثل ما نحن فيه!

نازك الأعرجي

أجل! الموت في مضجعي يقيم
وحيثما وضعت قدميّ
يترصدني الهلاك
«جلجامش»

. . . نعم. إنني إذ أُرسل بصري نحو فراغ مُحدّد، أؤطره وأخترق بُعْده الرابع، أرانا في مثل يوم القيامة.

ولِمَ لا أستعير مثالا أكثر واقعية، فأقول: مثل منطقة البراكين الدائمة، أو ربما كان اسمها التفجرات الدائمة.

شاهدتها مرة في فيلم وثائقي، ولا أتذكر الآن موقعها الجغرافي: غضب متأجج بلا توقف ولا نهاية، نوافير دائمة التدفق من جمرٍ وشرر، سيول حمراء من صخور ذائبة تنحدر نحو شواطئ تبقبق بغليان متصل.

إلى متى؟

يقول الجيولوجيون، إنها بقايا طفولة الأرض، وصورة لما كانت عليه في بدء التكوين، وإنها – كما يفترض – في طريقها إلى الابتراد، أرضا وماء. . .

ولكن متى؟

كان عليّ أن أدقق النظر لأرى ما إذا كان لتلك المنطقة الجحيمية سكان يحسبونها وطنا لا يستبدلون به الجنان!

$ $ $

لطالما استغرقني تأمل تأقلم البشر مع بيئات تبدو غاية في القسوة أو التوحش أو الشحّة. فأتساءل: لِمَ لا يهاجرون إلى بيئات مواتية: ماء وخضراء ووجه حسن! شيء مثل جنائن البرتقال في كاليفورنيا، أو ضفاف البحيرات السويسرية، أو شواطئ الكوت دا زور. . . فيتخففون من العناء، ويرفلون في النعيم، ويُخلّدون على كارتات سياحية صقيلة تخطف القلوب في كل مكان وزمان!

يبدو البشر – في نظرة سطحية – وهم يستوطنون بيئات مختلفة، كأنهم قد «أُلقوا» فيها إلقاء، ثم مُنعوا من تجاوز حدودها. فالبعض يصارع الجليد الدائم، والبعض الآخر وعورة منحدرات موحشة، وآخرون جحيم الصحاري، وغيرهم أوبئة المستنقعات أو أفواه البراكين، أو أحضان الزلازل.

أعرف طبعا أن الانسياحات البشرية نحو بيئات بديلة أمر لم يتوقف يوما، منذ وجد الإنسان، وأن «المزاج السياحي» نادرا ما كان الدافع لتلك الانسياحات التي مهما بدت صغيرة في وقت منقطع عن سياق الزمن، إلا إنها سرعان ما تبدو للرائي المحلّق فوق حركة الأزمان، جزءا من موج دائم الانديا‌ح في شتى الاتجاهات، كلما (وأينما) تصبح الحياة مُرّة في مكان، وأقل مرارة، أو مجهولة الاحتمالات، في مكان آخر.

لكنني إنما أتساءل عن مغزى ومعنى هذا المفهوم/ المصطلح/ الحقيقة/ القدر/ الجوهر الذي يدعى: «وطن».

$ $ $

شهد العراق في عصره الحديث العديد من النزوحات البشرية باتجاه الخارج، كانت جميعا تقريبا موسومة بسمة الجماعة النازحة، أعني بسمة دوافع النزوح، إلا النزوح الذي شهده العقد الأخير، فقد كان فسيفساء شاملة لا يكاد ينقصها لون أو شكل أو عنصر.

وإذا كان النازحون السابقون قد تحول الوطن لديهم إلى «حنين» موسوم بالمستحيل، في أغلب الحالات، فإن النازحين الجدد يثيرون أعمق التأملات حول مفهوم الوطن.

فما هو الوطن؟

$ هل هو وجع الحرمان القسري أو شبه القسري من حاضنة المرء؟

فهل إذا أصبحت للمرء صفة تؤهله للصلة بوطنه، باعتباره «مغتربا»، يتضاءل الوجع ويتأقلم صاحبه مع حقيقة أنه ابن وطن جديد؟

$ هل هو وجع التمزق البشري بين الأمكنة؟

فهل إذا ما اقتلع المرء أحبّته المقربين وأخذهم معه إلى مكان آخر، يصبح ذلك المكان وطنه، ويصبح وطنه مجرد حنين، أو فولكلور تتجاوزه الأجيال؟

$ هل هو جوهر الكينونة، من حيث إن «العصبة» و«العزوة» ماتزالان في واقع الأمر من أشد الهويات مقاومة لخطر الانمحاء؟

فهل إذا ما سعى النازحون إلى التكتّل والتجمع والاستناد إلى ثقافتهم الجمعية الموروثة، يخلقون بذلك وطنا بديلا يطمئنون إليه كما لو أنه «ذلك» الوطن؟

$ هل هو الحلم المنشود بالرفاهية والتميّز الفردي والارتقاء في مدارج الحضارة؟

فهل إذا ما حقق الفرد ذاته في المكان البديل، وألقى نفسه في خضّم الحياة الجديدة، و«انتمى» إلى مجتمع أحلامه، سوف ينجو من نبض حبله السرّي، وغذاء روحه الذي تضخّه مشيمته عبر المسافات والأزمنة، وهل سينجو من الإحساس بالتطفل على مجتمع تمّ بناؤه بالمعاناة والتضحيات ومراكمة الوعي وإنضاج المعايير واستبدال القيم وارتضاء الاختلاف طريقا للاتفاق؟

إنني أتساءل، وقد قُدّر لي أن أكون على مسافات معقولة من تجارب عديدة للنزوح عن الأوطان الموروثة إلى أوطان بديلة. وفي العقد الأخير، قُدّر لي أن أكون على صلة وثيقة بالكثير ممن خرجوا، ولا أقول هاجروا. ففي الواقع، نادرا ما يدرك العراقي وهو يغادر بلده أين سيحطّ به الرحال، وما الصيغة التي سيكون بها وعليها وجوده في أيّما بلد يتاح له، سواء بكامل رضاه، أو على مضض منه، أو من دون علمه، أو حسب ما تحكم به الظروف، وهو يتنقل بين أيدي من يتولون مصيره من ساعة اتخاذه قرار المغادرة.

إنني أتساءل، كيف يصبح لديهم معنى الوطن، وكيف أصبح لدينا، نحن الذين اخترنا البقاء، أو اختارنا البقاء؟

إنها تجربة جديدة كليا، سبقنا إليها كثيرون من أقطار عربية عديدة، وغير عربية طبعا. لكننا لم نقبض على جمرتها إلا في السنوات العشر الأخيرة.

وقد كانت صدمتنا بها واسعة وعميقة، لأنها مسّتنا في صميم وجودنا وعلاقاتنا، ومازلنا – وإن خفّ ذلك قليلا– نعتبر مغادرة أحدنا خسارة نحزن لها ونتحسر عليها ونُصاب بالكآبة، ونحتار في ما نفعل في الفراغ الذي يتركه وراءه. كما إن المغادرة/ الخروج/ الهجرة ما تزال وسواسا حيّا في حسابات كل واحد منّا كآخر حلّ لما نحسبه إشكالا لا حلّ له، في هذا الجانب أو ذاك في حياتنا.

ولكن... لماذا اكتسبنا هذه النظرة للخروج/ المغادرة/ الهجرة، كما لو أنها «مروق» أو حرق سفن، أو خسارة أبدية؟!

فلعلنا سوف نتأقلم – في نهاية المطاف – ونتعود، وقد نتوفر على روح التسامح والدعابة، ونحن نستوعب خفايا الشتات.

ثم ما الذي ينقصنا لكي تصبح لنا، أسوة بأبناء شمال إفريقية ومصر وآسيا واليونان وتركيا... إلخ، جاليات تدخل تاريخ الآداب العالمية، وعلم اجتماعها، وربما فلسفتها. ولمَ لا تصبح لدينا مراكز قوى في دول مثل أمريكا الوسطى وأستراليا ونيوزيلندة والتيبيت وجزر الخالدات وتاتاناريف وإمارة لِشْتَنْشْتَين (أرجو أن أكون قد أجدت كتابتها)، فلربما يصل أحد أحفاد مهاجرينا – خلال قرن من الزمان – إلى مرتبة رفيعة مثل رئاسة الجمهورية، أسوة بفوجي موري، والسيدة شامورا، وكارلوس منعم. وقد يظهر «ماركيز آخر»، فيجعل أحفاد مهاجرينا أبطالا لرواياته، فلا يسميهم أتراكا أو سوريين، حيث لا يمكن لأحد أن يخطئ بعد اليوم في معرفة العراقي.

ثم، ومن ناحية أخرى، فإن علينا أن «نتواضع» قليلا ونقاوم الإغراءات المدغدغة الدافعة للإغراق في المزيد من الشجن.

فها نحن، أينما نحلّ، نُحاط بالحنان واللهفة: «من بغداد؟! صحيح!». وتلتوي الأعناق جانبا «بغداد، بغداد يعني؟! كيف أنتم؟». وتغرورق العيون «ماذا أنتم فاعلون، وما الذي يفعله بكم الزمان؟». وتذوب القلوب...

وتختلف الإجابة... بعضنا يختنق بشجن حبيس غير مستنفد، والبعض يطوي صفحة الأشجان ويحاول استعادة توازن

العلاقة مع الآخرين، دون أن يصبح موضوعا للعطف، وقد يوسوس للبعض خاطر على شيء من السادية: أن يقوم فيكلّف هؤلاء «المتنعمين» بعض الوجع، ويقرص لهم ضمائرهم المسترخية!

$ $ $

منذ سنوات وأنا أفكر في أن عليّ «علينا» البحث عن صيغة في التعبير عن الذات تترفع عن الشكوى والأنين، وتنبذ مفردات النواح واللطم، وتتوفر مع ذلك على الحيوية اللازمة لتجلّي عمق واتساع المعاناة، أو بالأحرى مأساة حرب الإبادة التي يتعرض إليها شعب كامل بتاريخه الكامل.

فمن ناحية، أنا أنفر من الحزن والشجن، ويلائمني الانطلاق في دروب الانفعال متخذة الغضب وسيلة للتعبير – كلما أتيح لي أن أفعل ذلك!

ومن ناحية أخرى، ما ذنب الآخرين، وأغلبهم أصدقاء ومحبون، لكي نثقل عليهم بالمزيد من آلام المشاركة في ما يشبه التبكيت، وأخشى أن أقول: «الابتزاز».

ومن الطبيعي أنني أتجنّب، تجنّب الجذام، إسعاد كارهي أو غير العابئ بي، بسماع وجعي ورؤية آلامي.

طيلة سنوات وأنا أحاول التوصل إلى اللغة والأسلوب والبناء، حتى المفردات، الملائمة لكتابة تترفع عن الشكوى، لكنها تلتصق بالواقع الجارح المهلك.

والأمر لا يتعلق بقرارات متخذة بدوافع نظرية وفكرية، بل نتيجة تفاعل دائم بين وطأة المأساة والسبل العملية التي اضطررت إليها، أو أتيحت لي في محاولتي للنجاة، جسدا وروحا، فكرا وإرادة... وماذا عن الإخفاقات والنجاحات التي أتاحت لي دائما مسربا أمينا للتأمل، وحيدة أو مع آخرين، وبخاصة مع أصدقاء حميمين زادت أيام العذاب من عمق ودادنا، برغم أن بعضهم قد أخذتهم «السَوْرة» إلى جهات العالم الأربع.

ولكن، هل حقا كنت سأستطيع الحياة من دون الطمأنينة التي وفرها لي وجودهم الأثير، مثل ينابيع ماء عذب في خضم محيط متلاطم من الحنظل؟

ومن ناحية أخرى...

دائما، هناك ناحية أخرى!

من قال إن ما نقاسيه هو أقل/ أكثر، أخفّ/ أشدّ، مما قاساه ويقاسيه أشقاء لنا في كل مكان من «بلاد العرب أوطاني»؟!

مما تجرّعه المصريون في سنوات إعادة التكوين الانفتاحية،

أو اللبنانيون في سنوات حربهم ذات الوجوه المتعددة المتجددة، المشعشعة بالهلاك للجميع، ومن أجل الجميع،

أو الجزائريون في سنوات ذبائحهم الأخوية،

أو الأردنيون،

أو الفلسطينيون،

أو السوريون،

أو الليبيون... أو... أو...

الكل يتقلب في أحضان هائلة من الجدب والعطش والقلّة والحرمان... احتقان القلوب وذبول الحناجر، اشتعال الرءوس وجفاف الدموع، انسداد العروق بمعادن قد رسّبها القهر وكثّفها الكبت وساقتها الحرقة نحو منعطفات أهرتها الحسرات!

ونحن نعلم أننا كلنا في الهمّ عُرب، إذْ يواسينا الأشقاء ويغمروننا بعطفهم ومحبتهم، ثم لا يلبثون أن يستسمحونا فرصة لكي يبثّونا شيئا من مخزون قهرهم:

أنتم... نحن... نحن، أنتم... أمّا هم! وأما أولئك... فماذا عنّا نحن... أنتم طبعا، ولكن لا تغرّنكم المظاهر، إننا أسوأ حالا، يقولون لنا... مواسين، أو مشاركين، وربما... «ربما» طامعين بمكانتنا!

وهكذا، نجعل – كأننا نتبارى – نتبادل الخبرات، بل نتنافس، وقد نتناحر! في من هو «هم» الأكثر وجعا ومعاناة ومقاساة،

فكأننا – لو كنا غيرنا – إنما نتبارى في عدّ منجزاتنا وجوائزنا ومقتنياتنا.

ثم نجعل نرصف خبراتنا حسب أنواعها وألوانها وموديلاتها، ونتأملها... وقد نتراجع قليلا لنرى تناسقها ومبلغ جمالها وهي تتلألأ بين منافساتها، فيطمئن كل منّا إلى أنه «الفائز»، فكل جرح في النهاية هو الأكثر إيلاما، وعندنا يقولون: «الوجع لا يوجع إلا صاحبه»!

$ $ $

أقول، متى سيمكننا فكفكة هذا التابوت الجرانيتي من حول قدراتنا الفكرية والتعبيرية؟ متى سيمكننا التخفف من وطأة الإلزامات المعيقة لانطلاق النبرة الفردية لكل منا لتجريب إمكاناتها، وتفحص مواضع خطواتها.

هل سنستطيع؟ هل سيقدر بعضنا؟ أحد منا؟ برغم أن تاريخنا، لأجيال، لم يتِح لنا تجريب النبرة الشخصية للتفكير والتعبير، التأمل وإعمال الخيال، مقاربة الهزل، أو حتى العبث...

أما الفلسفة، فهي مؤجلة، دائما، شأنها شأن العبث والهزل والتخييل والتأمل والشعرية ونفاذ البصيرة الفردية، إلى إشعارات أخرى لا تأتي... لم تأت... وكان علينا أن نكتشف بطلوع الروح أنها لن تأتي... إلا باعتبارها خيارا شخصيا فرديا.

ولكن... هل يتاح لأي فرد أن يقوم فينبري لاتخاذ قرار بأن «إشعاره الآخر» قد آن أوانه، وأنه يجد في نفسه «القدرة والكفاءة» لقول خطابه الشخصي في زمانه ومصيره؟ وهل في ذلك ما يتعارض مع المصير المشترك الذي رضعنا حليبه أجيالا بعد أجيال، من مصر لتطوان، من المحيط إلى الخليج، من الماء إلى الماء، من الشام لبغدان؟ ولماذا تحتّم– بطريقة لا أدركها تماما – أن لا يجتمع المصيران معا؟ ولماذا حلّ المصير المشترك بديلا نهائيا من المصائر الفردية؟

$ $ $

صحيح أننا كنا – ومانزال – نؤمن بالمصير الجمعي، من أعماق قلوبنا ووجداناتنا المتلهفة للانضواء في الفعل النضالي الجمعي، لكننا كنا نتوق إلى يوم يصبح فيه المصير المشترك مثل «منتدى» طريّ العشب رائق النسمات زاهي الورود، ننعم فيه كل بمصيره الفردي المتألق.

وكنا نؤجل هذا الحلم، لكننا كنا نريده، فقد كان تأجيله تضحية من كل واحد وواحدة منّا، وهي تضحية قاسية جارحة مؤلمة، سرعان ما أصبحت واجبا قسريا مكفهر القسمات يدفعنا لأن نصبح وجوها بلا ملامح.

أريد أن أقول، إنه ليس متاحا فصل المصير الفردي عن المصير الجمعي إلا بالخروج على «العشيرة»، وهذا يعني التصعلك لدى «عشائر» أخرى تراود المرء عن ذاته، لتربطها بالمصير المشترك للذوات المنضوية تحت لوائها... إلخ.

فإننا من دون التجاور والتضافر والمؤاخاة ما بين المصيرين الفردي والجمعي، سوف نضيع في غابة الولاءات، فلا نكون لأنفسنا ولا نكون لأحد.

بالمناسبة، عليّ أن أعود إلى سِيَر صعاليك العرب، لأرى هل حققوا سعادة التفرّد، أم إنهم انطفئوا بعد حين، ولم يتركوا لنا وراءهم سوى الوهج الخُلَّب.

أردت أن أصل إلى أن إدراك مراحل فكرية مختلفة، ورؤى جديدة للمصير الفردي والجمعي، لا يتحققان دائما في اقتران موات. لذا، يتحتّم على صاحب العلاقة أن يفكّر بوسائل خاصة لتحقيق الذات، أو قد يصل إلى قناعة بلا تحقيقها، بل بدثرها إلى الأبد.

فمن ناحية، فإن ذلك أسهل وأسلم عاقبة، ومن ناحية أخرى، فإن إدراك قيمة الذات لا يتضافر دائما مع قوة إلحاح تحقّقها، بل قد يدمر أحدهما الآخر، نتيجة قوة الوعي وانسداد المسارب، أو العكس، ضآلة الوعي ووفرة المزالق.

$ $ $

كنت سأحكي لكم، لكنني تهت في المنعطفات...

ولكن، ما الذي يمكنه أن يختزل أوجاع وآلام ومخاضات كل ذلك الزمن، كل هذا الزمن؟

الشعر يختزل، لكنه لا يشفي الغليل...

فكرت أن أصنع مشهدا كوميديا هابطا عن «يوم في حياة كاتبة تعيش الحصار وسوف تموت في ظلاله الوارفة»! ثم قلت إن الأفضل أن أصنع مشهدا هزليا رفيع المستوى عن امرأة تقف مثل تمثال من الملح على جانب الطريق السريعة للحياة، حيث تنخطف جميع المخلوقات كالبروق، بما في ذلك السلاحف التي لم تعد تشعر بعقدة البطء والتخلّف، فتغمزني وهي تدوس على ظلّي وتُلّعبُ لي حواجبها وتمضي.

لكنني أعلم أن كل ما سوف نحكيه قد أصبح من قاموس الفولكلور، ومن لم يقرأ الكثير منه يمكنه تخيل الأشنع والأشد بشاعة.

$ $ $

زمان... ظلّت المرأة الفلسطينية لعقود وعقود حين تُسأل عن قضيتها تحكي كيف أُخرجوا من بيوتهم، وكيف طخطخ اليهود حولهم وعليهم وفي أعقابهم، وكيف أنهم تركوا المال والحلال وهجّوا إلى البساتين المجاورة على أمل العودة خلال أيام... ومن بستان مجاور إلى آخر وصلوا شواطئ الخليج. فقد كانت هذه «تجربتها» التي غيّرت مجرى حياتها إلى الأبد. وكانت الكاميرات تنتظر اختلاجة الأسى «وليس الغضب» ودموع الخذلان، لكي تلتقط لها صورة، ينال مصوّرها جائزة ويعلقّها المتعاطفون على الجدران.

قبل شهور سألتني صديقة: هل أشارك في كتابة «شهادة!» عن حالي في الحصار، كامرأة وككاتبة؟

بصراحة، أحسست باشمئزاز، فقلت لها: «هل انتهى العالم من التفرّج على مآسي الفلسطينيين، ليبدأ بالتفرج على مآسينا؟».

ويسوءني كل الإساءة أن كاميرات العالم لا تصوّر في العراق سوى أناس يتكالبون على الغذاء ويحتشدون في الأسواق وهم غاية في القذارة والرثاثة، حتى ليبدوا وتبدو بغداد معهم كأنها الصومال أو أفغانستان... ألا يريدون بذلك أن يقولوا «إن شعبا كهذا لا يستحق مصيرا أفضل من هذا؟»، فأتساءل وأنا أشاهد هذه «اللازمات» الإعلامية: أين أنا إذن؟! أنا مازلت ابنة الطبقة الوسطى التي تتلقى أقسى ضغوط الحصار، وأين الناس أمثالي؟ لماذا يخفوننا خلف الأستار، ويعرضون المشاهد التي تناسب غاياتهم؟ لا تسألوني من «هم»، فأنا حقا لا أدري!

ستقولون إذن: ما الذي يفعله بكم الحصار؟

في تقديري المتواضع، وأنا لست خبيرة، لا في السياسة ولا في الاقتصاد، أننا – تحت الحصار – جعلنا «جُعلنا» ندرك إمكاناتنا في اكتشاف قوانين حياة اقتصادية بديلة، كأفراد أول الأمر، ثم – في السنوات الأخيرة – كمجموع يفاعل خبرات أفراده في معايير خبرة جمعية.

إننا نعاني أوجاع التحول من الاعتماد الكلّي على ثروة البلد/ الدولة/ الأم، إلى التحول الكامل والتام للاعتماد على الذات... وذلك يذكرّني بالفطام... كانت الأم تدهن حلمتي ثدييها بالصبر «مادة مُرّة غير سامة»! وتخيّلوا عذاب الطفل وهو يُصدم بالطعم الشنيع للثدي الدافئ وحليبه السائغ، والأهم انتهاء عهد الحضن الرحيم بانتهاء عهد الإرضاع... ويظل الصغير دائخا معذبا جائعا ضامئا، يدفعه الأمل مرارا إلى حضن أمه عسى أن يكون أرحم به من المرة السابقة، ويظل لأيام يتجرّع العذاب والأذى حتى ييأس، ويسلو ويتحول إلى مصدر غذاء جديد، بعيد عن الحضن الأمومي.

إن أصعب مراحل معاناتنا، حين كانت المحاولات في طور الفردية. ولكن الآن – كما أعتقد بتواضع – فإن معايير اقتصادية جديدة بدأت بالتشكل، وقد تتكفل في السنوات المقبلة بإحلال علاقات جديدة، ولكن تحت ظل معايير مختلفة لقيمة الفرد في سوق العمل، معايير صارمة لم نعهدها، ويستوجب استيعابها هذا القدر من الآلام المبرحة التي نعانيها.

إن الجانب المأساوي في الأمر أن هذا التحول جاء بعد سنوات حرب طاحنة عطلت طاقات الأفراد عن الإنتاج الحقيقي، وطاقات المجتمع، كذلك. هذا من ناحية عملية، ومن ناحية اعتبارية، فقد قُرّ في وعي الناس أن تضحياتهم في الحرب لابد أن تكون خاتمة المتاعب، فصدموا وهم يكتشفون أن رحلة التضحيات والمتاعب إنما بدأت مع الحصار، وإلى مدى غير منظور.

$ $ $

وأنا . . . أنا، ما موقعي من الإعراب في هذه الجملة المفيدة الهائلة التي تضع أوزارها في العراق والوطن العربي والعالم الثالث أجمع؟

باختصار . . .

لدينا كمَا لديكم جميعا، ولعلنا نمتاز بأننا مانزال في الخِضّم المتصف، خاصة، باختلاط الأزمان . . . واقعية سحرية، على رأي النقاد!

فأنا وأمي وجدتي وأم جدتي نعيش في زمن واحد، مكان واحد، كيان واحد: «أنا».

– فأنا: أنا، أقرأ وأكتب، أسافر قدر ما يتاح لي، لأظل على قرب من الحياة، أنتزع الوقت من عيون الزمان، والضوء من أي مصدر، وأسير على السراط وحدّ السيف، لكيلا أقع في مستنقع التخلّف أو الارتداد، وأقدّم الكتاب على رغيف الخبز، لكي أكافح العزلة.

– وأنا: أمي، أضع القرش على القرش، أؤمّن مستلزمات الأسرة: أطبخ وأخيط وأحيك، أربي الدواجن، أفلح الحديقة، «وأعمل من الفسيخ شربات».

– وأنا: جدتي: أعجن وأخبز، وأجفف المئونة، أصنع العصائر والخلاصات، وأزرع الخضار، وأكتشف «الأسرار العلاجية لمحتويات النملية».

– وأنا: أم جدتي، حين أستكين إلى أنني – برغم كل شيء – أستطيع مواصلة الحياة بالعافية والستر، أجلس لأحلم بحفيدة ابنتي التي «لابد!!» ستعيش مستقبلا «زاهرا!»، يمكنها فيه أن تطير مثل فراشة، وأن تتضوع مثل زهرة. ليتها – إذا ما أسعف حُسن الطالع – ترث عن جدها نعمة الكتابة وفصاحة القول وحسن القبول. فهل أعيش حتى أدرك ذلك الزمان؟!

هذا ما كانت جدّة أمي ستقوله.

أما أنا . . . تتكدس المشاريع أمامي، لكن العقبات تباريها وتسدُّ طريقها. أشتغل الآن على كتاب حول روايات الكاتبات العربيات في عقد التسعينات. وفي ملفاتي أكثر من رواية، واحدة منها، على الأقل، جاهزة، لكن كل واحدة منها ترفع في وجهي سبّابة متوفزة على خلفية من عين حمراء!

وكلما سمعت بخبر كاتب أو فنان عراقي، وقد «وقع» ميّتا، يلتقطني مدار العبث بعيدا، نحو عمق سحيق من كون روحي، فأتساءل: «هل يجب للمرء، حقا، أن يترك وراءه أثرا؟!»، فأجد أنني أكرر قولا سبق لجلجامش أن قاله في أبلغ صورة:

«الإنسان أيامه معدودات

وعبث كل ما يصنع، تذروه الرياح . . .».

فأقول، لعل ذلك الكاتب لم يكن «يتفلسف»، وإنما كان «ببساطة شديدة» في مثل ما أنا فيه.

ثم يغريني التأمل في افتراض أن سلسلة طويلة من الكتّاب والفنانين والرواة العراقيين القدامى قد وجدوا أنفسهم في مثل ما نحن فيه، فواصلوا صنع هذا الشجن ذي القرار العميق لإنسان لا يرى بديلا من متعة الحياة المرفهة الفعّالة، فإذا ما امتنعت، فكل ما يصنع المرء عبث، تذروه الرياح . . .

ذلك أن كاتبا بابليا قد زاد الأمر دقة، بعد جلجامش، بعشرات القرون، حين قال:

«انهض وامضِ بين أطلال الماضي

وانظر جماجم الأولين والآخرين

وقل لي: أيّهم الخيّر، وأيّهم الشرير!».

في الجهات الثماني للمدينة الجميلة

وداد الجوراني

أيْ جلجامش، ماذا تبغي؟

الآلهة الذين نفوْك إلى الجنة،
وضعوا الجحيم على راحتيك،
وقالوا لك: فلتمسك بالحياة!

أعوام طويناها كطي السجّل للكتب، وليس هيّنا أن نوقظ مسئولية السمع والبصر والفؤاد، كي نهادن الزمن أو نصطفيه، ولكن لا بأس أن يفعل ذلك من أراد أن يدلي فيكون الشاهد والشهيد.

بيد إن الذاكرة، ومنذ أن صحبتها شظية الحرب، وهي في أزمة الصمت والصوت كمن يصرخ في كابوس، ولكن عبثا ينتقل الصوت في الفراغ. وبين الصمت والصوت تزداد هوّة المسافة، ليتأرجح كل شيء في فضاء العبث القاتل، أما من هو القاتل، ومن هو القتيل، فتلك ثنائية لم تعد الذاكرة تجيد صياغة سؤالها، لأن السؤال مذلة، ولو أين الطريق؟!

هي محاولة، إذن، مجرد محاولة لرصف الحطام على الحطام، بجدولة الذكريات على حطام السنين، وإعادة تشكيل فسيفسائها الغائم، وإخراج ولو جزء يسير ومتواضع من الصورة. وهنا لابد مما ليس منه بد: أدير الزمن دورة كاملة، وأرتب الفصول، لا كما تهوى الطبيعة، بل كما يحكم القرار ذلك. وكيف سبيلي إلى حساب الزمن غير الاستدلال عليه بفقاعات ترغو وتتكاثف، حتى تستحيل إلى طبقات جيولوجية، لا ينفع في الوصول إلى شفرتها تقنيات الإنترنيت أو حتى أشعة الكاربون.

أخرج من كهف السنوات العشر وأقف أمام مرآة عمياء، أرى فيها نفسي والعالم، ولا تراني، هي وسيلتي للسياحة في ذاكرة المدينة الجميلة، والتقاط ما أمكن من الألواح واللَّقَى التذكارية، لقراءة ما حفرته أقلام السنين عليها من همم وهموم.

بداية البداية...

نحن في العام ١٩٩٠... مفردات حادة، ومنطق أكثر حدة... إشارات تهديد بجحيم الطوفان، وإشارات تحذير تومئ أن احملوا من كل زوجين اثنين في فلك الانتظار، وحملنا ذلك فعلا... مزيدا من مَئونة البقاء، ومزيدا من قلق لا يخلو من نافذة أمل، قد تفتح بقدرة قادر، والإ فإن برودة ذات نكهة غريبة تلسع دفء المدينة، فتقبض على النفوس والمشاعر والأفكار، ويختلق المجهول توقعات ما أنزل الله بها من سلطان، ولو علم المجهول ما سيحدث، لالتزم الصمت من ساعتها وإلى ما لانهاية، ولامتنع العام ١٩٩١ من تشريف الزمن البغدادي المعبأ بالاحتمالات، ذلك الزمن الذي راودته المتعة فتوسع فيها، إذ بعث في خيول هولاكو أجنحة ورتبا عصرية، كي لا يحرم الذاكرة من صورة الاجتياح السماوي، بعد أن اختزنت صورة الاجتياح الأرضي، والطوفان يتكرر!!

١٩٩١... إحداثية القمر!

الوقت شتاء، بل العالم كله شتاء، ورائحة البرد تفوح كما رائحة تفاح الشام... قبل قليل، وضعت العذراء سيدنا المسيح عليه السلام، ومايزال العالم، ونحن، في انتظار المعجزة. ترى كم سيطول انتظارنا!؟ هي ذي أول فقاعة في فضاء مسموم بالفراغ، عندها يتعطل الرأس وتنشط دوامة الكلام...

لكن الحوت يتربص للقمر يريد ابتلاعه، فهل ستنقذه طبول العامة وتعاويذهم التي بدأت تحاصر أسماع طفولتي وأسماع العالم: يا حوته يا منعوته، هدي قمرنا العالي، وان كان متهدّينه، نضربك بسكينه.

لماذا يعدّ العسكر عدتهم لدراسة إحداثية القمر؟ ولماذا تقاريرهم تقول: إن القمر يجب أن يكون أول الأهداف؟ ألكي تبدأ الحرب بإنزال أمطارها في الظلام؟ أو لكيلا يكون شاهد البداية عليهم؟!

القمر كائن هش وضعيف وقلق، هكذا تصفه الميثولوجيا في الوثائق السومرية والبابلية، لا يستقر على حال: يولد ثم يكبر، ثم يشيخ ويموت ويهبط إلى العالم السفلي، ليبعث من جديد مرة أخرى في دورة جديدة. والملفت في الأمر هو أن العراقيين القدماء كانوا قد قدسوا القمر، حتى إنهم اعتبروه أبا للشمس، واختاروا التقويم القمري، في حين اختار المصريون القدماء التقويم الشمسي.

كنت، ولسبب ما، أتابع تقارير العسكر، تلك التي تكشف العلاقة بين الحرب والقمر، وأشعر بأنني معنية بها، ولحد الآن، أمّا ما عدا ذلك من تقارير، فلم تعُد تعنيني في شيء، لأنها تشبه بعضها في المنطق والإدارة والتصميم، وإذ يتم الإعلان عن موت

القمر، لابد لساعة الصفر أن تخرج من محاقها، لتتفتح في سماء بغداد أقمار التنوير، تلك هي الفاجعة الكبرى، أن ينطفئ القمر في بغداد!!

أقفلت صحوتي على نعاس قلق. . . على نبأ يقول إن آخر أجنبي قد غادر المدينة، والقرار الذي لم يصدر بعد، كان قد أصبح في حكم البديهي، وما سيحصل سوف يحصل، شئنا أو أبينا، وبذلك تكون الذاكرة على وشك أن تقفل مدارجها بوجه الذكريات المغادرة، لتدخل كهف السنوات العشر بإرادة وقرار قاطعين، بعد أن تضغط ساعة الصفر على أول الأزرار.

الساعة السابعة والعشرون، صفرا. . .

القارعة ما القارعة، وما أدراك؟! الساعة السابعة والعشرون من ليلة ١٦ – ١٧/ كانون الثاني (يناير). . . أقفل عام، ومعه أقفل الزمن دورتيه الصغرى والكبرى، وجرّ أمامه سرابا مزمنا موبوءا بالمرارة والفراغ وفقدان الذاكرة. . . الساعة السابعة والعشرون في ليلة كانونية، فتحت السماء أبواب الجحيم وسط عالم شديد البرودة والتصريحات والمواقف، ولكن، قتل الإنسان ما أكفره؟!

استيقظت على صوت هدير يتعثر في السماء التي فوقي مباشرة، ومسحال من ضوء يكشف ألوان الستارة القريبة. قفزت ظنا مني أني سأمسك بمكان الإطلاقة الأولى مثلما أمسكت بزمانها. . . تملكتني بلادة في التفكير والمشاعر، لكني لم أصدم بالحدث، لأن الصدمة تستوجب علامة استفهام، ولا وجود لعلامة الاستفهام آنذاك، فكل ما يحدث هو أجوبة كان الاستفهام قد سبقها بكثير.

لم أدرك فداحة ما حدث إلا في الصباح التالي والصباحات التي تلته. أسباب الحياة تقطعت مرة واحدة وبدون رحمة: الوقود، الماء، الكهرباء، الاتصالات، فلم يعُد المرء يعرف شيئا عن أخيه أو عن صاحبته وبنيه. معظم البيوت مهجورة، قمر مطفأ، وشيء ما يتجسد لي كائنا خرافيا مرعبا بأبعاد وملامح مشوهة، يتعقبني في أي مكان أحلّ فيه. . . لم أتعرف على ماهية هذا الكائن الغريب القبيح إلا ليلة القبض على دموزي، أي، بعد ذلك بسنوات!

لست ممن يرفعون راية القناعة والرضاء، ولابد من التفكير في مخرج من خيط النار الذي يلتف، بعناية، حول جسدي فيحنطني. بدأت في استخدام المتاح من الوقود للخروج يوميا، باتجاهات القصف. ثم أخرج ثانية، لكنْ مشيًا على القدمين، كل مكان بما يناسبه من الحركة. ذاكرة التنقل السريع والبطيء، كل منهما تحفظ صورا شديدة الوطأ والوضوح والمرارة. توقفت عند أجمل جسر في بغداد وهو يغطس في نهر دجلة الحبيب، ورأيت أمهات في مستشفى العلوية والكرخ في حالة ولادة، وهن يطلقن صرخة الخوف والألم من المجهول القائم، لكن المفارقة هي أن ولادتهن كانت أسرع مما يتوقع الأطباء أنفسهم. . . كن في سباق مع الحياة والخلق الجديد! بكيت أمام مبانٍ ومساجد غاية في الأناقة المعمارية والتاريخية وهي مثقوبة من قلوبها وقلوب ساكنيها، أو منكفئة على خليط من تراب ودخانٍ وأرواح. . . التراب يعود إلى التراب، وكائنات الطين تعود إلى الطين؟! رأيت ورأيت، وتزودت من السوق السوداء، بمزيد من الوقود، لمزيد من الرؤية، لكنها رؤية شديدة الوعورة.

من ذلك الحريق المرعب، خرجت العنقاء من رمادها لتطير بجناحين كسيرين، إلى فضاء معبأ بمطر أسود، كمْ رهيبٌ وبشعٌ مشهد المطر الأسود، بل أشد بشاعة. يرسم تشكيلاته على المساجد والعمارات والوجوه، ويلونها بعلامات يتعذر على التاريخ أن يمسحها من ذاكرة المدينة الجميلة! علامات استفهام سوداء كبيرة. . . ألسنة واستطالات وعفاريت، تكوينات أشبه ما تكون بقصة من قصص أيام زمان عن عالم الإنس والجان.

رحلة الآلام قضت أن نجرب غصة الحرب، لنخرج منها إلى غصة الانكماش والتضاؤل تحت مشدات الحصار، ولأن مفردة الحصار موجعة حقا، فقد بادرت إلى لسان العرب أستفتيه في معناها. لم أجد ما يشفي فضولي سوى أن معناها في مجمله «ضيق في الصدر والنفس». . . وحتى إشعار آخر؟؟

هكذا، إذن. . . انطفأت نار واشتعلت أخرى، ودخلنا نفق الامتحان، لنضع علامات استفهام للوطن ولنا، والأوفر حظا منا مَنْ يستطيع الإمساك بالحد الأدنى من الإجابات، معلنة كانت أو غير ذلك، كي تكون له سطوة القرار أو مبررات وأسباب الفرار. وما بين سطوة القرار ومبررات الفرار هواجس كثيرة، بعضها يتخذ شكله الأسطوري، وبعضها الآخر ملموس بالعقل والحواس.

ولابد للعنقاء أن توطن جناحيها للخروج من النفق، ولو زحفا على بطنها، إلى فضاء المحتمل والممكن والمتوقع.

منذ البداية، قُدِّرَ لي، كما الآخرين، أن أنتظم في قافلة الحصار، والقافلة، شأنها شأن أية قافلة أخرى، لا تحتفي بالمثقفين. لأن «تجارة الثقافة»، إن صحت الاستعارة، لا تسمن ولا تغني، ولا يمكن للكلمات أن تجرب التزحلق على الحقيقة.

هكذا بدأت الفكرة منذ البداية (تاجر – مثقف – رعية – رعاع). وفي الزمن الصعب، تتراجع لغة المشاعر والتأمل، وتفصح لغة الأرقام بشكل أشد قسوة وجبروتا... ولا أدعي المبالغة إذ أعتبر «الحصة التموينية» ضربا من الابتكار والإبداع، بها احتفظ المثقف وغيره بالحد الأدنى من الكرامة وصراع السوق.

مشيت مع القافلة سيرا على قدمي وصبري ومرارتي. هواجس القافلة هواجسي وهي تتشكل بحجوم ماورائية، والمثقف إنسان بلحم ودم، لكن حساسيته ورؤيته تسجل للحدث أرقاما قياسية على جهاز ريختر، ولابد له أن يلمّ حطامه ويقف على قدميه، ليكتشف، وبسرعة، ما أحدثه الزلزال، وإزاء لذة الاكتشاف المصحوبة بالمرارة والألم، بدأت أشق طريقي.

لا أدري، بالضبط، كيف بدأ الفراغ يمارسني؟! قد يكون لعبة؟ قلت سألعبها إلى حين يتوقف أو ينتهي زمانها. لكن الزمن يتراجع، والشظايا تتناسل، وأخاف على أصابعي أن يلونها الصدأ، وعلى خطوتي أن تلامس الفراغ من نهايته السفلى؟! لم تعُد اللعبة لعبة، بل تبلورت إلى فكرة، ومنها نضجت لتكون فلسفة، خلاصتها أن شظية ما سقطت في الذاكرة، ثم إذا بها تحفر في كل الاتجاهات، لتتصل بهوّات كثيرة من حولها وخارجها، وتبدأ مدارها في الفراغ الكبير، وصار التشظي يأخذ مشهد اللانهائي، موقدا في الفراغ حرائق لا تعرف بردا ولا سلاما.

في الفراغ الأول... حين اكتشفت الحرب نور القمر، بل ورفعت شعار «مدينة بلا قمر»، دفعتني الفاجعة لاكتشاف ضوء الشمس. كنت وقتها تحت طائلة القصف والتنوير وانقطاع وسائل الحياة. عمدت إلى سلة النهار، أجمع فيها الشمس، وأضعها على النافذة العريضة، ومعها بدأت أحصي غرزات الزمن بخيوط ملونة كانت حتى ذلك الحين مركونة في أحد زوايا الإهمال، مع النَّفْل والسقط من المتاع.

اكتشفت وقتها أنني أتفنن في الحياكة مثلما أتفنن في العجين والخبز والطبخ والمشي على القدمين، وفرحت! لقد صنعت «بلوفر» السلام على إيقاع الحرب، ولم يدهشني أن ابنتي رفضت أن ترتديه، فألقيت به في جدول الذكريات، أقلبه بين الحين والآخر.

وسرعان ما شعرت بأن هذه اللذة المستكينة تحاصرني وتزجرني عن ممارسة الاكتشافات الأخرى، فعاودت المشي، ولكن، في الفراغ التالي...

أتطلع في الجهات الثماني للمدينة الجميلة، لقد اغتيل الجمال جملة وتفصيلا، ولم يبقَ منه سوى ما نحمله في رءوسنا. أتذكر أن مثلا سومريا يقول «ينحني القصب أمام الريح حتى تمر العاصفة» فيعود إلى قاماته الخضر، لكني لا أتذكر عن قاماتنا شيئا سوى أنها أصبحت أطول بقليل، فحصدت منها العاصفة الشيء الكثير، وماتزال. إذن، لابد من معايير وأسس جديدة تتناسب وواقع «الآن» بجراحه وإحباطاته. قبل كل شيء، لابد أن نعوّد رءوسنا على معاودة استقامتها، وعيوننا على التحديق في الظلام، كي نستطيع أن نبدأ بكتابة الخطَاب الجديد، ولو لأنفسنا.

كانت العامرية هي أول الخطاب. وأول حروفها عصافير تذوب في عالم كله شتاء... فرن هائل يتعالى جحيمه وشواظه أمام ناظري ونواظر الأهلين، ولاَتَ ساعةَ خلاصٍ من هذا الشواء البشري المرعب. قضي الأمر وتعذر على الأحياء أن يتعرفوا على موتاهم، وعلى الموتى أن يقولوا لماذا؟ هو الطوفان بالنار مثلما الطوفان بالماء، أولهما يعيد الطين إلى الطين، وثانيهما يحيل الطين إلى رماد، ومن الرماد طار سرب العنقاوات باتجاه الله، لكن ليلة القدر لم يحنِ أوانها بعد!

توقفت عند هذا الحدث وأنا مثقلة برائحة الدخان والحديد والشواء الغريبَ أمام فراغ إنساني هائل، يتبلد فيه الضمير والمشاعر والأحاسيس، ويتحول مشهد الاحتراق الإنساني إلى موكب انتصار لتكنولوجيا الفراغ الدولي.

ذهب الذين أحبهم...

«إذا قُضيت المحنة فانتشروا» – هكذا قال المؤذن حين صلّى وصلّوا معه... أدّوا مناسك الحزن وبادروا إلى حلبة السباق

ليتقاسموا خرائط المنفى . . . بعضهم عبروا إلى عمان، وبعضهم عبروا بحور الشرق ليكتشفوا سوءة الأوزون في نيوزيلندة . . .

ذهب الذين أحبهم، وبقي ولدي الوحيد دموزي الأمير الجميل الذي عشقته إنانا، واختارته من بين العباد ملكا على ذوي الرءوس السود. الراعي دموزي، إله الخصوبة والكثرة يلبس جلبابه الأحمر ويعلق الناي في رقبته ويتلفت في الحقل، متى يلمس الماشية، تتكاثر بين يديه الجداء والخراف وتفيض الأهراء باللبن والزبدة والأمل الوفير.

أنجبتُ دموزي وعشقته، أميرا ممدود القامة، جميل الخطوة، موفور الشباب، يرسم صبارة كفّه على النافذة، فتطير عصافير الحب من قلبي . . . يدخل البيت فيملأ البيت. أقدم له أطايب الطعام والشراب والكلام، ويمنحني إحساسا دافئا بالأمن والبهجة . . . دموزي هو القصيدة التي نسجتها بخيوط الذهب وماتزال تشاكسني وتمتنع عليّ نهايتها!

نحن في شباط (فبراير) من العام ١٩٩٦، صام دموزي وصمنا رمضان المبارك في انتظار عيد الفطر المبارك. ولأول مرة في هذا الشهر من السنة، اكتشفت أن فيه تهاجر الغربان إلينا فتملأ الحقول وتغطي أسلاك الكهرباء، وتباهي بلونها الأسود على طول الخط السريع. ابتهلنا إلى السماء أن تغادر الغربان، كي نحتفل بالربيع . . . لكن حتى إذا قطعت الغربان هجرتها وغادرت، فإن «الكالا» يتربصون. ضاقت بهم بدلة الحصار، فصاروا يجوبون فوق جنح النهار!!

حضر العيد، ومعه حضر الكالا والغربان . . . حضروا جميعا، وكنا نحذر بعضنا، لكن الصوت، وكما قلت لكم، لا ينتقل في الفراغ، بينما رصاصة «الكالا» لم تتلكأ، وأخذت طريقها إلى قلب القصيدة وقلب دموزي، وظل إيقاعها الأحمر يضرب على ضلوعه وعلى قلبي، ومايزال!

في عام الحوت انطفأ القمر، وفي عام الغراب انطفأ قمر آخر، وملأ التراب وجه دموزي.

صرخت صرختي اليتيمة، فاستيقظتْ تماضر من نومها الطويل. قلت لها: هل مكتوب على الشعر أن يثكل بأجمل القصائد يا خنساء؟؟

تطلّعت تماضر إلى السماء، ثم عادت، فأغمضت عينيها الدامعتين. قلّبتُها ذات اليمين وذات الشمال، وقلت لها: ماذا بعد الحزن يا خنساء؟؟

تشظيات يومية في عمود أسبوعي . . .

يبقى الشعر هو هاجسي وفردوسي وسط غائلة الجحيم الذي ينازعني هذا الفردوس، وتأتي الصحافة في منزلة أخرى بعده، هي نافذتي التي بها أرسم ما يحضرني من التشظيات اليومية في عمود أسبوعي، على الصفحة الأخيرة من جريدة القادسية، تحت عنوان «ن والقلم». لكني أجد أن كل الأشياء تتغير: السوق، العائلة، الهوايات . . . وأنا. ولم يعُد العمود الصحفي ليشفي ما تمور به النفس من شعور بالغثيان إزاء ضغوط الحصار، وأجدني مشدودة إلى الماضي، لا لعبادة أوثانه، بل لأنني أيقنت أنه الجزء الوحيد من الزمن الذي هو لي، وللآخرين . . . هو ذاكرتنا الآمنة المطمئنة، وهو الحلم ولا حلم غيره . . . أعرف جيدا أن الأحلام هي صورة المستقبل، لكن الزمن بالنسبة إلينا مقطوع الرأس دائما من هذه اللحظة، وما وراء هذه اللحظة فهو حلقة من حلقات مجهول كثيف الظلمات، يحكمه منطق الحرمان من الإحساس بالجمال.

ولكي أوقظ حاسة الجمال، فكرت بشيء من التغيير، فقد يكون في الخروج من الرتابة دافع لصناعة شيء مفيد . . . عندها تحركت في اتجاهين: الأول هو التغيير الوظيفي، والثاني هو التغيير في التوجه الفكري . . . وفي كلتا الحالتين تكون إمكانية الإبداع والاستمرار أكثر جدوى.

في هذه السياحة الجديدة اقتربت من ميدانين مهمين هما: معايشة المسرح مشاهدة وكتابة، ومعايشة التاريخ القديم بارتياد معهد التاريخ العلمي العربي للدراسات العليا. وكانت الحصيلة العلمية مشجعة، تتلخص في نيلي لشهادتي الماجستير والدكتوراه في فلسفة التراث، وكتابة عدد من النصوص المسرحية، ونشر مجموعتين شعريتين، وكتاب في التاريخ . . . كما لبّيت بعض الدعوات، فسافرت إلى عمان والسودان وتونس.

العام ١٩٩٧

سألت الشيخ: كيف اخترت قبرك يا جيلاني؟

تحفّى الشيخ ورمى وقال لي : ارْمِي .

قلت : ما أنا برامية ، ولن أكونَ !

أمسكني الشيخ كطفل صغير ، ورسم لي قفصا وشريطا أخضر وبعض دخان ، وقال لي : ارمِي .

تتبعت خيط الدخان ، وحين قطعته ، وجدته يخرج من عيوني ! !

العام ١٩٩٨

ليتنا لم نتعرف إلى نور عبقريتك يا إديسون !

العام ١٩٩٩

تاريخنا مليء بالأساطير ، ولسنا بحاجة إلى بعث أسطورة «الحي الميت» .

العام ٢٠٠٠

أمانيّ شديدة الوعورة ، تنطلق في سباق المسافات الطويلة ،

لكن شيئا من نور خجول يندفع من النفس والروح باتجاه الأفق البعيد . . .

لعل عام الحمامة آت . . . لعل على الجودي ترسو سفينة الخلاص

إنْ كان لنا ، فلنا ، وإلّا فلأولادنا وأولادهم . . . ليت . . . لعل !

شهادة الحب والحياة في زمن الموت والحصار

د. بشرى البستاني

من يعرف كثيرا يتكلم قليلا، لكيلا يقال عنه: كذّاب، ذلك هو قول البرازيلي جورج أمادو في إحدى رواياته، ولعل لسان حال بطلته كان يعاني ما أعاني الآن من مرارة ومكابدة، فقد كانت هي الأخرى تعبة من الحرب، وأنا وأجيال متداخلة حولي، في هذا العراق الصابر، مرهقون من جرائم شتى، تواصل فعلها التخريبي داخل الإنسان العراقي، وتحصب فضاءاته بالحصى، وعينيه بغبار من نار، لكنه مازال يصرّ على الحياة.

هل حصل مثل هذا الفعل في تاريخ الإنسان عبر العصور؟

هل سبق أن مورست مثل هذه الجرائم ضد شعب لا يعرف أبرياؤه لماذا يعاقبون؟

يوم انتهى العالم (المتمدن) من ضرب وإحراق العراق في تلك الليالي الهمجية المريعة، وعاودنا الدوام نهاية الشهر الرابع، كان كل شيء في المدينة التاريخية العريقة يضجّ بالأنين، لم يتركوا مؤسسة ولا مركزا بحثيا، ولا مذخر غذاء أو أدوية، ولا معملا أو مصنعا إلا وألحقوا به الدمار، مئات البيوت ضربت وأهلها في الداخل... الجوامع والكنائس والأديرة وفي داخلها رجال الدين، الدوائر، قطعان الماشية في البراري – وأصوات الانفجارات الهائلة في أعماق ذلك الظلام الشاهد، في تلك الظروف كتبت قصيدة «شجر الرمان»، مطلعها:

العاصفة الهمجية...
كنست كل شوارع بيتي
وتثنت كغصون البانِ
انعطفت نحو البستانِ
وغابت في أشجار الرمانْ

بدأتْ إشكاليات الحياة تتفاقم، وراح الخوف يتزايد، نظرة مجهولة إلى الغد، وذعر غامض مما سيأتي، راح الناس يبيعون من أجل الغذاء والدواء أثاث البيوت... الثلاجة والتلفزيون والمدافئ والفرش، وللأدباء وأساتذة الجامعة شيء آخر نفيس في البيت، شيء عزيز، كانوا قبلا يفضلونه على الغذاء يوم كان الغذاء وفيرا، ذلك هو الكتاب، لكن هذا الأخير لم ينجُ من البيع يوم صار الغلاء الفاحش يبتلع السوق، وهكذا، خرجت الكتب النفيسة من البيوت، وخرجت المجلات الثقافية بدوراتها الكاملة، وصار الورق شيئا نادرا، ورحنا نفتش عما كتبناه على صفحة واحدة من قبل، لنكتب على الصفحة البيضاء الثانية، وأوجعت الحاجة القلوب، وبدأ التحدي يجتاح نفوس الناس ليزيح عنها اليأس، حينما أدرك الجميع أن القضية ليست قضية نظام حكم، ولا هي خطأ قرار أو صوابه، بل القضية أكبرمن ذلك وأدهى، إنها قضية إبادة شعب كامل لا لذنب ارتكبه، بل لأنه رفض أن يركع لإرادة النموذج الآخر، نموذج القهر واستلاب الإنسان. آلاف النساء تموت بالولادة، لعدم توفر المخدر وغياب الأدوية الضرورية للعمليات الصغرى والكبرى، آلاف الشيوخ يموتون بشحة أدوية الأمراض غير الصعبة كارتفاع الضغط والسكر، آلاف الشباب أصيبوا – على غير العادة – بارتفاع الضغط الانفعالي والذبحات الصدرية... ولا دواء. عشر سنوات من فرض الجوع والمرض والفقر وموت الآلاف الذين كان يكفي لاستمرارهم على قيد الحياة شريط واحد، أو شريطان من الدواء كل شهر. وتعب الأصدقاء، تعبت قلوبهم المكابرة الطافحة بالعطاء، مات الشاعر محمد البياتي وهو دون الثلاثين، رحل الفنان التشكيلي ستار الشيخ وهو في الأربعين، وهزنا رحيله، فقد كان كتلة إبداع ونشاط وصدق ومثابرة، من أبرع فناني البوستر في العراق، لوحته التشكيلية ذات نكهة خاصة، معارضه القطرية لا تنسى، مات وهو ينتظر دوره في طابور العيادة الشعبية الطبية، ليأخذ حصته من

دواء محظور منعت لجان التفتيش دخوله إلى العراق، مدعين احتواءه على مادة يصحّ استخدامها في صنع المتفجرات!!! مات الشاعر الرائد محمود المحروق ونحن نبحث له عن مخدر وبعض قناني السيلان، محمود الشاعر الدافئ والإنسان النبيل والصديق الحميم، مات القاصّ والأديب الكبير محمود جنداري في عز الشباب والعطاء، مات بشحة الدواء، أيضا، قبل يومين كان يحدثني عن مشاريعه الأدبية الكبيرة، محمود جنداري الكبير قلبا وأدبا ونبلا وعطاء، مات القاصّ الرصين سامي طه الحافظ الأديب والصحفي المثابر، مات الشاعر المتمرد عبد المحسن عقراوي هاربا من شوارع الجوع والمحاصرة إلى المستشفى، مات الشاعر الدكتور جليل رشيد وهو يدين ما يحدث، أنهى محاضراته في الكلية، ألقى آخر نكاته المريرة عن الجوع، وخرج إلى بيته ليموت عصرا وبشحة الدواء، كلهم ماتوا بشحة الدواء الذي كان ومازال رخيص الثمن في كل العالم إلا العراق، ماتت الباحثة الدكتورة مناهل فليح، زارتني هي وإحدى طالباتها ظهرا، وشكت لي نفاد دواء قلبها، ثم ماتت في الليل، ومثلها مات الشاعر محمد النعمان، والأستاذ الدكتور حازم عبد الله، والدكتور محمد سعيد الحافظ، وعشرات غيرهم من الأساتذة ينهون دوامهم في الكلية، ويذهبون إلى البيت ليموتوا، وكذلك فعل الأدباء والشعراء والفنانون، هكذا مات الشاعر ذو النون الشهاب، والفنان التشكيلي ضرار العكرو، مات وهو يحارب الحصار بلوحاته ويرسم صورة غدٍ مشرق لوطنه. في هذه المرحلة اختلط الحابل بالنابل، ولم يعُد للناس بصيص من أمل، حينذاك كتبت مجموعة قصائد تعتمد الكثافة والتركيز، منها قصيدة «المفتاح»:

قال الرجل المدمن:
أنت سرقت المفتاحْ
وتركتِ سكارى القاعة يرتبكون
والراقصة المخمورة تبكي
اشتعل الضوء الأخضرُ
وارتبك السيرْ
والرجل المدمن يصرخُ:
هات مفتاح القاعة
فالراقصة المخمورة تبكي
وأنا مسجونٌ حتى هذي الساعة!

ومثلها قصائد: «الناقة»، «دنيا»، «الحركات»، «الطاغوت»، «دوار»، وغيرها. وفي هذه المرحلة، احتدمت في الأوساط الشعبية والجامعية حوارات حادة عن حصار العرب لنا، وحصار الدول الإسلامية، أيضا، العرب الذين أحببناهم وبكينا آلامهم وغنينا لانتصارهم، لماذا يصمتون على موتنا المريع؟ وتطول الحوارات حول غياب الفاعلية الجماهيرية في الساحة العربية، وسيطرة السلطة وتبعيتها، وصار الشائع: لا عتاب على أمريكا وإنكلترا ومن لف لفّهما، إذا كانت الدول الشقيقة والصديقة صامتة على قرار الحصار واستمرار تجديده. كنت في ذلك الحين إذ أشعر بالاختناق الشديد ألجأ إلى الحلم... أغمض عينيّ وأتخيل آلاف الشاحنات العربية والإسلامية، تجتاح الحدود العراقية محمّلة بالأغذية والأدوية ولعب وملابس الأطفال المحرومين، ويوم جاءتني جارتي الدكتورة بتول غزال، رئيسة الاتحاد العام لنساء العراق، برسالتين من الجزائر: واحدة من طفل والأخرى من سيدة، يعلنان فيها عن مشاعر الحب والمؤازرة لأطفال العراق، وقد أودعا الرسائل في علبة حليب... بكيت فرحا، فقد كنا بحاجة إلى أي نوع من أنواع المشاركة الوجدانية، إن لم يكن بالإمكان فعل شيء آخر.

ضاقت حلقة الحصار أكثر، صارت أوضاع الناس مقلقة، وساءت أوضاع أساتذة الجامعة والأدباء أيضا، توقفت مشاريع التأليف، وغابت المجلات الجامعية المحكمة عن الصدور، لشحة الورق وشحة الرواتب وغياب الحوافز أمام الغلاء الفاحش وتزايد الأسعار الجنوني، بحيث صار الراتب لا يتناسب ومعيشة يومين في الشهر. وبدأت مأساة جديدة، بدأ رحيل الأساتذة إلى الخارج، وراح الآخرون يبحثون عن أعمال إضافية، فضلا عن سوء أحوال الطلبة. كان الأمر يحتاج إلى طاقة هائلة لاحتضان ما يجري، وامتلاك القدرة على التعامل الموضوعي مع الحالة، الطلاب صاروا يعملون عصرا وليلا، والطالبات يعملن ليل نهار في التطريز

والخياطة والحياكة وصناعة الدُّمى وصنع الأطعمة لبيعها في البيوت، كانت اللوعة تجتاح صدري وأنا أتأمل وجوه الشباب الشاحبة وعيونهم الذابلة كدا وسهرا، وأقدامهم العارية في شتاء الموصل القارس الذي تهبط فيه درجة الحرارة تحت الصفر، فثمن الجوارب يعادل راتب موظف بأكمله، لكن هل أثر كل ذلك على إرادتهم العلمية؟ كنت أموج فرحا وأنا أبصر إصرارهم على الحياة، وإقبالهم على الكتب، وبحثهم عن المصادر الجديدة، ومتابعتهم للدوريات الجادة التي تصدر داخل وخارج العراق، ومراسلتهم الجامعات والمكتبات والأساتذة المتخصصين من أجل الحصول عليها، ويزداد فرحي، حينما أقرأ بحوث الجادين منهم وأقرأ أجوبتهم، وأراهم يتنافسون على الدرجات، وأبصر نضالهم من أجل الدراسات العليا، ومثابرتهم في متابعة المنهجيات الحديثة، والبحث عن أكثر الدراسات جدة وأصالة، وكانت السعادة تملؤني وأنا أبصر جديتهم وهم يشاركون في المسابقات الإبداعية الجامعية، تلاوة وخطابة ومقالة وخاطرة، شعرا وقصة ومسرحية، يتبارون في الرسم والنحت والفوتوغراف، في الموسيقى والتمثيل والإخراج، مهرجانات علمية في مسابقات البحث الخاص، أوسمة وجوائز وحفلات تكريم. وأحسّ وأنا أشرف على بعض هذه اللجان أن هذا الوطن، بهؤلاء الشباب المتألقين، قادر على مواصلة الصمود والصبر، قادر على الانتصار، أشعر بأن هذه الطاقات الشابة عرفت طريق التحدي، وأدركت مواطن ضعف العدو، فاخترقتها بالعلم والعمل والإنجاز الإبداعي الخلاق. كان الأساتذة الذين منحتهم الرصانة العلمية زهدا واقتدارا وتماسكا داخليا، يعمقون في الشباب روح التحدي والاستمرار في خوض معركة الحياة صعبةً مكابدة، حتى النهاية، فهكذا، تغتاظ الإمبريالية والمؤسسة الصهيونية التي تقودها، هكذا، بالتواصل مع ماضي العراق الضارب الجذور عمقا في الحضارة، والتحضر... تاريخ مدهش عمر إنجازه أكثر من خمسة آلاف عام يشاهد الطلبة شواخصه باذخة أمامهم كل يوم... سور نينوى الشامخ المتين القريب من المركز الجامعي، والثور المجنح، والأسد المتبسّم بوجه إنسان عراقي رائع، وآثار نمرود، وأعمدة الحضر الرخامية الضاربة في الفضاء، والمتاحف العراقية الشامخة بوجه دوي الطائرات والصواريخ الحاقدة وهي تشعر بالضآلة والغياب التاريخي وانقطاع الجذور، أمام هذا العملاق الشاهق في قلب الماضي، والحاضر في جبهة العصر.

في هذه المرحلة، وجدتني أدخل في حالة جديدة من التحدي، سلاحها التصوف بما فيه من مواجد وانصراف عن الأعراض للجوهر، التصوف من أجل مواصلة الحياة داخل قضبان الموت، ومواصلة التواصل داخل قضبان القطيعة، وهكذا، كتبت ديوان «مئة قصيدة حب ونيّف»:

طيلة ذلك الليل الشتائي...
أرقص معك على نغمٍ هادئ،
أرقصُ معك على نغمٍ مجنون،
وأذبح بك أوتار الزمن...
$ $ $
في رأسي تشتعل غصون قصيدة خرساء
وفي أصابعي أشمّ عطب الزنابق
وفي الغابة يتواصل الحريق...
$ $ $
أسألكَ كلّ صباحْ:
أتعرف عدد البلابل المغرّدة خلف نافذتي،
وتسألني كلّ مساء:
أتعرفين عدد البلابل المذبوحة في الطريق إليْ!

كما كتبت ديوان «مخاطبات حوّاء»، تمجيدا لعظمة المرأة التي كانت بطولتها تضيء مصابيح في ليل الحصار، وكانت تنجح دوما:

وقلتَ لي :

إذ يجفوني وجهك تذبل فناجين القهوة ،

وتنكفئ الدلالْ

يا سيدةً تصل النور بالنبع

والوجد بالوجع

والغربة بالتمني

أتسمحينَ بالموت على ضفافك؟

يا امرأة عتبها ولع

وصمتها جزع

ودعوتها امتثالٌ . . . صليني

$ $ $

وقلتَ لي :

في الليالي الموحشة دثريني

بورق الجنة المتساقط من أناملك البُنية ،

وهي تمسحُ بالضوءِ صدري . . .

$ $ $

وقلتَ :

لإرادتك أسلمتُ أمري

كي نضيع مرة أخرى

في هذه الجنة الوارفة الحريق . . .

وكانت قصيدة «نداءات سرية» من القصائد التي أحببتها في هذه المرحلة ، فقد تداخلت فيها المشاعر بالمواجد بالمواجع ، ومطلعها :

يوقظني الموت على صوت العصافير

التي تنداح في الظلام . . .

توقظني كفّ غصون كلما أثقلها الحزنُ

هوت فوق جبيني ،

تنشد السلامْ

يوقظني معراج هذي الروح

كلّ فجر . . .

توقظني السماء وهي تفتح الأبوابَ للحروف

والأسماء

يوقظني إسراؤها ،

يوقظني السرير إذ ترتعش الأعمدة الخرساءْ

في جوفه وتجهش المياه بالبكاءْ . . .

وحينما وجدت تراكم الخسائر من حولي أكبر من أية تجربة أخرى ، غير مكابدتها هي مكابدة الوجع ، كتبت قصيدة «الصومعة» ، ومطلعها :

صومعة الصوفيّ حطت من علٍ
تحطمت شظايا
زنبقة الصوفي صارت في الدجى
مرايا . . .
وانبثقت حصيرة الصوفي حقلي عنب وتين
$ $ $
في عتمة الحجرْ
في كهف أمنياته
في ضيعة العباد والبلاد
في تشابك الظنون باليقين
والهامش بالمتونْ
تلوبُ كفاهُ
فمن سيقطف الثمر
ما بين سرّ الأرض والنهرْ . . .

عام ١٩٩٨ ، زادت الأحوال سوءا ، وتفاقمت وفيات الأطفال ، وكثرت أمراضهم ، لم تعُد شحة الدواء وحدها السبب ، صار سوء تغذية الأم الحامل وضعف مقاومتها هو أحد الأسباب المهمة ، وصار الأمر يحتاج إلى معالجة حركة المجتمع كلها ، فكيف السبيل إلى ذلك والصمت العربي مريع موجع؟ في هذا العام ، كتبت قصيدة «مكابدات ليلى في العراق» ، إذ تفيد القصيدة من تقنية القناع ، متلبسة بقناع ليلى العامرية ، وهي تكتشف بطلان حبّ قيس ، مجنون بني عامر :

السماء دخان . . .
والسماء غراب جناحاه لا يطرفان
والسماء طوت أفقها
فضت السامرين
دنت من فيافي بني عامرٍ
تتلعثم بين الخيام
تتلفت : قيسٌ يطارد غزلان نجدٍ
وقلبي يطارده في الزحام
وعاذلة في اليمامة تسألُ
عمن سيخسر فيّ الرهانْ . . .

وهي قصيدة طويلة ! كتبت قصائد أخرى رافضة لكل الأحوال اللاإنسانية التي آل إليها مصير شعب بريء ، منها قصيدة «موسيقى الحصار» ، وقصيدة «محاصرة الطفل محمد» ، وقصيدة «ليلى العامرية» ، وقصيدة «موسيقى عراقية» ،

و . . . انفرط العقد وليلى في الطرقات
تبحث عن حبات قلادتها . . .

برحيل الأساتذة ، بدأت بعض الأقسام العلمية في الجامعة ترتبك ، فجاء العلاج العراقي حاسما ، أن تفتح الدراسات العليا أبوابها للطلبة المتفوقين ، ولمن يرغب من الموظفين المتميزين . كان قسم اللغة الفرنسية واحدا من تلك الأقسام ، وتخوّف الأساتذة ، ومعهم الطلبة ، إذ كيف ستكتب الأطاريح بلا مصادر ولا مراجع ولا دوريات ، واللغة فرنسية هذه المرة . ترددت شقيقتي – وهي من المتفوقات في القسم – أول الأمر ، قلت لها مع بداية التقديم : أراكِ صامتة ، قالت : والمصادر؟ قلت لها : مجدك أن تنالي

الماجستير في هذه الظروف الصعبة رافضة بإصرار إغلاق قسم علمي عمره في الجامعة أكثر من عشرين عاما، لتقضي تدريسية في قاعة علمية أراد لها العدوان أن تقفل، وأقدمت منال، جمعت المصادر من الأصدقاء والزملاء في الموصل وبغداد، ومن الأساتذة الذين كانت دراستهم قبلا في فرنسا، ومن المعارف المقيمين هناك، ومن الكنائس العريقة بمكتباتها العامرة، ومن القسس الدارسين في فرنسا، كتبت منال وزملاؤها أطاريحهم بجهود استثنائية، ووقفوا يواصلون تدريس اللغة الفرنسية وأدبها، وواصل القسم حضوره مقررا فتح دراسة الدكتوراه هذا العام، لنجاح التجربة، وتخرّج الطلبة العراقيون المثابرون بتقديرات جيدة.

وبعد. . . فهل استطاعت شحة الورق وندرة الأصباغ وغلاء أسعارها الفاحش، أن تمنع الفنانين التشكيليين من الإخلاص لفنهم؟ في أحد المعارض التشكيلية، قال لي الفنانون بإصرار: والله لو نفد ورق الأرض وقماشها، ولو غيّبوا جلود الحيوان وورق الشجر لرسمنا لوحتنا الصامدة على جلود أجسامنا وقلنا للعالم: ها نحن نتحدى الحصار.

وللأطباء العراقيين صولتهم في مقاومة الحصار، جاري الأستاذ الدكتور قيس الوتار من أبرع الجراحين في العراق، لم يثنه عن مواصلة عمله عتمة الظلام ولا برد الشتاء ولا حر الصيف، لغياب تكييف صالات العمليات، بسبب انقطاع الكهرباء – اثنتين وعشرين ساعة في اليوم. يحكي طلبته المرافقون له عن حضوره في صالة الجراحة، والطفل بحاجة إلى جراحة عاجلة. . . أول ما فعله الطبيب أن لفّ جسد الطفل بالقطن والأشرطة الطبية، وبعد انتهائه من إجراء العملية بنجاح، انكبّ على الطفل وهو على المنضدة محتضنا إياه من أجل دفء أكثر. . . ويقول الدكتور قيس الوتار. . . نعم، على الشموع أجريت كثيرا من العمليات الجراحية الدقيقة والمستعجلة، فليس الشموع وحدها هي التي كانت تضيء لي درب العمل، بل الإيمان بحق هذا الإنسان المريض في أن يحيا، والإصرار على انتزاع حقه من قاهريه ومستلبي إنسانيته.

وللأطفال قضيتهم في رفض العدوان، لقد تعبوا من الخوف والفزع وأصوات المتفجرات، فراحوا يتحدون. قالت زميلتي في الكلية: هددني علي ذو السنوات الأربع بالانتحار، لو عادت الطائرات الأمريكية لضرب الموصل (الموصل ساحة حرب متواصلة منذ عام ١٩٩١ وحتى هذه اللحظة). قالت الأم: إنه يصاب بذعر شديد وزيادة في دقات القلب حال سماعه صافرة الإنذار.

في الأسبوع التالي، كان صراخ الجيران يتعالى، فقد شهدوا طفلا يقذف نفسه من الشرفة مع هدير سرب الطائرات في سماء الموصل، كانت الأم منشغلة بالخبز، وكان هدير نار الغاز في التنور الحديدي قد حجب عنها صوت صافرة الإنذار وصوت الطائرات، أيضا. من يصدق أن سنوات الحصار اضطرت المرأة العراقية أستاذة جامعية وطبيبة ومهندسة ومديرة عامة، إلى معاودة أعمال جدتها: العجين والخبز وتجفيف الخضراوات وإعداد العصير والحلوى الضرورية للأطفال، فضلا عن فك الملابس القديمة وإعادة خياطتها للصغار والكبار من جديد، لكن، هل نجا النبات منهم؟!!

منذ عام ١٩٩٣ وحتى الآن، لجأت الطائرات الأمريكية إلى قذف الكتل النارية على حقول القمح والشعير في مواسم الحصاد، ويمتد الحريق إلى أماكن شاسعة، وأحيانا، يأتي اللهيب على المزارع جميعا، ليذرها جرداء قاحلة، وكان الكثير من الفلاحين يقذفون أنفسهم وسط النيران محاولين إطفاءها، وكانت المستشفيات تستقبل الأجسام المحترقة بالنار والغضب، ولكن، مَنْ يستطيع إطفاء نار تشتعل وسط آلاف الفدادين من الوقود؟

ونال بساتين الزيتون في منطقة بعشيقة والفاضلية ما نال حقول القمح، فبين أحضان الجبال الباذخة شمال شرق الموصل، يزرع الزيتون بكثافة تغذي العراق كله، ومنذ سنتين شح الزيتون في الأسواق، فالطائرات الأمريكية قذفت على البساتين مادة دخانية سامة، وذلك هو الزيتون مشتعلا على الأغصان!! يومها كتبت قصيدة طويلة دامية من مقاطعها:

قلت له:

حجرٌ منهزمٌ

رملٌ بور

قلبي والزمن المهجور

منكفئ قلبي

مذبوحٌ

ينزف في أروقة الزور
في قطر المطر الداكن
في كفّ غزالٍ مثقوب القلب
يطلع نحو العرش
يدعو أن يغسل قرص الشمسْ
هذي الأدرانْ. . .

طيلة تلك السنوات كنا نعاني من انقطاع التيار الكهربائي. . . ست ساعات في اليوم أول الأمر، ثم تسعا، ثم اثنتي عشرة ساعة، ثم اثنتين وعشرين ساعة في اليوم، وأحيانا، لا نرى النور إلا ساعة بين يومين أو ثلاثة.

كل البحوث التي كتبت، كل رسائل الماجستير، كل أطاريح الدكتوراه، كل بحوث التخرج، كتبها الطلبة على ضوء الشموع المتذبذبة المؤذية للعيون، وقرأها الأساتذة على ضوء الشموع، أيضا.

كل الكتب التي ألفت وكل المجاميع الشعرية كتبت على أضواء شاحبة لا تكاد الأسطر فيها تبين، وعلى الرغم من ذلك، فقد كتبت رسائل وأطاريح ممتازة، كما كتب الأساتذة المجاهدون بحوثا أصيلة ومبتكرة، وحصلوا على براءات اختراع، ولم ينقطع الشعراء عن كتابة الشعر، ولا الأدباء عن كتابة القصة والرواية، ولا النقاد عن متابعة الإبداع.

مدينة الموصل التي تخاصر دجلة بدلال الرائعة بتلولها وهضابها وتموّج طبيعتها وجمال عمرانها، تتحول في الليل إلى كتلة سوداء، فقد انتهت كفاءة المولدات الكهربائية، ونفدت قطع الغيار الاحتياطية، وفشلت المفاوضات في إقناع الأمم المتحدة بشراء مولدات جديدة، وبقينا نعاني بشدة جراء هذه المعضلة، فمعظم البيوت العراقية بيوت متحضرة تعمل كل أجهزتها على الكهرباء، حمامات وأفران وتدفئة وتبريد وأجهزة مطبخ. . . كل ذلك تعطل، وإهدار الساعات الطويلة ليلا بلا قراءة ولا كتابة إلا ما كان ضروريا، وحر الصيف العراقي المريع وشتاؤه القاسي. . . خمسون درجة صيفا وتحت الصفر شتاء ولا تكييف ولا نوم، وما نجم عن ذلك من أذى في صحة الكبار والصغار، ولكثرة ما هجا الناس الظلام والليل، فقد كتبت له عدة قصائد:

هذا دأبكَ
ما خاتلتَ
ولا كذّبت الرؤيا
منذ اختار الله الكونْ
بيتًا للأشياء
ومنذ غزاكَ الإنسانُ
وجرّح منكَ جذوع النخلْ
ما أوهنك الصبرُ
ولا أوهتك الحكمةُ
كان الجرحُ يغور بصدركَ
كان التفاح الأصفرُ
يهوي رملا حولكَ
لكنْ ما قلت:
جرى الماء على ظبي مذبوحْ
يا شيخ الكونِ:
أهذي حكمة هذا العصرْ
أمْ أن الحكمة مربكةٌ في جلبابكَ

حوّلها الأبناء . . .
كرةً تتقاذفها الريحْ . . .

بلاغة درس الحرب والحصار

هناء مال الله

الحرب – الحصار، جعلا النقائض تفحص تجريبيا وبوضوح، فإضافة إلى أصوات ورائحة الموت، كان للقصف إضاءته الشديدة لمنطقة كان يغطيها سلام هش❖، وشكلت أضواء القنابل كشفا لما هو كامن، للبعض، وتعمية للبعض الآخر.

ومن أولى النقائض لدرس الحرب – الحصار – القصف، تشكُّل نقاط وعي حاد مقابل نقاط الإحباط والهزيمة التقنية (التكنولوجية). فما بين ظلام بغداد المطبق المخفق بضوء القنابل وحرارتها، تكمن كل النقائض، فالقنابل التي أسست خارطة خرائبية للمدينة، أسست خارطة وعي ومساءلة في نفوس شهود التجربة (سكانها).

ومع قيمة الموت المعاشة يوميا، وخصوصا في الظلام، نجد رغبة عنيفة بمجانبة الحياة، فليل القنابل لم يمنع نهار الأسواق والتسوق، وهو يؤشر لاستمرار الحياة في المدينة. منهجي اليومي كان مشابها لذلك، الليل استسلام لرعب صوت الموت والظلام❖❖، وعلى ضوء النهار أرسم وأقرأ وأتأمل كتب الرسم، وما أنجزته سابقا من لوحات. فهل هذه قيمة تحسب للرافديني، بحتمية جذره الحضاري العريق (أول حضارة، وأول شعب اكتشف الكتابة)❖❖❖، وبحكم لاوعيه الفئوي المتراكم التجارب، بحيث يمكنه أن يمجد الحياة والحضارة، حتى وهو على حافة هاوية الموت والدمار؟

بعد توقف القصف، حيث المدينة بدأت تعي خرابها، تملكتني رغبة عارمة في أن أشتري زوج حمام: أنثى وذكر، من سوق الغزل في بغداد، لكي أضعهما إلى جانبي في المرسم، كنت أريد التأكد من أن الحياة لاتزال ممكنة. وما يثير التساؤل لماذا احتجتُ إلى الحيوان (الطيور) ليبلغني بهذا؟

ومثلما كرست الظلمة بلاغة النور (الضوء)، كرس الموت الإجباري بلاغة الحياة. وعلى هذا تنطوي قيمة الدعوة التي وجهها مركز الفنون التشكيلية في العراق/ بغداد في ١/ ٦/ ١٩٩١، إلى عشرة من الرسامين والرسامات (العراقيين والعراقيات)، لإقامة معارض شخصية لهم، وفق جدول زمني متسلسل ومتتال، ممن اعتاد النقاد تسميتهم بجيل الثمانينات – مع تحفظنا على كلمة جيل – الذين تداخلت مراحل تكوينهم مع نشوب حربين في العراق. وكاتبة هذه السطور كانت واحدة منهم، حيث عرضت في التسلسل الثاني من قائمة الأسماء المختارة، وكان عنوان المعرض (وثائق زيارة المتحف، في ١/ ٩/ ١٩٩١)، وهو خاص بالمتحف العراقي وبما يحتويه من مناخ ولقى. في هذا التاريخ، كانت المدينة لاتزال تئن من الخراب، والمتحف أغلق خوفا عليه من الدمار والسرقة! فكان المعرض بمثابة سؤال عن قيمة الاتصال الحضاري، وقيمة العزلة عن الآخر (الغرب).

إن عقدة التفوق التقني لدى الآخر (الغرب)، وتحديدا أوروبا وأمريكا، وعقدة النقص التي لدينا (التي هي في جزء كبير منها تكنولوجي)، هذه النقطة أنارتها بوضوح الوحشية التي استخدمت بها القنابل في الحرب. وكان التساؤل عن قيمة التطور التكنولوجي (السلعي)، بموازاة التساؤل عن قيمة التطور الحضاري (الفكري – الفني)، بمثابة وعي للسؤال عن قيمة الذات والهوية، حيث إن صفعة الحرب – الحصار كانت من القوة، بحيث أدارت رأس هذا الجيل باتجاه إرثه الحضاري الحقيقي طلبا للنجدة. هذا أهم درس للنقائض أسست له الحرب.

فعقدة النقص التي أراد لها الآخر (المركز) أن تتجذر باستعراض القوة التقنية، ومدى سيطرتها ودمارها، وضعت موضع تساؤل من قبل القيمة الحضارية، معه بدأنا، كجيل حرب، نستكشف قيمة الهوية الحضارية التي نحتكم إليها فعلا، وبه تشكل وعي بالذات ميّز هذا الجيل، وطبع نتاجه الفني (الرسم، تحديدا).

درس النقائض الآخر: هو قيمة البقاء في الوطن (الداخل)، والوقوف على حقيقة أن الهوية هي شفرة للمكان والزمان، وأن

لهما جغرافيا مسئولة عن صياغة جغرافيا الإبداع، ولابد من هذا المناخ للإبداع الحقيقي (الرسم). هذا الوعي تأسس من المعايشة المرة لهجرة الزملاء والأصدقاء والأحبة، إلى الخارج، ومَنْ لم يسافر كان هاجس السفر يعطله عن الإنجاز، أما كيف تكشفت القيمة الحقيقية للبقاء في الوطن للقلة الباقية إزاء الوفرة المهاجرة، فهذا ملموس من نتاج الباقين من الرسامين المبدعين من هذا الجيل، ومن رسائل أصدقائنا المبدعين❖❖❖❖ (الرسامين) المهاجرين من الجيل نفسه – التي كشفت عن الزيف الفردوسي الخارجي، فنتاجهم أكد أن مناخ المكان مهم للإنجاز الإبداعي، خاصة لأفراد حضارة مثل وادي الرافدين العريقة.

وما كنت أحلم به أيام الرخاء ولا أقول السلام، لأنني لم أعشه إطلاقا – حيث السفر لتطوير تقنياتي في الرسم والاطلاع، زهدت فيه تماما أيام القحط والحرمان والجوع والحرب والحصار، وبه اكتشفت قيمة حقيقية للرسم كموقف ورؤية جعلتني أدرك فعلا لماذا أرسم. وبشحذ أعلى درجات الوعي، يصبح من الممكن أن تنتج عملا فنيا (رسما) حداثيا وعالميا، وأن يكون محليا صرفا.

من الواضح أن حصار الحرب، أو حرب الحصار، أدت إلى اثنتين: إما عزلة نسبية، وإما قطيعة إرغامية مع الآخر المصنف على أنه حضاري ومتطور، حتى على مستوى الفن، وإما إلى الهجرة كخيار آخر.

إذن، هل شكلت العزلة اضطرارا لالتفات جيل الحرب من الفنانين (الرسامين) (وكاتبة هذه السطور محسوبة عليهم)، إلى إرثهم الحضاري الرافديني؟ هل كان رجوعهم إلى تراثهم بدافع الحنين (نوستالجياNostalgi†خ)، من حيث إن الحرب ابتغت تدمير مناخ خصوصيتهم بإرثهم، وأفرزت يقينا مهزوزا بالاكتفاء بالمرجعية الحضارية الغربية؟

الجواب عن هذا السؤال يكمن في إنجازنا الفني (رسوما)، حيث أفصح عن وعي ضاعفته المواقف الحرجة، على الصعيدين الإبداعي والوجودي.

يتوازى هذا الوعي الرؤيوي مع وعي على الصعيد التقني، بالنسبة إلى الرسم، وعليه، فمن اعتاد على الرسم في ظل وفرة من المواد الخام المصنعة في الخارج، مثلي، أفسح الإرغام بحتمية الحصار أمامه السبل لإيجاد بدائل تعوض من شحّ المواد السابقة، وأدى إلى استشراف قيمة المواد الخام الأخرى، وهكذا، حققتُ تبدلا على صعيد الرؤية والتقنية معا!!

لا أعرف! هل كان لابد من عشر سنوات جحيمية، لينتج منها كثافة في الوعي الذاتي والفني (الرسم)، هي ضرورتنا كجيل رسامين لإنجاز فني عراقي أصيل في مستوى الرسم، يفارق ما أنجزه – مثالا لا حصرا – جيل الستينات المتمرن تقنيا وفكريا وفنيا في الغرب (أوروبا وأمريكا)؟

أما درس الحرب البليغ الآخر، فهو تيقن الوعي من نقطة خصبة ومهمة، تظهر البقاء كضرورة حضارية، وتؤسس لي هوية فنية. فإذا كنت أبحث عن خصب في الرؤية والتقنية، فهذا مهيأ لي، بحكم موقعي، في نقطة مضيئة يجتمع في بؤرتها إرثي الحضاري العريق، وانفتاحي على (الآخر) ومواكبته من أجل التطوير والتنويع، (الآخر) الذي يكون دائما مغلقا إزائي، بسبب عقدته التفوقية، وحاضر محلي أعيشه، يظهر لي كمادة خام غير مبحوثة، ويحفل بالأحداث والرموز والمناخات والأساطير، وينتظر وعيا جديدا ومواهب لاستثماره والكشف عنه.

خرجت من الحرب – والحصار، أتمسك بالبقاء أكثر من أي وقت مضى، وأرسم بكثافة، وأعرف ماذا أريد، وما هو الرسم بالنسبة إليّ. والصعوبات جعلتني أصلب وأكثر استعدادا لتحمل ما سيواجهني من مواقف أتخذها، سواء على الصعيد الفني أو الوجودي. وفي هذه النقطة، ومن حيث ها هنا موقعنا، نفارق ما حدث لأوروبا بعد الحربين (الأولى والثانية)، حيث الضياع والحركات العبثية التي كان لابد منها لتوازي التفسخ الحضاري. إذن، معجزة الفنان الرافديني مجابهة الدمار بالحضارة!

الهوامش

$ أوقِع العراق في حربين: الأولى من ١٩٨٠ حتى ١٩٨٨، والثانية من ١٩٩٠، ولاتزال مستمرة إلى وقت كتابة هذه الكلمات.

$ $ في الساعة الثانية والنصف صباحا من ليلة ١٦/ ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ ، وجهت أولى القنابل إلى كهرباء بغداد ، وبقيت المدن العراقية في ظلام تام ٤٥ يوما .

$ $ $ عرفت الحاضرة العراقية (الوركاء) ، وقبل أية منطقة في العالم ، أصول التدوين في حدود (٣٥٠٠ ق . م .) .

$ $ $ $ من الرسامين المبدعين المسافرين مثالا لا حصرا ، (عمار سلمان) إلى السويد ، و(علي المندلاوي) إلى لندن ، و(إيمان عبد الله) إلى ألمانيا .

في النهاية لن يصح إلا الصحيح !

ميسلون هادي

قبل أيام ، في عمان ، وفي أثناء حديث جرى بيننا ، بالصدفة ، قالت لي امرأة أردنية تعمل بالتدريس إن قريبا لها من (الشوفيرية) الذين يعملون على خط بغداد – عمان ، أخبرها أن المرأة العراقية أصبحت تعمل كالرجال في مجالات كانت وقفا على الرجال ، كالتجارة والنقل والبقالة ووكالات المواد الغذائية ، وما إلى ذلك ، ثم سألتني : هل هذا صحيح ؟

سؤالها جعلني أصمت قليلا ، ثم أجبتها بنعم ، ولذت بالصمت من جديد ، فقد جعلني سؤالها أفكر مليّا بما كانت تعمله المرأة العراقية في السابق ، وما أصبحت تعمله في فترة الحصار ، وهل هناك ، فعلا ، من جديد طرأ عليها ، جعل تلك السيدة الأردنية تسألني هذا السؤال؟ وقفزت إلى ذهني صورة من أيام الثمانينات ، تتعلق بكاتبة عربية جاءت لتعمل محررة في مجلة «الأقلام» العراقية المعروفة ، فقد راحت تبحث فور وصولها إلى بغداد عن «شغالة» تعينها في أمور البيت ، باعتبار أنها امرأة عاملة ستقضي

ردحا طويلا من يومها خارج المنزل، إضافة إلى كونها كاتبة تحتاج وقتا أكبر داخل البيت للاختلاء إلى الكتابة أو القراءة أو التأمل. وعندما أعياها البحث عن الخادمة ولم تستطِع العثور على واحدة، سألتنا، في نهاية المطاف:

– ألا يوجد عندكن شغالات؟

أجبناها:

– كلا!

قالت:

– كيف تتدبرن أموركن، إذن؟

ذلك السؤال الذي أثارته تلك الزميلة وجدنا صعوبة في الإجابة عنه، ليس لأننا لم نفكر فيه، أو لم نتمنَّ وجود من يساعدنا في البيت، ولكن – ببساطة – لأننا وجدناه سؤالا بطرانا، فمهنة (الخدمة في البيوت) هي مهنة غير مألوفة، إن لم أقُل نادرة – في العراق. ربما تململت قليلا الآن، بسبب ظروف الحصار والحاجة الملحة إلى المال. ولكني أعتقد أنها، قياسا إلى ازدهارها في بلدان عربية أخرى، تعتبر في العراق مهنة منقرضة.

إضافة إلى ذلك، فقد كان السؤال يوحي بوجود مشكلة، هي مشكلة تدبيرنا لأمور البيت وشؤونه. والسؤال الذي كان يفرض نفسه في ذلك المقام هو: هل توجد مشكلة، فعلا، في توفيق المرأة العاملة بين عملها خارج المنزل وقيامها بأعمال البيت، وتحملها لأعبائه الكثيرة. قَدْر تعلق الأمر بي وبمن أعرفهن من نساء عاملات في مجالات عدة، كالطب أو الهندسة أو الأدب، أستطيع أن أقول إن الاعتماد على النفس هو دَيْدَن المرأة العراقية لدى قيامها بأعمال المنزل، وإنها لا تفضل الاستعانة بعمل غير عمل يديها إلا عند الضرورة القصوى، لذلك، فإنها عندما تختار الاستمرار في عملها الوظيفي خارج المنزل بعد الزواج، يجب أن ترتب أمورها بحيث تحارب وحدها على الجبهتين، وتتحمل المسئولية المترتبة على ذلك بمفردها. ربما تقدم أمها، أحيانا، بعض المساعدة، أو تساعدها بعض حضانات الأطفال في رعاية أطفالها في أثناء ساعات الدوام، ولكن الأعباء الفعلية والأشغال الشاقة تقع على عاتقها هي. وها أنا (مادامت هذه شهادتي) لم أستعِن، على مدى عشرين سنة من عمر زواجي، بخادمة أو مربية أو أي شكل من أشكال الخدمات المنزلية، علما بأني قد أصدرت خلال هذه السنوات سبعة كتب للكبار وعشرة كتب للأطفال، إضافة إلى مئات المقالات المكتوبة والمترجمة، بحكم عملي كصحفية في القسم الثقافي لمجلة أسبوعية. وأذكر أنه عندما كان أولادي أطفالا وكان أبوهم مسافرا، كنت آخذهم بنفسي إلى حلّاق الرجال، وألتزم بمواعيد ذهابهم وخروجهم من الروضة، وأطبخ الطعام قبل يوم، وعندما أعود من العمل أدخل المطبخ مباشرة (من الباب إلى الطباخ)، لأعد لهم الغداء، وفي المساء أطبخ طعام اليوم التالي، وأعد العشاء، وأقضي أشغال البيت الأخرى. وما أزال إلى يومنا هذا على هذا المنوال. هناك، طبعا، أيام العطل الدامية التي تزدحم بأعمال التنظيف الكبرى وغسل الملابس وكيّها. وهناك، أيضا، أيام الطوارئ في الامتحانات، وهناك أيام الحملات الموسمية لتجميد الخضراوات وحفظها في المجمدات، وهناك أيام للنارنج، وأيام للتمر، وأيام للزيتون، وأيام للطماطة، وأيام للمعجنات، وأيام للمخللات، وهناك وهناك وهناك. . .

هكذا، كانت المرأة العراقية قبل الحصار، وفي الأيام الاعتيادية التي كان فيها الدينار العراقي قويا ويمكنه شراء الكثير من مستلزمات الطعام، أو تسهيلات أخرى كالكّي، مثلا. مع ذلك، أزعم أن هذا ديدن القلة من العراقيات، وأن الأكثرية كانت تنجز كل أعمال البيت التقليدية بنفسها، مضافا إليها أعمال أخرى، كالخياطة أو الحياكة أو صنع الحلويات، لمن تمتلك المهارات الخاصة بذلك.

وهنا أحب أن أسرد شيئا مهمّا وطريفا من تجربتي، ككاتبة متزوجة ومسئولة عن أولاد وبيت وزوج وعمل صحفي يتطلب الكثير من التفرغ الفكري الذي يمهد للأفكار، ويرتبها، قبل استعمال اليدين لتدوينها على الورق. ذلك إني كنت، وما أزال،

أستغل الوقت الذي تقوم فيه يداي بعمل آلي لا يتطلب تركيزا معينا، أستغل هذا الوقت في التأمل، ثم أقوم بكتابة الأفكار بعد الانتهاء من العمل اليدوي الذي كنت منشغلة به. وكان الله في عون يدي الكاتبة والمسئولة عن بيت في الوقت ذاته، فهي تبذل جهدا مضاعفا بمقدار خمس مرات تقريبا قياسا بما تبذله يدا الكاتب الرجل. وهكذا، أصبحت لا أضيق أو أحمل الهمّ إزاء أعمال البيت المرهقة، كغسل الملابس أو كيّها، أو تنظيف البيت، أو إعداد الطعام، لأن الأفكار كانت تجري جريان الماء في رأسي، فأنشغل بها وأحلّق بعيدا عن ما تقوم به يداي، تلك اللحظة، من أعمال مضنية. فإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن إعداد طبق السبانخ مع الرز يستغرق ثلاث ساعات تقريبا (غسل + فرم + إعداد الملحقات + طبخ + متابعة)، لعرفنا كم هو طويل الوقت الذي تهدره المرأة في مثل تلك الأعمال اليومية، وطبيعي أن تستنفدها يوما بعد يوم وتستهلكها، إلى أن تلتهم طاقتها وتنهكها تماما. لذلك، كيّفت نفسي أن أسيطر على أعمال البيت، بدلا من أن أدعها تسيطر علي، وتعلمت أن أكتب في أي ظرف، وإنْ كانت العزلة غير متوفرة، أو كان المكان غير ملائم. ولطالما كنت أحدّث المكنسة وأنا أكنس البيت كل يوم، وأقول لها:

– لن تغلبينني!

وأصبحت مبرمجة لكي أنحني على الأرض، وأكنس، وأفكاري محلّقة في مكان آخر. وزوجي كان يشفق عليّ من هذه المفارقة، ويقدم إليّ المساعدة قدر استطاعته، ولكن أي رجل، أيّا كانت درجة موضوعيته، لا يستطيع أن يشعر بالمعارك التي تخوضها المرأة، سواء فسيولوجيا، من دورة شهرية وحمل وولادة وإرضاع... إلخ، أو اجتماعيا من عينة ما أتينا على ذكره قبل قليل.

إذن، وبعد ذلك كله، ما الذي أضافته ظروف الحصار إلى المرأة العراقية من مسئوليات أخرى لم تعتَد عليها في الظروف الاعتيادية. بالنسبة إلى تفاصيل الحياة اليومية، هناك ابتكار البدائل الأقل كلفة داخل البيت بدلا من شرائها بكلفة عالية من السوق، فارتفاع الأسعار بشكل فاحش حتّم على المرأة أن تحوّر الكثير من ملابسها لاستعمالات أخرى لها ولأطفالها، وعلّمها أن تتأنى كثيرا جدا قبل أن تنفي أي شيء فائض عن حاجتها، وأن تنظر إليه مليّا علّه يصلح لمهمة أخرى ثانوية، بما في ذلك الأوراق والدفاتر المدرسية والأقلام والقناني الفارغة والأواني المستهلكة أو أي شيء... كما أصبح الوقت الذي تقضيه في المطبخ أطول، لأنها باتت تتفنن في إعداد أطباق الطعام التي تتلاءم مع ظروف الحصار، فكيّفت مفردات الحصة التموينية مع نوع الأطباق التي تعدها، فإذا كان طحين الحصة أبيض، سارعت إلى إعداد المعجنات وأنواع البيتزا التي تستغني عن اللحم بالبطاطا والخضراوات، وإذا كانت الجبنة موجودة ضمن مفردات الحصة، صنعت منها الفطائر المحشوة، وإذا زادت الفاصولياء اليابسة على الحاجة، حولتها إلى سلطات، إضافة إلى إعداد بعض المستلزمات التي كانت في ما مضى تشتريها من السوق، كالمربى والدبس ومعجون الطماطة، توفيرا للمال.

ومن جهة أخرى، فإن حالة الكفاف التي فرضتها السنوات العجاف جعلت الكثير من العوائل العراقية تعيش يوما بيوم، وبمعاناة شديدة، أحيانا، سببها عدم التعوّد على المستوى المعيشي الجديد. كل شيء بحساب عسير. والمظهر الجيد لا يتحقق إلا بصعوبة بالغة، فمن لديه سيارة باعها، أو يعاني الأمرين لصيانتها، ومن كان معتادا على اقتناء الأشياء الجميلة تخلى عن عاداته، وأصبح مشغولا بتوفير قوته وقوت أولاده وكفى. وهنا أحب أن أتوقف عند أصحاب المستوى الثقافي العالي، من أصحاب الذوق الرفيع، وممن كانت دخولهم في السابق توفر لهم المسكن اللائق والملبس اللائق والمأكل اللائق. كيف نتخيل أحدهم وأمامه جدار متضرر أو كالح اللون ولا يستطيع طلاءه، أو ستائر أكل عليها الزمن وشرب ولا يستطيع تغييرها، أو أريكة مهترئة وقديمة ولا يستطيع استبدال واحدة جديدة بها، أو سجادة حائلة الألوان يجد نفسه مضطرا إلى النظر إليها كل يوم، ولمدة عشر سنوات؟ أعتقد أن هذه الأشياء بالنسبة إلى هذه الفئة المثقفة ليست كماليات! إنها أهم من الأكل والشرب لديهم. وهنا تبدأ معاناة نفسية شديدة، عندما لا تستطيع توفير المستوى الذي كنت معتادا عليه في السابق، وكما قلت، فإن كل هذه التفاصيل هي يومية صغيرة قياسا إلى محن أكبر طرأت على المجتمع، كظاهرة العنوسة، مثلا، التي تسبب فيها غلاء المعيشة وارتفاع تكاليف الزواج، من أثاث إلى سكن إلى نفقات البيت. كما أملى الحصار حالة مزعجة من الانتظار، وأصبحت الكثير من المشاريع مؤجلة لحين رفع الحصار – فمن أراد

شراء بيت يجب أن يؤجل ذلك إلى أن يرفع الحصار، وتعود الأسعار إلى تهاودها، والعملة العراقية إلى قوتها. ومن أراد شراء سيارة سيؤجل فكرته التي لن تتحقق إلا بشق الأنفس إلى ما بعد رفع الحصار. ومن أراد شراء دراجة لابنه الصغير ووعده بذلك في أثناء الحصار، لابد أنه قد صرف النظر عن الفكرة نهائيا، لأن ابنه قد شبّ وغادر طفولته في أثناء الحصار. إذن، أصبحت بعض متطلبات الحياة الضرورية مؤجلة منذ عشر سنوات، بانتظار رفع الحصار. وربما الحياة نفسها مؤجلة لحين حدوث ذلك! هناك، أيضا، معاناة من نوع آخر... التعب الذي أصاب مرافق الحياة المختلفة، كوسائط النقل وخدمات الكهرباء والهاتف والنظافة، وحاجات المدارس من القرطاسية والكتب والمقاعد، وحاجات المستشفيات من الأدوية وقطع الغيار وعدد العمليات الجراحية المختلفة... كل ذلك يحدث. وعندما يأتي إلى العراق ضيف من الخارج ليزور بغداد أول مرة في أثناء الحصار، سيسأل: ترى أين هو الحصار؟ لأنه لن يشعر به عندما يرى الناس منصرفين إلى أعمالهم، والسيارات تمشي في الشوارع، ومحلات البقالة مليئة بالفواكه العراقية والخضراوات العراقية، والطلاب ذاهبين إلى المدارس، برغم أن مدرسيهم لن يتقاضوا في نهاية الشهر إلا بضعة آلاف من الدنانير كانت تكفي عام ٩٠ لشراء سيارة، والآن قيمتها الشرائية تعادل سعر كيلو لحم من الغنم العراقي الشهير بمذاقه الطيب. إذن، لم يتحمل طرف واحد دون غيره العبء الكبير، وقاوم الجميع الحصار بالعمل الشاق: الرجل، والمرأة، والأرض!

وأعود لأتحدث عن تجربتي كامرأة عراقية تحت ظروف الحصار، فأقول إن الكتابة كانت ملاذي الوحيد، وقد ساعدتني، ويا للغرابة، في أحيان كثيرة، للمساهمة في تغطية نفقات البيت، لأن فرق العملة أصبح يعطي للمكافأة التي تأتينا من خارج العراق قيمة استثنائية وتبعث على الفرح. وخلال سنوات الحصار، كتبت أعمالي الروائية الثلاثة التي تدور في فلك هذه التجربة الكبيرة التي اكتوينا بها جميعا. وطبيعي أنني لم أتضرر بحكم سني وخبرتي في الحياة من هذه المعاناة الطويلة بل ربما أعتبرها قد أضافت لي كثيرا... ولكني، دائما، أفكر... أي أثر تركته على أولادي، بحكم أعمارهم الغضة عند بدء الحصار، وهل سيحققون المستقبل الجيد الذي أتمناه لهم، بعد أن أصبحوا يرون الكثير من حملة الشهادات وهم يتحولون إلى سائقي سيارات، أو يعملون في البيع والشراء؟ لايزال هذا الوضع غريبا علينا – نحن العراقيين – ولا يمكن أن نقبل لأبنائنا أن يقبلوه، ولاتزال العائلة العراقية عندما يتقدم أحد لخطبة بنت من بناتها تسأله: شمخلص؟ (ما الذي أنهيته من تخصص دراسي؟)، قبل أن تسأله: كم معك؟

لذلك، أعتقد أن هذه الأعراض الطارئة ستزول سريعا جدا بعد زوال المسببات، وقد جعلتني ظروف الحصار أفهم ما معنى أن يكون العراقيون أصحاب حضارة وأهل علم وأرباب ذوق رفيع وأبناء مدن عريقة... معناه هو إحساسهم المستمر بأن كل هذه الظروف خاطئة وطارئة وآيلة إلى الزوال، وأنه، في النهاية، لن يصح إلا الصحيح.

أيام تمضي . . . أيام تجيء . . .

سهيلة داود سلمان

ثلاث ساعات بين انقطاع التيار الكهربائي وعودته، ثم انقطاعه وعودته ثانية وثالثة، يتبدد الوقت. ثلاث ساعات تكفي لأنتهي من الكتابة. أقول لنفسي هذا وأنكب على الورق. لقد أمسكت بالخيط فلأسرع. . . تنهال الكلمات والعبارات والجمل. . . ألاحقها وتلاحقني كأننا نتماسك بالأيادي في عراك لا غالب فيه ولا مغلوب. ويمضي الوقت. . . ينقطع التيار الكهربائي أسقط في العتمة. . . أتوقف ويسقط القلم. يا حظي العاثر! لماذا لا تكون الكتابة في متناولي في أثناء النهار؟! لماذا في الليل فقط؟؟! وبعد قليل ينفلت الخيط مني وأنسى كل شيء إلا هذا الحر المهلك وهذه الظلمة. . . أهرع نحو المصابيح النفطية، أتلمس طريقي نحوها، أتعثر بشيء صلب وأتألم. مصباح البطارية في جيبي دائما، أضعه للطوارئ وكذلك علبة الكبريت، أين وضعتهما؟ أجدهما فوق طاولة الطعام، بعد أن أتلمسها طولا وعرضا، فالظلمة حالكة. أنير أول مصباح، فتنتشر رائحة النفط المحروق وتملأ المكان. . . نسيت أن أملأها وسينفد النفط سريعا. ينقبض صدري، بصعوبة أتنفس. أستلقي على أحد المقاعد، وأردد مع نفسي: إلى متى؟ إلى متى؟ الكآبة تعاودني. شهور الصيف هذه تصل إلى ستة، الشتاء أرحم بكثير. . . كل شيء يكون محتملا، ماذا كان أجدادنا يفعلون وكيف كانوا يتصرفون إذ لم تكن الكهرباء قد وصلت إليهم بعد؟؟ وأجيب نفسي: كل شيء بالعادة، وقد نعتاد هذا الأمر بعد عقد آخر من الزمان، ربما! الآن وقد مر عقد كامل. . . أحاول على ضوء المصباح النفطي مراجعة ما كتبت. يتراقص اللهيب ويحدث إرباكا فوق الكلمات يتعب عيني. معاودة الكتابة شيء مستحيل، فهي تحتاج إلى التواصل، إنها لا تشبه أي عمل آخر، استلقاء ذاتي فيه ألم وفيه لذة، في الوقت نفسه. وبالنسبة إليّ هي مزاج، أيضا، وقد انقطع المزاج وانفلت الخيط. . . صوت فيه تذمر يدعوني: «لنخرج إلى الحديقة نشم الهواء».

يلفح وجهي هواء الحديقة. . . سخونة تهجم عليّ كأن أفرانا هائلة مفتوحة أفواهها من كل صوب. . . أتخذ مكاني على أحد الكراسي وأحاول الاسترخاء. . . البعوض يلسع أطرافي دون رحمة. أهبّ وأنا أردد: «كالمستجير من الرمضاء بالنار».

– «هل نذهب إلى بيت أحد الأصدقاء؟».

– «هكذا دون موعد نقتحم عليهم راحتهم؟ وماذا لو انقطع التيار الكهربائي عندهم، أيضا؟!».

في سنوات الثمانينات، حيث الحرب مستعرة بيننا وبين الأقربين من جيراننا، كانت الكهرباء تنقطع مرارا، ولكن ليس بهذه الدرجة (المأساوية). كان التيار يتوقف لفترات، نتيجة سقوط صاروخ، كما كانت خطوط الهاتف تنقطع، أيضا، أو تتوقف. لم نصدق أن تلك الحرب انتهت، ومع انتهائها آملنا في أن معاناة الشعب سنعوضها بأيام من الفرح قادمة لا محالة، برغم الآلام والجروح التي خلفتها الحرب. . . لذلك، ما إن سمع الناس بيان انتهاء الحرب، حتى خرجوا إلى الشوارع والساحات، وكانت احتفالاتهم عفوية دامت أياما، حتى أولئك الذين خسروا أعزاءهم ابتهجوا على طريقتهم، فابتهاجهم كان ممزوجا بالحزن والأسى. . . لقد توقف نزيف الأبناء في الأقل. . .

في الأيام الأولى للحرب. . . في السنوات الأولى، كانت المعارك تدور على الحدود فحسب، ولم نكن نحس بوجودها داخل المدن إلا من خلال أجهزة الإعلام وتحديدا التلفزيون، إذا ما استثنينا ما نراه ونلمسه كل يوم ونسمعه، فمجالس العزاء لا يخلو حيّ منها. . . نساء وفتيات شابات في ملابس الحداد تمتلئ بهن الشوارع والمؤسسات والأسواق على نحو يلفت النظر. وفي منتصف الليالي طالما نستيقظ على أصوات صليات رشاش أو طلقات بندقية أو مسدس، تعقبها صرخات وحشية تخرج من أفواه نسائية، فنعرف أن شهيدا سُلّم إلى أسرته. . . تلك كانت سنوات صعبة. . . على المستوى الشخصي، لم يستشهد أحد من أفراد عائلتي الأقربين، ليس لأن عينا سحرية كانت تحرسهم بل، بكل بساطة، كانت عائلتنا تخلو من الذكور الذين هم في سن التطوع أو التجنيد، لكن قلوبنا وقلوب كل المواطنين كانت لصيقة بأولئك الشباب الذين كانوا وقودا، فالكل أولاد للكل دون أية مبالغة.

في تلك الأيام، كان التلفزيون الشيء الوحيد والشغل الشاغل للأسر العراقية القابعة في بيوتها، من خلاله نعرف ما يجري: نستمع إلى البيانات الحربية، ونشاهد صورا من المعارك الجارية على الجبهات، والفظائع التي تحدث لأبنائنا، ونرى وجوه جنودنا السمراء الأليفة معفرة بالتراب والبارود، ونحزن ونفرح ونبكي في الوقت ذاته، وفيه، أيضا، ننتظر من التلفزيون أن يمتّعنا نهاية السهرة، فيعرض المسلسل العربي اليومي وفيلم السهرة الذي به يختتم البث. هاتان المادتان اللتان ينتظرهما الناس ويتحدثون عنهما في اجتماعاتهم، كما يتحدثون عن ما شاهدوه وسمعوه من أخبار الحرب، كثيرا ما يحجبان لتحل محلهما ندوة فكرية أو ما شابه كانت عقدت صباح ذلك اليوم، وتكون هي، أيضا، تدور حول الحرب والسياسة.

في تلك الفترة، وانعكاسا لهذه الحالة التي تعيشها الأسر العراقية، كتبت قصة بعنوان «المساء» نسجت خيوطها منها... من هذه المادة. الشخصية الرئيسية – الراوية – فتاة من عائلة متوسطة موظفة تعيش دوامة روتين الوظيفة، وحين تعود من الوظيفة إلى البيت تعيش روتين الجلوس مع العائلة المكونة من الأم والأخ العسكري وزوجته وطفلهما، ثم الابنة الصغرى الأكثر فاعلية في البيت، حيث يجتمعون حول التلفزيون وينشدّون إليه. حتى عشاؤهم يتناولونه أمام التلفزيون، لئلا يفوتهم شيء منه. هذه الفتاة تشاهد التلفزيون... تمر عليها الصور، ترى وتسمع وتحلم... ومن خلال ما تشاهده، تعود بنا في تداعيات إلى حياتها وما مرّ بها من أحداث: طفولتها في الريف، حبها الضائع والفاشل، روتين حياتها الوظيفية والبيتية المملة... إلخ.

كانت مجلة الأقلام (العراقية) تتهيأ لتنظيم ملف عن القصة العراقية، فقدمت هذه القصة ونشرت. تحدث عنها الزملاء معي، وقال لي بعضهم إنها تصلح أن تكون رواية إذا ما اكتملت أحداثها. وفعلا قُدّر لهذه القصة أن تكون الفصل الأول من رواية نُشرت في عمّان بعنوان «القهر»، لكنها، للأسف! نشرت ضمن مجموعة قصص فلم يلتفت إليها كما يجب.

بعد أن كانت الحرب بعيدة عنا في الجبهات وعلى الحدود، طالت المدن أخيرا... فقد أصبحت حرب المدن هي حرب الصواريخ التي باتت بغداد وكذلك البصرة أكثر من أية مدينة أخرى عرضة إليها، تطلق ليلا بمعدل صاروخ أو صاروخين كل يوم. وإذا ما عرفنا أن هذه الصواريخ لا تصيب أهدافا معينة تنقيها بل تطلق عشوائيا لتسقط عشوائيا، أيضا، عندئذ يمكن إدراك الرعب الذي كان يعيشه المواطنون كل ليلة. لم يكن الموت يخيفني، حين أفكر بصاروخ يضرب بيتي، بل الطريقة التي سأموت بها. وأكثر ما يخيفني أن يكون موتي بطيئا، كأن أردم، مثلا، تحت الأنقاض فترة طويلة، قبل أن أهلك، أو أن أنقذ بعد أن تبتر ساقي أو يدي، أو... أو... لهذا كله، كنت أبقى متيقظة كل ليلة في انتظار أن يسقط الصاروخ المرتقب، وعندما يطل الفجر، عندئذ أستطيع النوم... حتى الحمّام كنت أخاف الدخول إليه، لئلا يفاجئني صاروخ من هذه الصواريخ التي كنا نسمع عن ما تحدثه الكثير من القصص. كان الصاروخ بالنسبة إليّ أشبه بلعبة «الروليت» يتحكم فيها الحظ والنصيب...

حين يسقط صاروخ ليلا تصطفق الأبواب، وأحيانا، تنقلع وتهتز الشبابيك ويتهشم زجاجها ويتطاير، وقد تنقذف بعض الأثاث بعيدا عن أماكنها، إذا ما كانت الضربة قريبة منا.

بعد أن يطلق صاروخ من وراء الحدود، وبعد سقوطه مباشرة، تنطلق صافرات الإنذار بنعيبها الذي تقشعر له الأبدان، ولا أدري لِمَ كانت تطلق مادام كل شيء قد انتهى! بعدها مباشرة يحل سكون وسط الليل، سكون مرعب مترقب لا يسمع فيه غير عواء كلاب قريبة وبعيدة، تليها صرخات سيارات النجدة والإسعاف التي من خلالها نستطيع أن نستدل على الجهة التي سقط فيها الصاروخ. بعد كل هذا نتحرك نحو أجهزة الهاتف، نهتف ويهتف لنا... ترن الهواتف في البيوت كلّها، كل يطمئن على أقربائه وأصدقائه – هذا إذا لم تكن الخطوط قد انقطعت أو توقفت إلى حين، جرّاء الضربة... وينتهي ليلنا كل ليلة على هذا النحو، ليبدأ يوم جديد، ولا جديد فيه غير أخبار الصواريخ وضحاياها.

وأكتب فصلا آخر أجعل فيه أحد هذه الصواريخ يسقط على حيّ يسكن فيه العم الذي ذهبت الابنة الصغرى المحبوبة لتبيت عنده، فتذهب هي مع العم وعائلته ضحية لهذا الصاروخ.

إضافة إلى هذه الرواية كتبت قصصا عن الحرب الدائرة، لكنها ليست عن الحرب تحديدا، فأنا لم أخُض حربا مع المحاربين، بل

عن الناس وكيفية العيش في ظل الحرب . . . عن الظواهر التي أصبحت مألوفة في المجتمع ، ضمنتها مجموعة صدرت عن دار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة ، بعنوان «اللقاء» ، نشرت ضمن (سلسلة في الثقافة والحرب) .

هكذا ، كانت أيام الثمانينات تمضي ومعها السنون – ثماني سنوات . وهكذا أعلن عن انتهاء الحرب فجأة ، دون مقدمات ، وسط أفراح الناس وابتهاجهم . وبانتهائها ، انفتحت أبواب السفر والاتصالات الهاتفية الدولية المباشرة ، مما أتاح لنا التواصل مع الأبناء والأقرباء . انتهت الحرب ، لكن أحاديثها وأحداثها ومتعلقاتها بقيت عالقة في النفوس ، لم تنته بعد ، حتى دخلنا حربا أخرى . . . شرسة ، لم يحدث مثلها لبلد في العالم . . . حربا لم تستهدف تحطيم البنى التحتية لبلادنا وتهديمها فحسب ، إنما الإنسان العراقي نفسه هو الذي استهدف !

ذات صباح من شهر آب (أغسطس) من العام ١٩٩٠ ، وكنت في إجازة أتهيأ فيها للسفر لزيارة ابنتي التي لم أرَها منذ مدة طويلة ، رنّ جرس الهاتف ، وكانت إحدى زميلاتي ، بادرتني من الفور :

– أسمعتِ ؟ !

أجبتها : سمعتُ ماذا ؟ !

قالت : افتحي التلفزيون هناك بث صباحي استثنائي .

كان المذيع يتحدث بانفعال ، يتلو بيانا لم أستوعب منه غير فقرته الأخيرة التي تعلن : «يمنع سفر العراقيين كافة حتى إشعار آخر» .

لم أصدم ، ولم أفاجأ . . . ولا حزنت ، بل إن موجة من السكينة داهمتني وملأتني . . . جلّ همي انصب على الحدث وأسبابه . عبارة واحدة في ما بعد طغت على كل أحاسيسي : «حتى إشعار آخر» ، فمتى سيكون هذا الآخر ؟ ! وما سبب كل هذا ؟ !

هذه العبارة كانت رأس الخيط الذي أمسكت به ، ولم يدعني أرتاح ، حتى قادني إلى الفصل الأخير من الرواية ، حين تقرر الشخصية فيها أن تقتنع بما يعرض عليها وهو السفر إلى لندن والاقتران بقريبها الذي يلح في طلبها ، ولم تكن لتقتنع أن تترك وطنها وأسرتها في محنتهم ، بل كان قرارها نوعا من الاستسلام أو الانتحار ، أو الأمل في حياة جديدة تنشلها من كل ما مرّ بها من (قهر) ، ثم جاء هذا البيان ليضع حدا لقلقها وتساؤلاتها .

وكسابقه ، هذا الفصل كان وحده يشكل قصة بعنوان «حتى إشعار آخر» ، رأيت أن أرسل بها إلى مجلة «الناقد» التي تصدر في لندن ، ولم أكن أعرف أو أعلم أن (الناقد) كانت تعد ملفا للأدب العراقي ، أبدا . صدر العدد في حزيران (يونيو) من العام ١٩٩٧ ، كما قيل لي ، فحتى الآن لم أطلع على هذا العدد ، ذلك إن أيّ مطبوع عربي لا يدخل القطر منذ الحصار الذي مضى عليه أكثر من تسع سنوات . لقد وضعت المجلة عنوانا لملف الأدب العراقي هو «حكايا الموتى والمنفيين» ، وكادت تدخلني في مأزق أنا بعيدة عنه تماما ، إذ لم أكن أعني أي شيء من هذا القبيل حين كتبتها . وهكذا اختتمت الرواية بهذا الفصل .

هذا الحصار الذي ينخر في الروح قبل الجسد أبعدنا عن مواكبة كل شيء ، وفي مقدمة ذلك الثقافة . فنحن لن نسمع عن كتب جديدة تظهر ، إلا من خلال بعض الأصدقاء الذين يسافرون ويعودون . . . الأيام تمر والعمر يمضي وكل شيء في ركض مسعور . حين أفكر ، أحيانا ، كيف حلّ العام ٢٠٠٠ ، يأخذني العجب والأسى ، أيضا ، فمن المعروف أن أيام الإنسان تمر سريعا إذا ما كانت تغمرها السعادة والفرح ، أما أن تكون محاصرا ، مأزوما ، مثقلا بالهموم ، ومع ذلك تركض بك ! ! مزيد من الأوقات الضائعة ، العسر بعد اليسر ، الأخلاق التي تبدلت والأصدقاء الذين لم يعودوا يتواصلون كما من قبل ، كلّ مشغول بالركض لتوفير لقمة عيش مستورة . . . الحديث بين الناس إذا ما اجتمعوا لا يتعدى انقطاع التيار الكهربائي وغلاء الأسعار الذي لا يتناسب والمدخول اليومي أو الشهري . أناس يرتفعون وآخرون ينخفضون ، والحفاظ على المستوى الاجتماعي ليس بالأمر الهين . . . علماء ومثقفون وصلوا إلى حدّ الجوع ، فامتهنوا مهنا لا تليق بهم . شباب دخلوا حرب الثمانينات وهم في العشرين ، أو دونها ، وخرجوا منها وهم

في أوائل الثلاثينات أو في منتصفها، ومَنْ كان في الثلاثينات خرج كهلا في الروح والجسد، بعد أن أمضاها في الخنادق، ثم أكملها في حرب الخليج الثانية. شباب استشهدوا... شباب قتل أرواحهم العوق... شباب أسروا، منهم من لم يطلق سراحه حتى الآن... أصبحوا كهولا ومازالوا في الأسر... وآخرون فقدوا ولم يعثر لهم على أثر. ثكالى وأرامل وأيتام بالآلاف، والقصص الكثيرة والمآسي لا حصر لها... وبعد كل هذه المعاناة يأتي الحصار... حصار لا أخلاقي ولا منطقي عصف بكل شيء حتى القيم.

يسألني أحد الشباب (شاعر) ذات يوم، فجأة: «ست» هل ركبتِ في حياتك طائرة؟؟

دهشت لسؤاله، تفرست في عينيه، وأدركت حالا ما في رأسه. قلت له، وحرصت أن لا أجرحه أكثر مما هو مجروح... كنت أعرفه! لم أقل له إنني طرت مرات ومرات لا أستطيع حصرها... وزرت بلادا لم يحلم بها حتى في شعره. بيد إنني أجبته قائلة: «إن جيلي سبق جيلك، ولم تكن هنالك حروب، ولا إغلاق حدود، ولا حصار أمريكي وتحالفاته، كما لم يكن قانون (المحرم) موجودا بالنسبة إلى النساء، ومن الطبيعي أن أكون قد طرت... أنت الآن تعمل في التدريس، والمعلمون ممن سبقوا جيلك هم، أيضا، كانوا قد طاروا وزاروا بلدانا كثيرة، كانت نقابتهم تنظم لهم سفرات سياحية كل عطلة صيف».

لماذا تسأل هذا السؤال؟! ما الذي خطر ببالك؟ سألته، فأجاب ضاحكا بأنه ينوي كتابة موضوع على هيئة استفتاء عن الطائرة التي لم يرَها إلا في الأفلام! كان هذا الشاب قد ولد نهاية السبعينات، لم يدرك حربنا الأولى، لكنه نشأ وترعرع في ظل الحصار.

شاب آخر كان يجلس مطرقا واجما، ونحن نتحدث عن الصداقة والأصدقاء، ثم رأيناه يغطي وجهه بيديه، ثم ينفض رأسه نفضات سريعة، كأنه يطرد شيئا سقط على رأسه، ويخرج. كنت واثنان آخران نعرف قصته، ونعرف أنه تلقى علاجا نفسيا طويلا، يبدو أنه لم ينفع معه كثيرا. كان في الجبهة في نوبة حراسة مع صديقه يلعبان الورق على ضوء القمر، وكانت الجبهة هادئة، حين انطلقت قذيفة، وكما هي التعليمات المعروفة، انبطح ضامّا رأسه بين ذراعيه، وحين رفع رأسه وهو يهمس لصديقه: هيا لنغادر موقعنا، رأى حوله بحيرة من الدم وصديقه جسدا دون رأس. لم يتركه ويهرب، إنما حمل الجسد على ظهره لافّا ذراعه حول رقبته يركض به ويصرخ حتى وصل إلى الموقع.

على هذا النحو يعيش أبناؤنا، وعلى هذا النحو كبروا و(شاخوا)، وعلى هذا النحو أدركوا العام ٢٠٠٠! كل هذا يحزّ في نفسي ويقتل روحي، ومع ذلك أكتب. فالكتابة داء لا شفاء منه لمن ابتلي بها، مهما قست الظروف! إنها لعنة، ولكنها لعنة جميلة تمدّ صاحبها بطاقة تنسيه عذاب المعاناة وآلامها!!

محاصرة الكتاب

أمل الشرقي

عندما أعلن مجلس الأمن الدولي فرض العقوبات الاقتصادية على العراق في عام ١٩٩٠ ، لم يكن قد مضى على تأسيس «دار الشمس للنشر» سوى عام واحد .

كانت ردة الفعل الأولى في صفوف «الأعمال» التوقف الفوري عن المشاريع الجديدة ، ريثما ينجلي الموقف سياسيا واقتصاديا . لكن «دار الشمس» ، ربما بسبب حداثة سنها وقلة تجربتها في ميدان العمل ، أو ربما بسبب الاندفاع والحماسة ، قررت أن تمضي قدما في تطبيق البرنامج الذي وضعته لنفسها .

كنت قد وضعت للدار برنامجا طامحا يهدف إلى نشر سلسلة «روايات الشمس» التي تشمل أفضل الإصدارات العالمية في مجال الرواية ، وضمنها الروايات التي تحصل على الجوائز الكبرى كل عام . السلسلة الثانية كانت «كتاب الشمس» التي تشمل كتبا معرفية في مختلف فروع المعرفة ، تتوجه نحو القارئ غير المتخصص الذي يرغب في الحصول على معرفة متخصصة . أما الخط الإنتاجي الثالث ، فكان كتب الأطفال التي كان مقررا لها أن تصدر في مجاميع لا يقل عدد العناوين في الواحدة منها عن خمسة .

بحلول موعد تطبيق الحصار ، لم يكن قد صدر من هذه المجموعات سوى روايتين مترجمتين ضمن سلسلة «روايات الشمس» . كان لدى الدار خزين محدود من الورق ، يتناسب مع صغر سنها وحجمها . وفي الوقت الذي عمدت فيه جهات نشر أخرى إلى بيع الورق الذي تملكه ، أو الاحتفاظ به توقعا لارتفاع سعره كمادة خام ، راهنت «دار الشمس» على الإنتاج ، ودفعت بخزينها من الورق إلى المطابع ، لتواصل تنفيذ خطتها السنوية الأولى . تحول الورق الثمين إلى آلاف النسخ من الكتب . وفي نهاية العام الذي تلا العدوان الثلاثيني ، كان قد أصبح لدى الدار الوليدة اثنا عشر كتابا ضمن السلسلة الأولى ، ومجموعتان للأطفال ضمن السلسلة الثالثة . كان الفخر يملؤني ، لأنني استطعت أن أنجز خطتي برغم القصف ، وانقطاع التيار الكهربائي ، وكل الصعوبات التي اكتنفت استئناف العمل من جديد .

لكن صدور الكتاب لا يشكل إلا الخطوة الأولى في عملية النشر . في البداية – وأقصد بالبداية النصف الأول من عام ١٩٩٢ ، لأن عام ١٩٩١ الذي بدأ بالعدوان المسلح انقضى في توقف شبه تام في أغلب جوانب الحياة العراقية – أقول في البداية ، لم تعانِ الدار مشكلة التسويق . كنت أعوّل ، بشكل شبه تام ، على السوق المحلية للكتاب ، وهي سوق معروفة بنشاطها وقدرتها الاستيعابية الفائقة . وكان مايزال في السوق أشخاص مثلي يعملون بالحماسة المتفائلة وليس بالحسابات السوداء . فكان أن انتقلت الكتب من مخازن «دار الشمس» إلى جهات التوزيع ، وبيع أغلبها – من قبل الدار – بالأسعار التي كانت سائدة قبل الحرب .

مع انتهاء القصف بدأت سوق الكتاب العراقية تتلقى آثار عاملين رئيسيين ، كان لهما أن يتحولا في ما بعد إلى كارثتين عليها ، وعلى الاقتصاد العراقي كله ، هما انهيار قيمة العملة المحلية وتفريغ السوق العراقية من موجوداتها عن طريق الإخراج غير المقيد ، وأحيانا ، غير المشروع ، إلى أسواق الدول المجاورة . ظاهريا ، كان هناك حصار تلتزم الدول المجاورة ، وغير المجاورة ، بموجبه بعدم التعامل مع العراق والعراقيين والبضاعة العراقية . وفعليا ، كان الوسطاء والتجار من عراقيين وغير عراقيين ينقلون إلى الخارج ، في ظلام القصف وما تبعه من شلل مؤقت ، كل ما تصل إليه أيديهم التي لم يسلم منها شيء .

عندما زرت الأردن في شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٩٩١ ، كانت مئات الألوف من النسخ من أنفس الكتب العراقية مطروحة في «خيام» ، نصبت خصيصا لـ «تنفيقها» ، بأسعار لا تتجاوز الدولار للكتاب الواحد في أفضل الأحوال . لم يكن هناك اعتبار

لنوعية الكتاب أو اسم المؤلف أو الموضوع. كان الكتاب العراقي قد تحول إلى «أسلاب» حرب.

في عام ١٩٩٣، دعا وزير الإعلام العراقي إلى ندوة لبحث أبعاد النشر تحت ظروف الحصار، حضرها أغلب المعنيين بشؤون النشر، وضمنهم ناشرو القطاع الخاص. كان قطاع النشر الخاص قطاعا ناشئا في العراق، وكان دوره هامشيا بالمقارنة بمؤسسات القطاع العام التي ظلت، على مدى عقود عدة، تنهض بالعبء الأكبر من عملية النشر. ظهر في أثناء الندوة خلل رئيسي يتمثل في قلة وقصور الضوابط التي تنظم عملية النشر في القطاع الخاص. قدمت في الندوة مطالعة أشرت فيها إلى ذلك الخلل، وطالبت بتلافيه، إلى جانب قيامي بتقديم ورقة عمل حملت عنوان «لا حصار على الكتاب»، أدرجت فيها اقتراحاتي بخصوص دورة كاملة لإنتاج وتوزيع الكتاب، على النحو الذي يضمن استمرار صدور الكتاب العراقي، ولو بالحدود الدنيا.

انبثقت عن الندوة لجنة تنفيذية كنت واحدة من أعضائها. تبنت اللجنة عددا من الاقتراحات الإيجابية، كانت اقتراحاتي من بينها. وانبثقت عنها، تنفيذا لاقتراح زميل آخر، الدعوة إلى تأسيس منظمة أو اتحاد يمثل ناشري القطاع الخاص، ويساهم في تجاوز العقبات التي تعوق عملية النشر.

التقطت ومجموعة من الزملاء الكرام هذه الإشارة، وبادرنا إلى اتخاذ ما يلزم لتأسيس جمعية الناشرين العراقيين. كان عدد من العاملين في قطاع النشر الخاص يقابل مساعينا بالتشكيك في جدوى هذا التحرك، في ظل الحصار الذي كان يهدد بفرض الشلل العام على القطاع كله. وكانت وجهة نظرنا – نحن الجماعة التي أصبحت في ما بعد الهيئة المؤسسة لجمعية الناشرين العراقيين – تقوم على الرأي القائل إن وجود الحصار أدعى إلى التحرك الجماعي والمنظم، وإن عملية النشر الخاص التي كانت في الظروف الاعتيادية تسير على مهل، بدفع من المبادرة الشخصية، ضمن الهامش المتاح لها، باتت، تحت ظرف الحصار، في حاجة إلى وقفة موحدة، وسياسة محددة، وقدرة على التحرك المؤثر داخل وخارج العراق.

في شهر شباط (فبراير) عام ١٩٩٤، أعدَّت الهيئة المؤسسة للمؤتمر الأول لجمعية الناشرين العراقيين، واختتم المؤتمر بانتخاب الهيئة الإدارية التي شرفتني باختياري رئيسة لها في دورتها الأولى البالغة عامين. وتبنت الجمعية في مؤتمرها الأول شعار «لا حصار على الكتاب»، وعهدت إلى هيئتها الإدارية بالعمل من أجل تنفيذه.

كان الحصار عند ذاك قد ضيّق خناقه على العراق. وخلافا لما يعتقده الكثيرون خارج العراق، فإن الضربة الأوجع لم تتمثل في احتجاب البضائع الأجنبية والمواد الخام القادمة من الخارج، لأن هذه المواد كانت وماتزال تصل إلى العراق، وإن كان ذلك يتم بكميات أقل، وشروط أصعب، وكلفة أعلى. لكن الوجه الأبشع للحصار تمثل في انهيار قيمة العملة العراقية وتضاؤل فرص العمل. انخفضت القيمة الحقيقية لدخل الفرد آلاف الأضعاف، نتيجة تدني قيمة الدينار العراقي (كان السعر الرسمي للدينار العراقي، قبل فرض العقوبات، ٣ دولارات أمريكية و١٠ سنتات. وأصبح السعر التجاري للدولار، في نهاية عام ١٩٩٥، ثلاثة آلاف دينار عراقي)، وفي مثل هذا الوضع، ارتفعت كلفة إنتاج الكتاب المتوسط (٢٥٠ صفحة) إلى نحو ٤٠٠٠ دينار، وهو مبلغ يزيد على الدخل الشهري للمعلم والممرضة والشرطي، وقطاعات كبيرة من المواطنين.

في هذه المرحلة، برزت الحاجة إلى تفعيل الدور المهم الذي يمكن أن تلعبه السوق العربية في دعم الكتاب العراقي. وضعت جمعية الناشرين العراقيين تصورا تفصيليا لتنفيذ شعارها «لا حصار على الكتاب». اعتمد ذلك التصور، إلى حد كبير، على حقيقة كون سوق الكتاب العربي تتعدى الحدود القطرية لتمتد على كامل الساحة العربية. وشعرنا – نحن – في العراق بأن الوقت قد حان لأن ترد العواصم العربية بعض دَيْن العراق الذي تراكم طويلا على مدى سنوات القرن التي كانت خلالها «القاهرة تكتب، وبيروت تطبع، وبغداد تقرأ» – حسب القول الشائع في أوساط النشر.

كان خروج الكتاب العراقي إلى السوق العربية يمثل فرصة لإعادة التوازن إلى المعادلة السعرية التي أوقفت صدوره في العراق. وكان مايزال بالإمكان إنتاج الكتاب في العراق بكلفة تقل نسبيا عن كلفة إنتاجه في بقية الدول العربية، بفعل فارق العملة الذي كان له دور مزدوج، فهو يرفع كلفة المواد الصناعية الداخلة في إنتاج الكتاب، لكنه يخفض كلفة العمل والتأليف. وكانت خطة

الجمعية تقوم على ما يلي: ١ – إنتاج الكتاب داخل العراق، وتصدير ثلاثة أرباع نسخه إلى السوق العربية، حيث يمكن استعادة كلفته، وتغطية العجز في سعر النسخ المباعة داخل العراق، ٢ – الاحتفاظ بنسبة الربع من النسخ المطبوعة للتوزيع داخل العراق، بسعر «مقبول» يقل عن كلفته الحقيقية.

وهكذا تقوم السوق العربية بـ «دعم» الكتاب الذي يوزع في الداخل، من خلال توزيع الكتاب العراقي الذي يصلها بأسعار توازي أسعار مثيله من الكتب الأخرى.

وكانت الأهداف المتوخاة من هذه العملية: ١ – إدامة تدفق الإنتاج الفكري العراقي، ٢ – المحافظة على بقاء دور النشر القائمة، ٣ – مداورة الرصيد الإنتاجي، أو ما تبقى منه حتى ذلك الحين.

تزامن هذا التوجه مع انبثاق اتحاد الناشرين العرب الذي كانت جمعية الناشرين العراقيين من بين مؤسسيه. كنت أمثل الناشرين العراقيين في الاجتماع التأسيسي للاتحاد الذي انعقد في عمان في عام ١٩٩٤. وجهت، باسم الجمعية، نداء إلى الاتحادات الشقيقة، أعلمها فيه بقيام الجمعية وأشرح خطتها لمواجهة الحصار، بمضاعفة النشاط على الساحة العربية.

كان الحصار في تلك المرحلة قد أفرز على الساحة العراقية قرارا رسميا سلبيا أثر على حركة الكتاب العراقي، وأعاق تنفيذ خطة الجمعية – فقد أصدرت وزارة الثقافة والإعلام قرارا بمنع تصدير الكتب والمطبوعات العراقية إلى الخارج. كان ذلك القرار ينطلق من الاعتقاد بأن السماح بتصدير الكتاب مع توقف النشر سوف يفرغ السوق العراقية من الكتب. لكن تطبيق القرار عمل في النتيجة على «محاصرة» كمّ هائل من الكتب التي كانت قد صدرت قبل الحرب، عن الجامعات والمؤسسات ودور النشر الحكومية والخاصة.

كان ذلك الكمّ قد غطى دائرة قرائه في الداخل، وخسر الجزء الأعظم منه مواكبته للزمن بتقادم تاريخ صدوره، وكان بالإمكان استثماره كرصيد للمداورة يصدّر إلى الخارج، وتحول عوائده إلى مبالغ يعاد توظيفها لإنتاج كتب مواكبة وجديدة. وهكذا، حرم القرار مؤسسات النشر المحلية من فرصة استثمار موجوداتها من الكتب، وفرض حصارا ذاتيا، إضافة إلى الحصار الخارجي.

في الأعوام ٩٤ و٩٥ و١٩٩٦، انهمكت في العمل على جبهتين: جبهة جمعية الناشرين التي أعيد انتخابي لرئاستها مدة عامين آخرين، وجبهة «دار الشمس» التي كنت أملكها، من أجل تحقيق هدف واحد، هو اختراق جدار الحصار الذي بات يهدد مهنتي ومهنة الناشرين الآخرين.

تمكنت جمعية الناشرين، بعد نضال تجاوز العامين، من أن تقنع الجهات الرسمية برفع جزئي للمنع المفروض على تصدير الكتاب، حيث تمت الموافقة على تصدير عدد محدود من النسخ لكل عنوان، تبعا لمبدأ المقايضة الذي يقضي بأن يقوم المصدر مسبقا باستيراد ما يعادل قيمة النسخ المصدرة ورقا أو مواد طباعية، أو أن يدفع القيمة نقدا بالعملة الصعبة.

كانت «دار الشمس» في مقدمة الناشرين الذين سارعوا إلى اغتنام تلك الفرصة، لإعادة تدوير عجلة النشر المتوقفة. اتفقت مع دور نشر أردنية على إنتاج مشترك تضطلع بموجبه «دار الشمس» بإنتاج الكتاب داخل العراق وخارجه، ويتولى فيه الطرف الأردني توزيع الإنتاج في السوق العربية.

واصطدم المسعى الحثيث للخروج بالكتاب العراقي، عبر هذا المنفذ الضيق، بمعوقات عدة كان من أهمها:

١ – الموقف السلبي لجهات التوزيع والنشر العربية التي وجدت في ظرف الحصار فرصة للحصول على الكتاب العراقي بثمن بخس، وبشروط جائرة، ورفضت رفضا قاطعا معاملة الكتاب العراقي على قدم المساواة مع ما يقابله من الكتب الصادرة في الدول العربية الأخرى.

٢ – الروتين العراقي الذي حال دون تحريك الرصيد العراقي من موجود كتبي، ودون تشغيل المؤسسات الطباعية الضخمة، وعطل الاستفادة من القدرات التأليفية والأيادي العاملة، على النحو الذي يضمن إدامة حركة النشر، وإنْ كان ذلك في حدود

ضيقة.

٣ – الخوف التقليدي لدى قطاع النشر الخاص، وتهيبه من المجازفة بتحدي حدود الحصار، وتفضيله تصفية موجوداته وإمكاناته، وتحويلها إلى نقد سائل يمكن توظيفه في مجالات أخرى.

٤ – ظهور بعض الحالات السلبية المتمثلة في إساءة استغلال فرصة التصدير، من قبل بعض الناشرين قصيري النظر، ومن قبل الدوائر المسئولة عن التنفيذ التي كانت إعادة الحياة إلى قطاع النشر آخر ما يعنيها.

كان من الصعب عليّ شخصيا، كناشرة ذات رصيد محدود، بدأت عملها في ظروف الحصار، أن أواجه كل هذه العوامل مجتمعة. ومع ذلك، فقد واصلت المواجهة حتى آخر كتاب في مخازني، و آخر دينار في رصيدي، و آخر فرصة في أفقي.

بانتهاء عام ١٩٩٦، كانت «دار الشمس» قد وصلت إلى حالة التوقف التام. كان الخلل الكبير في المعادلة السعرية قد جعل من غير الممكن، أبدا، استعادة ولو جزء من كلفة إنتاج الكتاب من عائدات مبيعاته داخل العراق. وكانت المطبوعات التي أنتجتها الدار خارج العراق قد «ابتلعت» من قبل الموزعين العرب الذين امتنع بعضهم عن تسديد مستحقاته، ونقض البعض شروط التوزيع، «و ميّع» عملية التوزيع، بهدف «تزهيق» الطرف المقابل، مستغلين الوضع الضعيف للإنسان العراقي و المال العراقي و القيود المفروضة على حقوقه و حركته.

أحيانا، يغلبني الإحساس بالحيف الذي ينبع من كون ما وصلت إليه «دار الشمس» كان يمكن تفاديه، أو تفادي جزء منه، على الأقل، لو لم يتضافر الحصار الذاتي والحصار العربي (الطوعي) مع الحصار العالمي (المفروض) على خنق الكتاب العراقي، والكاتب العراقي، و الفكر العراقي.

لكنني سرعان ما أستدرك، بمرارة، أن هذا هو الحصار بمعناه الأوسع والأوجع. فالحصار ليس قرارا جائرا فحسب، بل هو «حالة» تطلق الخوف، و تربك الرؤية، و تشوه المواقف، و تغلق منافذ الفرص، و تفتح أبواب الاستغلال، في «متلازمة» لعِيْنة وجهتها و غايتها النهائية خنق الحياة في كامل الجسد المحاصر.

ربما الدموع . . . ربما المطر!

إرادة الجبوري

خرجتُ من الجريدة، بعد أن كتبت متابعة لندوة حول أزمة النص المسرحي، عصر ذلك اليوم. كان مسئول الصفحة قد غادر الجريدة، بعد أن ترك حيزا لمتابعتي.

قبل أن أصعد إلى الطابق الخامس حيث مكتبي، عرجت على القسم الفني، فرأيت الصفحة جاهزة بانتظار متابعتي. رأيت المساحة المخصصة لي، ثم توجهت للكتابة.

سنوات العمل الطويلة جعلتني أعرف ما هو مطلوب مني، دون أن أضطر إلى الحذف أو يضطر غيري إلى التعديل. . . وبمرور الأيام اختفت نوبات غضبي وأنا أرى كلمة أو عبارة محذوفة أو مشوهة.

شيئا فشيئا، تبدد اهتمامي بمراجعة المادة بعد التصحيح الأول والتصحيح الثاني والانتظار حتى تنفيذها.

لم أعُد أبالي بالهاتف وهو يرن بعد ظهورها في الصباح التالي. أجلس في غرفتي أرتشف القهوة التي أصنعها على مهل وبجدية، وأتصفح عناوين الصحف المحلية الأخرى والصحف العربية التي يعود تاريخها لأسابيع ماضية.

وعندما يصل الزملاء أكون قد انتهيت من القهوة والصحف، وانهمكت برسم خطوط على دفتر ملاحظاتي، غالبا ما تشكل في النهاية غابة نخيل معتمة.

عندما تناديني زميلتي بأن مكالمة لي، لا أتحرك إلا بعد الانتهاء من إكمال كتلة الخطوط هذه أو تلك.

– . . . . . ؟

– نعم، أنا، إرادة الجبوري!

– . . . . . .

– أنت محق، يجب معالجة هذا الجانب في المرة القادمة.

– . . . . . .

– لا لست ضد عرض الأفلام القديمة، لكني مع فكرة تقديمها دون المساس بها. إنها ذاكرة بلد، ويجب احترام تلك الذاكرة

وعدم تشويهها، وإلا فمن الأفضل الإبقاء عليها في علب يغطيها الغبار، حتى يأتي اليوم الذي نمتلك فيه شجاعة عدم الخجل من تلك الذاكرة والاحتفاء بها، بتقديمها دون مقص رقيب، أو دون تقديم مبررات تصادر قوة الماضي وجماله.

- . . . . . .

- لا نمتلك سوى أن نقول كلمتنا ونمضي. . . إننا شهود عصر. . . قول الحقيقة أو الصمت.

أعود إلى خطوطي. اتصال آخر. أحرك يدي «لست موجودة».

أنغمس في غابة خطوطي. . . تغيب الأصوات فيها. . . أصوات الزملاء وهم يتناقشون ويبدون ملاحظاتهم حول مواضيع بعضهم البعض. . . أفكارهم لهذا الأسبوع. . . ما يجب عمله.

- لا. . . رئيس التحرير هو الذي رفع موضوعك قبل الطبع، ووضع بدلا منه مقالة هذا الشخص!

- من هذا الشخص؟ أول مرة أقرأ اسمه، ثم إن الموضوع ليس عاجلا ويمكن نشره في أي يوم آخر.

- أعتقد أن رئيس التحرير لا يعرفه، أيضا. تلقى اتصالا هاتفيا من جهة ما، أمرت بنشر الموضوع في عدد اليوم.

أسمع اسمي يتردد «ما رأيك يا إرادة».

لا أكترث! صوت الغابة أكثر إغراء.

- إرادة! ألست معنا؟!

أرفع رأسي: نعم ماذا هناك؟

- ما رأيك بمقالة نابغة الصحافة الذي توج صفحتنا اليوم؟

- عمن تتحدثون؟

- كأنك لست في عالمنا. . . الاسم الجديد الذي أطل اليوم.

- ما به؟

- ما رأيك؟

- لم أقرأ ما كتبه. . . تعرفون أنني أقرأ العناوين، وكفى.

يرتسم الخذلان على ملامح حنان ومحمد ونضال ورياض.

لا يبدون احتجاجهم. لا شيء سوى خيبة وامتعاض يصفعونني بها ويعودون إلى حديثهم.

أعود إلى غابتي.

يصل رئيس القسم. اجتماع العاشرة صباحا. أقدم أفكاري لعمل اليوم.

لا يعترض أحد، فالمسرح والسينما والإصدار الجديد لا تغري الزملاء.

وبمرور الأيام أصبحت من نصيبي. لم أكن اعترض إنْ بادر أحدهم وقدم فكرة ما تقترب من ما أسموه «اختصاصي».

أكتب أفكاري وأعرضها، ثم أعلقها في لوحة إعلانات القسم، كي لا تتعارض مع عمل زميل تخلف عن الاجتماع الصباحي.

بعد الاجتماع، أغادر الجريدة. أمسح الشوارع الممتلئة بالناس، أذهب إلى دائرة السينما والمسرح، لأحضر ندوة أو بروفات

مسرحية أو تجهيزات فيلم، ثم أصعد إلى الطابق الخامس حيث الكافتيريا.

أتوجه إلى طاولة في أقصى المكان مع فنجان شاي. أتأمل من النافذة دجلة وأفكر... «هل يمكن أن يكون جمال دجلة حقيقيا وعميقا بهذا الشكل»... تفزعني أصواتهم... ناجي... إقبال... رائد...

– ألا تشبعين من دجلة؟

أجيبهم بابتسامة.

يجلس ناجي قبالتي ويكرر جملته الدائمة... «حالما أنتهي من إخراج هذه المسرحية أهاجر».

رائد يضحك بقوة وهو يقول «هل تهددنا»؟ ليس معك وحدك يمكن أن أنتزع دور البطولة.

تقول إقبال أفكر بالإنتاج لحسابي الخاص... بالمناسبة يا إرادة لِمَ لا تكتبين لي عملا... أو على الأقل، دعينا نعد شيئا للتلفزيون من قصصك؟

أومئ برأسي كلا.

– صدقيني... لا خسائر على مستوى النص... وافقي فحسب.

لا أجيب... تفلت مني عبارة أندم عليها حالما أتفوه بها.

– منذ سنوات يا ناجي وأنت تردد سأهاجر حالما انتهي من هذا العمل. أعتقد أنك ستفعل عندما تخرج مسرحيتك السابعة.

– لماذا؟ يتساءل بحزن!

– لا أدري. لكني أومن بالرقم سبعة، وأنت الآن عند عملك السادس.

يهرب ناجي من كلماتي ويقف متسائلا «ماذا تريدون من البوفيه»، دون أن ينتظر إجابة، وبحركة مسرحية كأنه يحيي الجمهور، يعلن: «فاصوليا، بالتأكيد».

وسط اللغط والطعام والشاي ومشاريع العمل والسفر والهجرة، أسترق النظر إليه، أراه يسير بهدوء واطمئنان غير مبالٍ بثرثرة المدينة وأحلامها المسفوحة على الطاولات والشوارع والبيوت.

أشعر بالحزن... أستأذن منصرفة.

أعبر الجسر مشيًا، وبين حين وآخر أتوقف عند سياج الجسر.

أنظر إليه... أتأمله... أخاطبه... لكنه يستمر في طريقه دون أن يلتفت إليَّ.. يتوقف عند كلماتي... لغط المدينة... أحلامها... أحزانها...

أعود إلى البيت... أمي لم تعد تنتظرني على الغداء منذ سنوات طويلة. أغيّر ملابسي فأجد الشاي بانتظاري.

تحدثني أمي عن البيت والجيران والشائعات والأخبار والأسعار والجرائم. تسألني عن خبر سمعتْه من المذياع حول زيادة حصة الفرد من المواد الغذائية.

نظراتها معلقة بصوتي... أستدرك، لكن الخيبة سرعان ما تكتسح وجهها وأنا أقول لها عبارتي اليومية «صحيح يا أمي أني أعمل في صحيفة، لكنك تعرفين جيدا أنني ومنذ أن دمروا العراق لا أقرأ الأخبار ولا أستمع إليها... لا أشاهدها. أترك فنجان الشاي وخيبة أمي وأصعد إلى غرفتي.

الكتب والأوراق تنتشر في كل مكان... على الطاولة... السرير... الأرض... عند الوسادة.

أفتح باب شرفتي المطلة على الحديقة، أراقب الفصول في أشجارها والأعشاش بالعوائل الساكنة فيها. . . أرى عصفورة تحاول أن تمرن صغيرها على الطيران. . . يخفق بسبب كرشه المتدلي. . . أضحك. . . وحدها الطيور ازداد وزنها بعد الحرب. . . الحشرات تملأ المكان. . . ماذا لو علم الناس بهذا السر؟ أتراهم سينافسون العصافير على سمنتها؟

أضحك بدموع أغفو، أحلم به يلتفت إليّ قبل أن يواصل سيره إلى الجنوب. دائما إلى الجنوب! صوت أمي يناديني من أسفل السلم «إرادة، ألا تتعشين؟»، كالعادة، أجيب: «لا، لكنني سأشرب الشاي».

أنهض من فراشي، أمي تتوسط المائدة مع أختي وأخي.

يبدءون بمشاكساتهم، يتهامسون ويضحكون، ثمة إشارات مشتركة بينهما لا أفهمها. . . صوت أمي ينهرهما بمحبة «ألم تملّا من المزاح!»، تقولها وتشاركهما الضحك.

أشرب الشاي وأفكر. . . منذ متى فقدت القدرة على الضحك؟

تندمج أختي في المزاح، وتسحب من على الأريكة مجلة مقلدة صوتي بصورة كوميدية، وهي تقرأ مقطعا من قصة لي منشورة في المجلة. «منذ متى حدث هذا؟ لا أدري. . . ربما أمس أو قبل عام، من يعرف؟».

يعلق أخي «أنا أعرف».

يضجون بضحكة طويلة.

أمي تلتزم الصمت بحزن.

أفكر «أتراني ورثت حزن أمي؟».

أختطف المجلة من أختي وأبالغ في السخرية. . . أشعر بالإنهاك. . . أرمي بالمجلة على الطاولة وأنسحب إلى غرفتي. . . أتصفح عناوين الإصدارات الجديدة. . . أقلبها.

أقرر «هذا للأسبوع المقبل. . . هذه الطبعة منقحة يجب العثور على الطبعة الأولى. . . عليّ ألا أنسى ابتسام. . . طلبت مني رواية إيزابيل أللينديِ «حب وظلال»».

أحاول أن أكمل قراءة رواية «امرأة الضابط الفرنسي». . . لا أفلح بقراءة أكثر من صفحتين مثل كل ليلة. . . آه! لو أني لم أشاهد الفيلم قبل قراءة الرواية. أردد بجزع: متى ستختفي ملامح ميريل ستريب لكي أرى سارة.

أطرد ملامح ستريب بملامح أينانا، وأقرأ في «عشتار ومأساة تمُّوز» أحب هذا الكتاب. لا أكفّ عن قراءته.

أتذكر «عقائد الموت في العراق القديم». . . لا أحتاج إلى الذهاب إلى رفوف المكتبة، لا بد أنه عند قدم السرير. . . أمدّ يدي فتلتقط «النورس جوناثان».

آه! النوارس تأخرت هذا العام كثيرا، ربما بسبب حرارة الجو.

أحتضن الكتاب وأردد عباراته التي بِت أحفظها.

أغفو وأنا أحلم بقدوم النوارس عند جسر الأحرار والشهداء، وبأرغفة الخبز التي أشتريها من ساحة الشهداء أو من سوق الصيادين المطل على دجلة، أتجول في السوق، زقاق قديم يبدأ بسوق خضار، وفي العمق منه محلات تعرض شبكات الصيد وأدوات الصيادين الأخرى.

محلات تعرض تبوغ الشمال. . . ينتهي الزقاق عند دائرة التقاعد القابعة على حافة دجلة. . . أحيد عنها حاملة رغيفين. . . وأسير إلى جسر الشهداء. . . أتوقف عند سياجه وأقطع الرغيفين قطعا وأرميها في الفضاء، تتلقفها النوارس قبل أن تلامس مياه

دجلة . . . أنتشي . . . أكلم النوارس بحماسة وفرح . . . يمر بي الناس . . . يتوقف بعضهم . . . أمارس متعتي حتى يخيل إليّ أنني محلقة مع النوارس .

تنفد قطع الخبز فتغادرني النوارس لاهية . . . محلقة . . . تتركني وحيدة بينما يسير دجلة دون أن يلتفت إليّ أو إلى النوارس . . . إلى المدينة وأحلامها المتناثرة على طاولات المكاتب والكافتيريات والمطاعم . . . يسير غير عابئ بالأخبار المؤلمة، شائعات الأمل، صوت المذيع، مشاكل النص المسرحي، مقص الرقيب، الجرائم، صور المفقودين، التوابيت الملفوفة بالأعلام، أسعار المواد الغذائية . . . شموع النساء عند مرقد خضر الياس، صراخ الأطفال المحتضرين في مدينة الطب المطلة عليه، نحيب الأمهات، أصوات المرضى وصرخات أناس يرون المشارط في غرفة عمليات بلا مخدر . . .

يمضي بهدوء مبتلعا كل شيء بصمت، مثلما ابتلع أحبار الكتب من قبل، ودماء من أحبوه .

يسير دون أن يلتفت إليّ .

$ $ $

خرجت من الجريدة، فتشت عند البوابة عن السيارة التي توصلني إلي البيت . لم أجدها . كان الظلام قد حلّ منذ فترة وجيزة والسماء توحي بليلة ممطرة . تمنيت في داخلي أن لا أعثر على السائق كي أبتل بالمطر .

أمي بانتظاري . . . سأتصل بها لكيلا تقلق . . . لأستمتع بالمطر دون الشعور بالذنب . . . أعود إلى استعلامات الجريدة، أتلفن لأمي :

– لا تقلقي يا ماما . . . سأتأخر قليلا .

– . . . . . .

– لا . . . لا تخافي . لن أعود بسيارة أجرة .

أضع السماعة وأعرف أن أمي تقف الآن عند النافذة بانتظاري، برغم علمها بأني لن أعود قبل ساعة .

بدأت قطرات المطر بالتساقط . . . ارتبكت حركة الشارع .

تسارع إيقاع خطوات المارة مع تسارع تساقط المطر .

رائحة الأشجار والأرصفة والمطر يغسل شعري، تبرعم في روحي أشواقا تيبست .

السيارات بإطاراتها المتآكلة تسير بحذر . . . يحتمي المارة من المطر بسقائف المحلات والمكاتب وزوايا الشوارع .

أسير بحرية . . . المطر يمنحني الأرصفة . . . لا أحد يزعجني . . . أسير بهدوء وسعادة . . . تأخر المطر هذا العام .

أحاول أن أتذكر كمّ مرة استقبلتُ المطر بدونه، منذ رحيله إلى بلاد لا تعرف سوى الأمطار . . . أحاول فأخفق !

تحزنني ذاكرتي . يبدو أني كبرت كثيرا . . . ماذا سيقول لو أخبرته بأني لم أتذكر كمّ مرة أمطرت السماء بدونه .

لن يصدق بالتأكيد . . . وسيقول لي عبارته التقليدية «أنت ذاكرة بقدمين» .

ربما رحل متحررا من الذكريات . . . مطمئنا أنها معي .

لقد رحل . . . رحل . . . لذا، يجب أن أنسى . . . أن أنسى .

كنت أسير تحت المطر وأنا أردد عبارتي هذه «يجب أن أنسى . . . أن أغير حياتي» . باغتتني لمسة على كتفي، ارتبكت وأنا أفكر «أتراه عاد؟» .

جاءني صوتها «هل أخَفْتك؟».

لم أجب... ألتفتُ إليها، كانت سيدة خمنت أنها في منتصف الأربعينات، ملامحها جميلة... ترتدي معطفا بنيا وشالا أسود... لابد أنها كانت خارقة الجمال في الماضي.

بالتأكيد لا أعرفها. سارت إلى جانبي... قالت بعد فترة صمت «هل أنت متوجهة إلى كراج الباصات؟».

أشرت برأسي «نعم».

– أيمكنني مرافقتك؟

لم أجب.

سارت إلى جانبي بصمت، عبرنا جسر المشاة في باب المعظم بخطوات بطيئة كأننا نسير تحت سماء مقمرة.

كانت مكتبة النجفي ماتزال مفتوحة فكرت بالدخول، لاح لي وجه أمي وهي تنتظرني عند النافذة المطلة على الشارع... اكتفيت بتأمل واجهة المكتبة. كانت السيدة ترافقني بدون انزعاج.

مررنا ببريد باب المعظم. تطلعت إلى البوابة الكبيرة الصفراء.

منذ متى لم أتلقَ رسالة أو أكتب رسالة، برغم سيل الحقائب المهاجرة الذي لا يتوقف؟

شعرت باليأس فحثثت خطاي باتجاه الميدان.

كانت سقيفة باص (٩٦) تكاد تخلو من المنتظرين. لم يكن هناك إلا الرجل العجوز الذي لم يمر يوم إلا ورأيته في المكان جالسا هكذا، يتأمل بانغماس الباصات الغادية والذاهبة... الركاب يغادرونها أو يحتشدون فيها دون أن يترك مكانه... لطالما فكرت... «ترى ما الذي ينتظره هذا العجوز؟».

وغالبا ما تراودني فكرة كتابة قصة يكون بطلها هذا العجوز... وكالعادة، ظلت الرغبة مجرد فكرة كأن وجود الرجل اليومي يجعلني أستسلم لعيش القصة على كتابتها...

أفكر «أتراني سأكتب القصة إذا ما اختفى أو أغراه باص في يوم ما؟». انتظرنا الباص حتى وصل، لم أسأل السيدة إن كانت وجهتها هي وجهتي... لابد أنها ذات الوجهة وإلا لما جلست منتظرة.

ونحن نقلّ الباص قالت... «أنا أنزل في البياع».

لم أجبها... نظرت إليها دون أن أخبرها وجهتي.

اتخذت مكاني عند النافذة وبدأت أتأمل الشوارع... قطرات المطر الكبيرة وهي تتساقط على أعمدة الكهرباء، فتبدو كشلالات ضوئية... سمعتها تقول «منظرك وأنت تسيرين تحت المطر باكية أحزنني كثيرا! لست فضولية كنت أسير فباغتتني دموعك».

حاولت أن أضحك وأنا أسألها «كيف استطعت الحكم أنها دموع وليس المطر؟».

قالت بشرود: لا... كنت تبكين... نعم، هذا ما جذبني إليك.

ولم تكمل إذ بدأت تذرف الدموع وهي تحاول أن تخفيها مشيحة بوجهها إلى الجهة الأخرى.

صمَتُّ وعدت إلى نافذتي.

سمعت صوتها كأنها تتحدث إلى نفسها «زوجك... أليس كذلك؟».

لم أجِب.

استمرت «أتراه تخلّى عنك؟».

أردت أن أخبرها بأني لست متزوجة. لكني عدلت عن ذلك. لا أدري أي عاطفة طغت علي، فقررت ألا أخذلها كما أفعل مع أمي وزملاء العمل. لم تكن بحاجة إلى إجابة، كانت بحاجة إلى شخص يصغي إليها فحسب... أحسست بأن عليّ أن أشعرها بأني مثلها تماما وأنها ليست وحيدة.

استرسلتْ «نعم، مثلي. هو لم يعد يشعر بي. الحياة صعبة. الأولاد لا يشعرون بي، أيضا. الجميع تخلّى عني». فكرت أن أخبرها بأنها أفضل حالا مني، ربما، وأنني اليوم وتحت المطر قررت أن أغير حياتي بعد فوات الأوان، وأن هذا ما كان يبكيني.

قررت ألا أفكر وألا أستمع إلى أحد... التحرر دفعة واحدة من كل شيء مثل دجلة تماما أسير بأحزاني وذكرياتي دون أن ألتفت إلى أحد.

لكني لم أخبرها بشيء... كانت دموعها المتجددة تخرس صوتي.

– أنا متزوجة ولدي أربعة أبناء... لست فارغة أنا مؤمنة بالله. ما يحزنني ويخيفني أني بدأت أشعر بأن الله تخلّى عني... تخلى عنا جميعا! أشعر بالخذلان... كل شيء يخذلني: زوجي... أولادي... صديقاتي... زملاء العمل.

قاطعتها محاولة تغيير مسار حزنها «هل تعملين؟».

– نعم، أنا مهندسة. لكني لم أعُد أشعر بشيء... لا بالعمل... ولا بالبيت والأولاد... أشعر باختناق... حتى دراسة تصميم الديكور في أكاديمية الفنون لم تبدد غربتي ووحدتي.

– هل كنت في الأكاديمية الآن... أقصد دراستكم تستمر حتى هذا الوقت؟

أومأت «نعم» وهي تمسح دموعها بمنديل وردي شفاف.

أكملتْ: لا أدري لِمَ أحدثك، أنا لا أعرفك... ولا تعرفيني... لكني عندما رأيتك تسيرين تحت المطر باكية، تحرك كل الغضب والحزن الذي في داخلي. أردت أن أمسك بيدك وأقول لك «دعينا نصرخ ونبكي بصوت عالٍ معا».

حاولت أن أخفف عنها «اهدئي! ولكن ما المشكلة إن كان لديك زوج وأبناء وعمل ودراسة؟».

نظرت إليّ بسخرية ويأس «تفاهات... كل هذا ليس بالمهم، أنا لست ملحدة... أنا مؤمنة. كل يوم يمر أشعر بأن الله تخلّى عني... عنا جميعا.

كل شيء يتعبني... فقدت القدرة على حب كل شيء طالما أحببته في حياتي، الحقد تسلل إلى روحي... أحقد على كل من يطلب مساعدتي.

المتسولون الذين بت أعرفهم... إنهم يستغلون قلبي. معالم البؤس لم تعُد تثير شفقتي بل حقدي أن قلبي يتفطر لأني لم أعُد أشعر بأحد. أنا أتألم... ليس الجوع ما يهزني بل امتهان الجوع... فكرة أنهم يضحكون من طيبة قلبي تدمرني... لم يعُد العمل يقدم إليّ ما حلمت به.

أنا وحيدة... وحيدة برغم كل شيء... برغم الزوج والأولاد والأصدقاء وزملاء العمل والدراسة.

دائما ما أتساءل ماذا يعرفون عني؟ لِمَ لا أتحدث عن ما أشعر به أمامهم؟».

توقفت المرأة عن الكلام مسحت دموعها.

كنا قد وصلنا البياع. حالما توقف الباص، غادرت المقعد دون أن تنظر إليّ أو تبادلني كلمة. سارت بخطوات ثابتة ونزلت، عندما تحرك الباص التفتُّ إلي الجهة التي سارت فيها.

كانت تمشي بخطوات بطيئة رافعة المنديل إلى وجهها... فكرتُ... ربما المطر... وربما الدموع.

ابتعد الباص ولم أعُد أرى صاحبة المنديل. حينها انتابني شعور ملحّ بالصراخ «سأغير حياتي... سأغير حياتي... سأمضي دون أن ألتفت مثل دجلة تماما».

قطرات المطر وهي تبدو مثل أشعة شفافة عكستها أعمدة الكهرباء، عزّزت من شعوري بالوحدة.

فكرت أنه وحيد مثلي تماما الآن... يتلقى المطر ويسير إلى الجنوب.

وصلت إلى البيت... كانت أمي واقفة عند النافذة... شاهدتني، ففتحت الباب، حالما رأيتها احتضنتها، ورحت في نوبة بكاء طويلة.

نافذة الانتظار

بديعة أمين

اقتربتْ من النافذة... أزاحت الستارة... وقفتْ تنظر إلى الشارع الممتد أمامها إلى ما لانهاية... ظلال باهتة ترتمي بكسل على أسفلت الشارع بلونه الرمادي المترب، فيما اصطبغت السماء بحمرة وردية يسوح فيها نثار من سحائب اكتست حوافيها ألوانا ذهبية وبرتقالية تركتها شمس راحلة. من بعيد بدا لها أن ثمة مركبة زيتية اللون كانت تقترب... ضيقت ما بين أجفانها لتتيح لنفسها رؤية أفضل... توقفت المركبة... ترجل منها اثنان بدا شكلهما في حمرة الشفق أقرب لكونهما شبحين متعبين... ثم تحركت المركبة الزيتية اللون باتجاهها... اقتربت... «إنها تقترب... تقترب... قد تتوقف عند بوابة الحديقة... سينزل منها أسامة كما نزل الاثنان الآخران... لابد أنه مثلهما متعب يعلوه غبار الطريق وعرقه... أجل سينزل منها أسامة الحبيب... فغداً عيد ميلاده... سأحضر له هدية حلوة... يمسكها... يقربها من وجهه... يفتح فمه... تمنعه من التهامها... وبفرح... «لا... لا... هذه ليست للأكل...» ... يضحك... تداعبه... تناغيه... تمسك بيديه الصغيرتين... تجعله يصفق... يضحك مغتبطا... وفجأة تنتبه لنفسها... الله! ذلك الزمان الجميل ما أحلاه...» ... وتعود من ذاك الزمان الذي مضى... تجيل بصرها في الشارع بحثا عن المركبة الزيتية اللون... الظلال الباهتة اختفت ولا شيء هناك غير بضع عربات خصوصية تمرق مسرعة قبل أن يجيء الظلام... أسدلت الستارة وانزوت في كرسي عتيق تتطلع في التلفزيون بعينين فارغتين إلا من حزن مقيم... عساه يحمل نبأ سعيدا...

قبل أن تغيب شمس يوم عيده... اقتربت من النافذة... أزاحت الستارة وراحت تراقب الشارع بلهفة متجددة، وبشيء من الخوف والقلق تنتقل بعينيها ما بين الشمس الغارقة في الأفق الغربي والشارع الرمادي المذهب... وفي البعد تلوح من جديد مركبة زيتية اللون... تقترب المركبة... «أكيد سيأتي اليوم... لابد أنه آتٍ... إنه يوم عيده... فكيف لا يأتي وعيد الميلاد لا يأتي

إلا مرة واحدة في العام!» . . . وتقترب المركبة الزيتية اللون . . . ومع اقترابها تتسارع دقات قلبها . . . تضج بعنف يرتج له صدرها فيعلو ويهبط . . . إنها خائفة ومتلهفة . . . تتقطع أنفاسها كأنها توقفت للتوّ بعد ركضة ماراثونية . وفي لوعة الانتظار تنبعث في صدرها آهة حزينة . . . قال بعض ممن عاد من الأسر . . . إنه كان معهم في قفص واحد . . . وقال آخر إنه سمع بمثل هذا الاسم . . . وأعلن ثالث أنه خرج ليتوضأ في نبع قريب فأصابته رصاصة غادرة من فوهة قناص . . . «وأنت؟ هل رأيته؟ . . . لا . . . بل سمعت من قال ذلك عنه» . . . وثمة من قال إنهم كانوا في موقع . . . تكثر فيه الدببة والذئاب . . . خمسة عشر عاما وهي تسأل فيأتيها جواب يحلق بها على أجنحة الأمل . . . ويلقي بها آخر في لجة لا قرار لها . . .

حين غادر آخر مرة . . . طبع على جبينها قبلة حانية : «في إجازتي المقبلة سيكون وليدي البكر قد جاء لدنيانا» . وبجذل : «أمي . . . سأصبح أبا لأول مرة في حياتي . . . سأصبح أبا . . . » . . . وأضاءت وجهه لحظة سعادة . . . ضحك لها وهو يمسك بيدها . . . «أتعلمين – سأسميه سعدا ، لو كان صبيا . . . ولو كان بنتا سأسميها على اسمك» . تقترب المركبة ومع اقترابها يجتاح أعماقها ألم مجلجل كما لو آنَّ قبضة حديد تعتصر خاصرتها . . . تمزقها . . . تشعل فيها نارا ملتهبة . . . أغمضت عينيها . . . وبيديها الاثنتين راحت تضغط على أحشائها علّها تخفف بذلك من الألم . . . وفي غمرة الدوامة من الوجع والخوف واللهفة والشوق والقلق انتابها إحساس ظنته أقرب إلى اليقين . . . إنه لابد آتٍ في عيده هذا العام في تلك المركبة الزيتية اللون . . . فليس من المعقول ألا يحضر عيده خمسة عشر عاما متتالية . . . أرادت أن تفتح عينيها لكنها خافت . . . «كان من عادته أن يخرج صباحا ويعود في مثل هذا الوقت من النهار . . . لكن هذه المرة ليست كغيرها من المرات في الزمن الذي مضى . . . » . تملكتها رغبة ملحة أن تفتح عينيها ، فالمركبة لابد أن تكون قد بلغت الآن بوابة حديقة الدار . . . لكنها لم تستطع أن تحطم حاجز الخوف . . . حاولت أن تستجمع أطراف شجاعتها محدثة نفسها : «هيا . . . هيا . . . لا تخافي يا أم أسامة . . . افتحي عينيك . . . ستجدينه عند الباب . . . سيرفع يده . . . يضغط بسبابته على جرس الباب . . . سيرن الجرس . . . هيا . . . هيا . . . افتحي . . . » . . . ويزداد قلبها خفقانا . . . «إنه آت» . . . أصوات المركبات والعربات تهدر في الشارع وثمة صخب وضجيج ينبئها أن عربة أو أخرى قد توقفت هنا أو هناك في مكانٍ قريب . . . «تلك الأصوات الضاجة . . . إنها جلجلة النصر . . . إنهم يهزجون . . . يهتفون أولئك الرجال الشجعان . . . يلوحون بأيديهم بعلامة النصر . . . وفي الأجواء تتعالى الزغاريد ونقر الدفوف وتنثر الزهور وأغصان الآس . . . لقد سكتت المدافع أخيرا . . . وحل السلام . . . وها هم عائدون جميعا . . . أفواجا أفواجا . . . وهو آتٍ معهم . . . أكيد أنه آتٍ معهم . . . هيا . . . هيا افتحي عينيك» . . . ومع صليل دقات قلبها تفيق من ذكريات ذلك اليوم الجميلٍ . . . يوم النصر . . . وتفتح عينيها . . . لا شيء هناك غير عربات خصوصية وبضعة مارة .

في ذلك الصباح ودّعها وهو يبتسم وإشراقة أمل تزهر على محياه : «أمي . . . لا تنسي . . . إجازتي القادمة ستصادف يوم ميلادي . . . إياك أن تنسي . . . إياك . . . » . . . ضحك ولوّح لها بيده مبتعدا فيما سكبت هي عند الباب دلوا من الماء وهي تدعو الله أن يعيده لها سالما حتى قبل أن يجف الماء . لكنه لم يعد . . . خمسة عشر عاما وهي تقف هناك عند النافذة في مثل هذا الوقت كل مساء . . . وحين تغيب الشمس . . . وتعود الطيور لأوكارها ، تبعث له معها سلاما . . . تسدل الستارة . . . وتنسحب . . .

جلست على كرسي قبالة صورة له معلقة على الجدار . . . راحت تتأملها بأسًى تومض من خلله ارتعاشات خجولة في فرح غابر . . . شعلة شمعته الأولى تتراقص والصغار يحيطون به وهي تضمه إلى صدرها . . . ترن في أذنيها ، آتية من زمن بعيد ، صيحات الصغار وهم يغنون . . . يصفقون . . . يرقصون . . . ويتقافزون . . . «آه . . . أي زمان جميل مضى . . . ياه . . . ثمانية وثلاثون عاما . . . » . . . ومع مجيء كل عام وحتى في سنوات غيابه تضيء شمعة جديدة حتى بلغت سبعا وثلاثين شمعة . . . واليوم ستوقد شمعته الثامنة والثلاثين . . . «وفي كل عيد آت سأوقد شمعة جديدة . . . لن أتوقف عن ذلك ما بقي في جسمي عرق ينبض . . . » . امتدت يدها إلى سلسلة كانت تطوق عنقهاً . . . إنها سلسلته هو . . . سلسلته التي تحمل اسمه . . . لقد نسيها حين غادر البيت آخر مرة . . . أفكار مظلمة راحت تتدفق في رأسها وهي تتلمس السلسلة . . . حاولت أن تكون متفائلة . . . أوقدت شمعة عيده . . . لكنها لم تستطع أن توقف ذلك الدفق ، إذ انبعث في مخيلتها فيلم تلفزيوني وثائقي . . . ثلة من جنود العدو مدججين بالسلاح وهم يكسرون يد عربي أعزل بالحجارة . . . والعالم يتفرج بصمت . . . نيران لاهبة اشتعلت في كل وريد

وشريان في جسدها فيما انحدرت من عينيها سيول من الدمع مدرارة: «أوقعَ في الأسر... كيف عاملوه... هل حطموا يده بالحجارة... أهو الذي تمزق إربا بعد أن أوثق بعجلتين تندفعان باتجاهين متعاكسين... هل افترسته الذئاب أم تراه مايزال حيّا... ماذا يأكل... ماذا يشرب... أين ينام... أين يغتسل... أهو مريض أم أصابه جرح من طلق ناري غادر... أيعلم أنه صار أبا لابنة جميلة تحمل اسمي كما أراد... أيصلي... أيتلو ما حفظ من آيات قرآنية كريمة لعل الله يلطف به ويعيده لنا ولابنته التي تنتظر وتريد أن تراه... أهو مفقود... أم... أم...؟»... وهنا صرخت من دون وعي منها: «لا... لا... لا يمكن أن يحدث هذا...»... وانخرطت في نوبة بكاء فاجع وهي تتساءل دون أن تقوى على لجم ذلك السؤال: «كيف سيتعرفون عليه وسلسلته هنا معلقة على قلبي... لا... لا... لا يمكن أن يحدث هذا... إنه مايزال حيا... يا إلهي... برحمتك الواسعة أعده لي!!».

كانت ترتدي أجمل ملابسها حين يحين موعد إجازته وتحث امرأته اليائسة أن تفعل مثلها: «أريده أن يرانا ونحن في أحسن حال كي لا يقلق من أجلنا نحن الذين هنا... فله من الهموم والأهوال هناك ما يزيد على كفايته...». تذهب إلى صالون الحلاقة... تسوي شعرها الفاحم... وتتزين أيضا... كان يداعبها... يقول لها: «أمي... ما سر سواد شعرك... بل ما سر شبابك السرمدي... لقد شاب رأسي وأنت ماتزالين تنافسين الليل بليل شعرك...».

«ترى... ماذا سيقول الآن حين يعود ويرى عروقا من الفضة قد اشتعلت في ليل شعري وراحت تتوهج التماعا في ضوء الشمس!». الليل غادر شعرها ليستقر في قلبها وتلافيف دماغها حتى غدت نهاراتها ليالي وهي في انتظار وحيدها الغالي، وقد تخلت عن رغبتها في أن ترتدي أجمل ما لديها... ولم تعُد تذهب إلى صالون الحلاقة.

جاء سبع مرات أو ثمان بعد أن التحق بالجبهة... وفي المرة الأخيرة قال لها: «في الإجازة التالية سآخذك أنت وزوجتي والقادم الجديد في زيارة للمراقد المقدسة... سندعو الله أن يوقف هذه الحرب الغادرة ويعيد السلام إلينا... لطفلي الآتي ولكل الأطفال». وإذْ كانت غارقة في الزمن الذي كان رنّ جرس الباب... قفزت من فراشها... ركضت إلى النافذة... فتحتها ونادت: «من؟ من هناك؟ أسامة؟ أسامة انتظر... إني قادمة... سأفتح الباب فورا»، «حسن يا أمي»... وما إن فتحتها حتى انشقت السماوات السبع عن نور وهاج يغشي الأبصار... «إنها ليلة القدر... وها هي أبواب السماء تنفتح... لعل الله قد استجاب لدعائي»... انطلقت عبر الباب وهي تنادي: «أسامة... أسامة... أين أنت؟»، لكن أحدا لم يكن هناك غير زنبقة بيضاء تلتمع صفاء ووجه أسامة يبتسم لها في قلب الزنبقة.

وانتفضت من نومها... كانت ترتجف كسعفة يابسة في مهب ريح شرقية عاصفة ووجيف قلبها يكاد يحطم أضلاعها ويوقف أنفاسها... فيما كانت يداها... وجهها... رأسها وكل مسامة في جسدها تتصبب عرقا... عضت شفتها السفلى... نهضت من فراشها... استعاذت من الشيطان... واستغفرت الله... توضأت وبدأت تصلي صلاة الفجر... لكن ذلك الألم في الخاصرة داهمها من جديد وهي تركع متضرعة إلى الله... كان الألم يزداد شدة وانتشارا مع مرور كل يوم بل وكل ساعة ودقيقة... حتى جاء حينٌ لم تعُد قادرة على النهوض من فراشها أو السير دون أن تحس أوصالها تتقطع مزقا من شدة الألم... بل لم تعُد قادرة على الوقوف على قدميها... ورم خبيث كان قد استوطن كل خلية في جسدها حتى بلغ الرأس أيضا...

مرت أيام وأسابيع وشهور... بل وسنون والستارة مسدلة على نافذة الانتظار... لقد رحلت دون أن تعرف لِمَ لَمْ يعُد أسامة من الإجازة لتزور وإياه – كما وعدها – المراقد المقدسة...

في اللعب بلا مظلّة

سهام جبّار

اتخذوا مواقعهم واستعدوا. كان على كل واحد أن يؤدي قسطا من شوط اللعبة. وعندما يفشل واحد، ستلحق مهمته بمن يليه

فيتحمل هذا عناء مضاعفا.

كان عقلي الذي يشارك رقيبا بلا مظلة تحميه من الصفعة، إنْ تقرر لها أن تحدث، وكان بقية الأولاد موزعين على المواقع بنشاط.

تهيأت للدخول في الممر الضيق الذي لا أعرف ما ينتظرني فيه، وتهيئوا هم لمراتهم. لكلٍّ ممرّه. لا نعلم كيف وزّعت علينا إلا إننا تهيأنا. أخذت أنفاسا مجتهدة من الفضاء، ومنحتُ جسدي إحساسا بالتجلّد إزاء دبقٍ قد يهجم عليه في أية لحظة.

كان اللاعب الأول الذي رآني متوّجة في العين الكبيرة أرتدي زيّا موشحا بالفراشات، يغلّف رأسي وشاح الزيّ نفسه، قد استعدّ، وأحضر أوراقا طويلة لزجّها – ربما – في الممر، لعله سيملؤها سطورا، أو يدحرج عليها أشباحا، أو يستلقي عليها ريثما تنتهي اللعبة، حتى إنه انتفخ وعظم بندبته التي يفصلها بالزبد عن مستويات النظر المتجهة إليها.

أما اللاعب الثاني، فقد أحدث في قلبه ثقبا، وانبرى يُسقط كل لحظة منه جرما، كأنما يخثّر في نهره الكائن الذي فيه. عندما امتدّ أمامي بين الباب الثقيلة المسدلة وجسدي، فقد إحدى مصائره، وصرت أرمّم في تلك اللحظة بقيّته، وأُحسِّنُها، لأن تظهر بمظهر طيب على الزجاج الذي تُلصَّقُ عليه التذكارات.

وأما اللاعب الثالث، فكان يدخل خطأ في الساحة، ليحسب له دخوله غير المتعمد إلى اللعب. خططه مخفية وجماله نقطة مضافة لصالح انتصاراته التي منها الخسارة، وقد استعد لحملي على حصان من خشب إلى مدينة تحت معطفه الأنيق الذي انسدل علينا معا، ولم ينفجر.

التمّوا... مترادفين، بينما يشغل الفراغ موقعا مازال فارغا. يدخل اللاعب الآخر مرتبكا من سرعته وتأخره، متحولا في أعيني من عصا عالية إلى إسفنجة كالشاطئ مائلة في اتجاهي. أحس بأني سأمتص حتى أفقد روحي.

ألمٌّ شتاتي وأعتدل. عدد هائل من الأولاد ليدخل اللعبة. لعاب يسيل من كل شيء ليغطي الوجوه. لا أكاد أعرف الملامح التي ستستقبلني بضراوة لعبها. لا أعرف كيف ينبغي أن أواجه ما قد أواجه في ممري الطويل. الوحدة فيه بعض من لوازم الدور. وعندما تنطلق الصافرة الأولى سأسرع صوب مكاني. المكان الضائع الذي بحثت عنه في نومي الأخير ولم أجده.

ابتدأ الإنذار. ودخلت في الممر الضيق. ظلمة. أشباح. مكان ضائع لا أتبيّنه. تعب.

ثمة أزرار: التذكر – التآلف – الحب – الانسجام... عليك أن تستمد من طريقة الضغط عليها التعاليم التي تنفعك.

اللعبة أن تختار، وأن تتقن الوسيلة، وأن تخوض في الغمار حدّ النهاية. ثمة أزرار مقابلة. هناك الكراهية، مثلا – النسيان – الاستيحاش – الملل.

وعندما لا تتحرك خطاك جيدا، قد تقرصك عقارب مدّربة على تنبيهك، أو قتلك، أو تجفيف مائك الذي تعوّل عليه لتسيل، إنْ لم تحلّق.

ثمة طيور، أيضا، تحطّ على كتفيك، أولا، لترى فعلك، قبل أن تنقّر في عينيك أو فمك. وهناك أيادٍ تلتفّ عليك بحنوٍ قد يدنيك، أو بعنف قد يقصيك.

كانت أمي – التي أتخيلها في كل الأمكنة، حين يصيبني الفزع أو الألم – موجودة كما يجب. لذا، كان أول ما فعلتُه أني ركضت إليها، تذكرتُ مهدي قربها، وفرحت أنني علقة يربيها رحم أمي، ويمسّد الحليب والدفء علي.

عندما اقتربت من المدخل الذي أراها فيه كانت ثمة انعطافة، عبرتُها راكضة ودخلت في العمق، حتى رأيتها من جديد، فاقتربت راكضة ووصلت، إلا إني في اللحظة نفسها التي ينبهني فيها طائر وعقرب كانت يدها تلتفُّ على عنقي.

دهشت مذعورة: أمي!

فلم أرَ إلا المخالب والبكاء.

ففهمتُ أني استنفدت حاجة أحد هذه الأزرار، ودخلتُ الشوط الآخر من اللعب. الدوامة التي تتفتح هي زهرة كان قد خلقها ربٌّ الدوائر الملتفة على أنفسها بالممرات الضيقة.

عندما التفتُّ كان الغلام، صديقي، يتخفى. لمحته فعرفتُ لعبته. قلتُ أقابله بحركة مني، فانزويت داخل شق مماثل ولعبت دوره.

قلتُ أهيئ له تعابير شوقي. عندما سيتطلع إليّ، سيعرف كم اشتاقت روحي إلى حنانه، وسأروي له ما فعلوا بي، وأزيد أو أنقص، إنما سيفهم كيف أنه فارقني أكثر من اللازم.

كان ذلك اختباءة من اختباءاتي داخل الشق، وعندما أخرجت رأسي، كانت عينان جاحظتان تتحركان بخفة من محجريهما صوبي، لطالما أحببتهما وقبّلتُ نظراتهما إليّ.

كان يرميني بخفاش ويهرب، عرفت أني أنفقت أحد الاختيارات المخصصة، وانقضت فرصة زر آخر من أزرار اللعب.

اللعبة أن أصل، أم أن أهتدي، أو أضلّ؟ اللعبة لأتعلم؟ اللاعبون تفنّنوا. ربما كانت طبيعة ألعابهم أن يسلطوا في الشاشة عليَّ العفاريت والجنون. وعندما أعبر الطريق سيتحلق على رأسي الأولاد بقاماتهم الطويلة ولحاهم النابتة من الأقنعة والمسامير المنتهية بالجمر في أفواههم. ربما يدقّ أحدهم رأسي الذي زججته باللعبة بلا مظلة تحميه.

عندما أطلّ أمامي ردائي الجميل الذي ما حصلت عليه أبدا، كانت أياد منشطرة تقبض منه ما تقبض. أكل الأيدي لصوص مهرة؟ تساقطت درر ولآلئ وزمرد. انحدرتُ لألّمها. كانت الخرز تتناثر حوليَ كلما التفتُّ إلى جهة أتاني من الجهة الأخرى صوت تساقط وخرز. الممرّ الضيق مدوّر مثل هذه الخرزة البيضاء غير المثقوبة مثل عيني. عندما أمدّ يدي لأمسّها، تقطعني إبر عقارب قادمة من حولي مسرعة في التخلص ومنتهية إلى لدغي.

لا انسجام بين هذه الألوان، ولا خرزة تصل إلى الثقب الذي يتسع من قلبه، ذلك اللاعب الذي ربما لو أنّه معي هنا لاستطعت أو لعلي لا أستطيع لأنه هنا معي.

اللاعبون الآن تفننوا. ربما خرقوا اللعبة. ربما أخرجوا كل هذه الأطواق التي تضيّق الممرات على جسدي الذي يتحرك بائسا منهكا.

ما الذي تبقّى بعد من اللعبة، وكيف سننتهي؟

لقد تعبتُ من ألفة لا تمدّني بتعاليمها؟ وكيف تخلِّص التعاليم من هذه الطريق الموحشة؟

عندما انفتحت عيناي في النهاية، كان البياض يردها من كل صوب. كان الفضاء الشاسع ممتدا بلا علامة أو خط ماثل لعقلي الذي يشارك بلا مظلة تحميه من الاتساع في هذا الفضاء.

كنت بلا ذاكرة، ولا حب، ولا ألفة، ولا انسجام.

في الساحة الأخيرة من اللعب مفترشة الفضاء ومتروكة لكراهيتي ومللي واستيحاشي والنسيان.

وفي الجهات الأخرى من كل فضاء آخر، كان اللاعبون يتهيئون لأخذ مواقع والاستعداد، مثلما سيرقبهم عقل يشارك في اللعبة منكشفا بلا مظلة تحميه إلى الممرات الضيقة التي في أشواطها يتحمل كل واحد فشل صاحبه الذي سبقه، فيزداد عناء مضاعفا، ولا تتوقف اللعبة، ولا يكفّ اللاعبون عن الفشل.

قراءة لرواية «كم بدت السماء قريبة»

محمود أمين العالم

«تنبض ذاكرتي على رصيف شارع» – هكذا تبدأ رواية «كم بدت السماء قريبة» للكاتبة العراقية بتول الخضيري (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩). تكاد هذه العبارة الأولى توحي إلينا بأن الرواية هي سيرة ذاتية، تبدأ من مرحلة مبكرة من مراحل الطفولة، حيث إن الجمل التالية لها تكشف لنا عن يد طفلة يسحبها والدها بالقرب من سياج مدرسة على وشك أن تغيب فيها الطفلة، على حين يمضي هو في طريقه. وعندما تصل قراءتنا للرواية إلى نهايتها، نتيقن بالفعل من أنها سيرة ذاتية، أو بتعبير أكثر دقة، أن بنيتها الروائية هي بنية سيرة ذاتية، أساسا، نتابع أحداثها ونعايشها معايشة حميمة – طوال حركة المكان وامتداد الزمان – على لسان أو بضمير «المتكلم – المتكلمة» أو الراوية، وهي هذه الطفلة الصغيرة التي ستكبر مع الرواية، وتكبر الرواية بإفضاءاتها الذاتية المتصلة. ويدعم هذه القراءة للرواية، باعتبارها سيرة ذاتية، أننا نتعرف إلى أسماء أغلب شخصياتها باستثناء الراوية.

ومع ذلك، فإن الرواية – في قراءتي لها – أعمق من أن تكون مجرد سيرة ذاتية، برغم مظهر بنيتها الذي يؤكد ذلك. فهذه البنية الذاتية تكاد تكون مجرد الحامل أو الإطار الحاكي لمسيرة وقائع موضوعية أشمل وأعمق، وليست مجرد سيرة ذاتية على شمول هذه السيرة وعمقها. وليس الأمر تداخلا بنيويا بين الذاتي والموضوعي في الرواية، وهو أمر طبيعي ومنطقي، فليس ثمة انفصال بين الذات والموضوع في أية سيرة ذاتية، فهناك بالضرورة تداخل وتفاعل بينهما يزيل هذه الثنائية. فالجانب الذاتي في هذه الرواية يكاد يبرز باعتباره موضوعها الأساسي الحاكم لبنْيتها ودلالتها. على أن الجانب الموضوعي يكاد، بدوره، يبرز باعتباره موضوعها الأساسي الحاكم لبنيتها ودلالتها! ولهذا، نستشعر – من ناحية – طوال قراءتنا للرواية، أن بين هذين الجانبين توازيا

وتراصفا لا أكثر، وإن كنا نستشعر، من ناحية أخرى، تواشجا وتمازجا عميقا بينهما، يبلغ حدّ التكامل في تشكيل وحدة بنية الرواية ودلالتها، وفي شحذ فاعليتها الجمالية الفنية. وتدور هذه الوحدة حول محور أساسي هو محنة الشعب العراقي طوال الحرب العراقية – الإيرانية، والحرب التالية لها المسماة من جانب «أم المعارك»، ومن جانب آخر «عاصفة الصحراء»! وفي قلب هذا المحور، تنبض رؤية إنسانية بالغة العمق والخصوصية تكاد تكون محورا أساسيا مضادا، إلا إنها رؤية محاصرة مقهورة طوال أحداث الرواية، تتشكل من مفردات محددة هي الحب والحرية والفن والإبداع وإرادة المقاومة والتجاوز. ولعل عنوان الرواية يكون تعبيرا رمزيا عنها، بل لعل لغة الرواية السردية الغنية الملتبسة بين الرصد التسجيلي والتفصيلي، من ناحية، والإفضاء الباطني الذاتي المأساوي والحواري، أحيانا، من ناحية أخرى– تعكس هذه الثنائية المضادة.

ولهذا، وبرغم أن الرواية تتشكل من عشرة فصول محددة، فإن قراءتي لها تعيد تشكيلها في ثلاثة أبواب كبيرة تمتد خلالها هذه الفصول العشرة. وأكاد أتبين في كل باب من هذه الأبواب ثنائية أو مفارقة بين طرفين أو أكثر، تختلف باختلاف كل باب وتميزه. ومن هذه الثنائيات والمفارقات، تتشكل حركة الرواية في نموها المأساوي والإبداعي، كما سنجتهد في تبيان ذلك في الفقرات التالية.

يتكون الباب الأول – في قراءتي – من ثلاثة فصول. على أننا منذ السطور الأولى للفصل الأول نتبين خلافا بين والد الطفلة ووالدتها. وبرغم التفاصيل المتنوعة لهذا الخلاف، فإن جوهره – كما سنتبين طوال الفصول الأولى للرواية – ينبع من اختلاف انتسابهما القومي، فهي إنجليزية وهو عراقي. ولهذا، يكاد هذا الاختلاف يرمز برهافة إلى اختلاف أكبر وأعمق هو التمايز الحضاري بين الشرق والغرب، في مختلف جوانب الحياة ورؤاها السلوكية والقيمية، وينعكس هذا في منهج تربية طفلتهما، أو في تذوق الطعام، بل يرتفع إلى حرية الزوجة في أن يكون لها عشيق من جنسيتها الإنجليزية، متزوج هو الآخر، هو دافيد أو داود، كما يحب الوالد أن يناديه، بما يتضمن إيحاء بيهوديته ويعمق الاختلاف! وبرغم أن هذا الاختلاف أو الخلاف يبرز أساسا، في الفصول الأولى للرواية، بين الزوجين، إلا إننا سوف نلمح هذا الجوهر الحضاري – إن صحّ التعبير – للاختلاف، بعد ذلك، متجسدا في سلوك «الغرب» إزاء «الشرق»، في بعض الأحداث الكبرى للرواية – وبخاصة حرب الخليج.

وتبرز الفصول الثلاثة برهافة، أيضا، خلافا آخر يغلب عليه الطابع الطبقي الخالص وليس القومي أو الحضاري. ويتمثل ذلك في الانتقاد أو الرفض إلى حدّ الاشمئزاز للعلاقة الحميمة التي تنمو بين الفتاة الصغيرة وفتاة أخرى في سنها، من أسرة فقيرة تسكن في كوخ قريب. لكن الفتاة/ الابنة/ الراوية تجد سعادتها وإحساسها بالحرية والانطلاق في صداقتها لهذه الفتاة، ولأسرتها الفقيرة. وعندما ارتفعت بها، ذات مرة، الأرجوحة البدائية البسيطة التي صنعتها لها صديقتها الفقيرة «استنشقت خط الأفق. . وعندها. . . كم بدت السماء قريبة!!». وهكذا، تصبح الصداقة والأفق، والسماء، منذ بداية الرواية، والشمس، بعد ذلك، رمزا للحرية والانطلاق والدفء الإنساني المشترك في مواجهة التمايز والاستعلاء والتسلط، سواء كان عائليا أو طبقيا أو عدوانا خارجيا. وسيبرز هذا الرمز بشكل أكثر عمقا وجهارة في عمل فني رائع تقدمه الرواية في ختام بابها الثاني.

وفي داخل علاقة المفارقة بين الزوج والزوجة، من ناحية، وابنتهما، من ناحية ثانية، إزاء علاقتها بالفتاة الفقيرة، تنبثق علاقة أخرى حميمة بين الأب وابنته. فالأب تاجر مطيّبات وعطور، وهو يجتهد في تسمية المطيّبات والعطور تسميات شاعرية متميزة، فيدعو ابنته إلى مشاركته في لعبة أو فن التسمية هذه. وعلى سبيل المثال، وما أكثر وأجمل الأمثلة الأخرى، يشير الأب إلى لون ويسأل الراوية عن اسمه المقترح، فتقول «أزرق فاتح»، فيقول لها: لا. . . لماذا لا نسميه رذاذ البحر، أو الثلج الجاف، أو ضبابا من فضة؟! وهكذا تتحول لعبة التسمية اللونية هذه إلى لعبة إبداع «تتلون أيامنا»، بها، على حد تعبير الفتاة/ الراوية. وتكاد تعبر الرواية بهذا عن لحظة اقتراب أخرى من السماء! وينتهي الباب الأول بفصوله الثلاثة نهاية مأساوية مفاجئة – يقول لها أبوها: يجب أن تعرفي شيئا. . . فتجيب مباشرة في صيغة سؤال، كأنما تتوقع هذا الذي يحدثها عنه: تطلقتم؟! فيجيبها: لا. . . الحرب قامت مع إيران.

وهكذا، ينفتح أمامنا الباب الثاني بفصليه الرابع والخامس على ضراوة الحرب العراقية- الإيرانية، لننتقل من ثنائية ومفارقة الباب الأول إلى ثنائية ومفارقة أكثر حدة وشراسة، ولكن، مع محاولة إنسانية أخرى للاقتراب من السماء، أيضا، من الشمس، برغم هذه الثنائية الشرسة.

ينتقل بنا الفصل الرابع مباشرة إلى ساحة المعركة: أناشيد الحرب، وقعقعة أسلحة الدمار والبيانات العسكرية، وضرب المدن الآهلة بالسكان بالمدفعيات الثقيلة، وسقوط الجثث من الجانبين، وتدهور الأوضاع المعيشية وإعلان لائحة التسعيرات، وانقطاع الماء والكهرباء والتلفزيون، وإعلان خطة اقتصادية جديدة في مواجهة الأوضاع المتردية، مع إعلان لافتة بقائمة أسماء الشهداء، والإشارة إلى إقامة قاعدة عسكرية مضادة للطيران وسط حدائق متنزهات الزوراء عند «نافورة العشاق»! إلى غير ذلك من متعلقات ونتائج هذا الصراع العراقي- الإيراني الذي تحول إلى حرب عدوانية شاملة. غير إن الرواية لا تتابع أخبار الحرب ومواجعها في متنها السردي المروي، وإنما يتم ذلك - في أغلب الأحيان - في صورة تقريرية تسجيلية، عن طريق البيانات والقرارات والتصريحات الرسمية والنشرات الإعلامية. وما أكثر ما يتم ذلك بالتقاطع مع مسيرة السرد الحكائي المروي بشكل مفاجئ حاد! ولهذا، فالرواية أو الراوية لا تعبر في سردها عن تحيز لجانب ضد آخر بشكل مباشر في هذه الحرب، بل نستشعر الرفض الضمني لها بآثار ونتائج ما تسجله بياناتها ووقائعها المذاعة أو المروية، وإن كنا نستشعر هذا الرفض - أحيانا - في صورة سخرية غير مباشرة، لكنها شديدة المرارة تنبع من مجرد سرد بعض الوقائع. ويتمثل ذلك في أنه مع تزايد عدد القتلى تبدأ الإذاعة في الإعلان عن قرار بامتناع الصيدليات عن بيع حبوب منع الحمل، وعن بدء حملة لتشجيع الزواج والإنجاب المبكر، وصرف إعانات مادية للزواج، وإقامة تدريب للجيش الشعبي للبنات، إلى غير ذلك. وهكذا، يصبح الحب والزواج والإنجاب بهدف تغذية الحرب!

وفي قلب هذه العسكرة الشاملة للحياة، تنبض قيمة أخرى مضادة هي الفن الذي يتجسد في مدرسة للرقص المسرحي، تقوم عليها وتتحمس لها «المدام»، وهي أستاذة عراقية في فن الرقص المسرحي آتية من الاتحاد السوفيتي، بعد إتمام دراستها الفنية. إنها ترى أن الفن هو العمل من أجل المستقبل، وهو النقيض الموضوعي للحرب والدمار والموت. وبهذا، يصبح تدريب العضلات للرقص - على حد تعبيرها - في مواجهة التدريب على الطلقات للحرب! وتلتقي «المدام» بالراوية التي التحقت بالمدرسة، وتعدها بأنها ستجعل منها فراشة، ولهذا، تكثف تدريبها، وتتيح لها التعرف إلى فنان نحّات، تزوره فتفاجئها منحوتاته البالغة التشوه والتناقض في تكوينها، تقول له: «المنحوتات تعبر عن ما يدور في الخارج»، يرد «نعم... والخارج يقتل الداخل». إنه فنان يعمل تحت القصف بالطلب!! يذهب كل يوم إلى المعسكر ينحت مناضد عسكرية وجبسية ومن قطع الكرتون، أي يوظف فنه للحرب دون أن يكون له حق السؤال. وتفضي به خدمته، أخيرا، إلى أن تكون مهمته نقل بقايا جثث القتلى إلى ذويهم! يقوم بينهما حب صامت وأول لقاء جنسي لها، وعنه تعبر الراوية تعبيرا بالغ العذوبة، تتحسس بعده بأصابعها ما تسميه «حُمرة المغيب»، دون أن تبكي «مثلما يحدث في الأفلام المصرية»! على حد قولها.

يتخلل هذا كله أخبار المعارك والبلاغات العسكرية، ويموت والدها، وتصاب أمها بسرطان الثدي وتفقد أحد ثدييْها، ثم تتوقف الحرب، وأخيرا، يتاح السفر إلى الخارج. كان عليها أن تختار بين أن تبقى مع الحب، مع فنانها في وطنها، أو تسافر مع أمها المريضة إلى إنجلترا! وتختار السفر، الواجب. وقبل أن ينزل الستار على الفصل الخامس وهو الأخير في الباب الثاني، حسب تقسيمنا، نشاهد، بالسرد الحكائي، مسرحية راقصة كأنها تعبر عن الرؤية الإنسانية العامة الرفيعة للرواية، تقوم على حرب ضارية بين فريقين يدعي كل منهما ملكية الشمس! وتنتهي المسرحية عندما تنبثق من وسط خشبة المسرح حورية ماء، إنها «المدام»، كأنها أسطورة، راحت ترقص سؤالا إنسانيا كبيرا: «النور نعمة للجميع وليس ملكا لأحد، تركة لا يجب القتال لاقتسامها»، «ماذا لو رحلت الشمس؟ سنموت... ولا يمكن أن نجمع في محيطنا أفقا جميلا». وهكذا، يعود الأفق، وتعود السماء، وتعود الشمس في نهاية الباب الثاني، رمزا لإنسانية الإنسان ودفء علاقاته التي يجب أن نحرص عليها، في مواجهة الحرب والدمار. ونعرف من الراوية أن «المدام» هي ابنة لأم عراقية وأب إيراني، تمّ الطلاق بينهما منذ فترة بعيدة. عاد الزوج إلى إيران آخذا معه شقيقا للمدام، وبقيت هي مع أمها. من يدري ربما يحارب شقيقها في المعسكر الإيراني! أو أن «المدام» كانت ترقص لشقيقها الإيراني؟!

الباب الثالث وهو الأخير، حسب تقسيمنا للرواية، يجيء أكثر من البابين السابقين من حيث عدد فصوله التي تمتد من الفصل السادس حتى العاشر، إلا إنه يُعدّ أقل الفصول حجما – نسبيا – وإن كان أشدها قسوة ومأساوية.

يبدأ الباب الثالث بالخريف في لندن، وينتهي بالخريف، أيضا! ونقضي أغلب زمنه في مستشفى، حيث تواصل الأم فحوصاتها الطبية تحت رعاية طبيب مختص في سرطان الثدي. لكننا نتحرك مع الراوية خارج المستشفى، وينفتح أمامنا «الغرب» بشوارعه ومقاهيه وساكنيه المتنوعّي الجنسية، فضلا عن إعلانات الإغراءات الجنسية ومراكز الهامبورجر والكوكاكولا، وإصدارات سوق البورصة، والمجلات الفاضحة، إلى غير ذلك من التفاصيل البالغة التنوع والتناقض في شارع الغرب، في عاصمة كبرى من عواصمه. وفي صباح يوم من أيام إقامتها الأولى، تقرأ «الراوية» وهي جالسة في مقهى أن «الأمم المتحدة تدين دخول العراق إلى الكويت». والملاحظ أن الرواية اكتفت بهذه الإشارة العابرة المحايدة – على الأقل – للمرحلة الأولى من الحرب، ولم تتوقف نهائيا عند دلالتها ومسئوليتها عن ما حدث بعد ذلك من حرب إبادة ضد الشعب العراقي، ركزت عليها تركيزا كبيرا، على خلاف موقفها المتوازن من الحرب العراقية – الإيرانية.

في اليوم التالي، تعرف أن الأمم المتحدة «تعلن عن منع التعامل مع العراق وتؤكد أنها سترسل قواتها البرية إلى منطقة الخليج». وما يلبث أن يفرض الحصار الاقتصادي وتأخذ الجيوش والطائرات تتحرك إلى هذه المنطقة – «القطاعات العسكرية المرسلة إلى المنطقة بلغت أربعمئة ألف جندي من دول الحلفاء تحضيرا للهجوم الافتتاحي»، «الكونجرس يعطي الرئيس الأمريكي صلاحية إعلان الحرب»، «مظاهرات الشباب في ساحة «الطرف الأغر» تصرخ بهتافات السلام ووقف إطلاق النار وقتل البشر الأبرياء وتجويع الأطفال». ويزداد الموقف عنفا. «الغارة الجوية الأولى على بغداد. خارطة العراق تحت القصف الناري تشبه شجرة عيد ميلاد مضاءة». . . القصف السجادي، بمعنى أن «متفجراته تسقط فتدمر أكبر مساحة ممكنة من ساحة العمليات»، «القذائف بلغت حتى الآن أربعين ألف طن من مواد متفجرة»، «الجحيم علبة انفتح غطاؤها»، الطيارون الأمريكان يعودون إلى قواعدهم سالمين في السعودية». . . الحديث عن استخدام السلاح الكيماوي.

وفي المستشفى، يتكلم الأطباء عن خشية استفحال الخلايا المريضة وانتشارها. خلايا السرطان تنتقل من ثدي إلى آخر ثم إلى عظام أسفل الظهر. ويتم اتخاذ قرار باستخدام العلاج الكيماوي. السلاح الكيماوي في جانب والعلاج الكيماوي في جانب آخر! الثنائيات الضدّية تواصل رسم خريطة التاريخ الإنساني!!

رسالة من «الوطن». مفردة «الوطن» تبرز في هذه الفصول الأخيرة. «لم نعُد نملك من مظاهر الحضارة غير ركوب الدراجات»، «شجرة زهر الكاردينيا في شارع الجادرية التي كنا نسرق منها حصتنا كل ربيع، نائمة تحت الأنقاض»، «بعض الناس ينامون وفمهم مفتوح عن عمد. يخافون الموت المفاجئ إثر انفجار داخلي بسبب انفجار خارجي»!! «القنابل تهطل فوق رءوسنا». . . إلخ.

وفي خضّم ما يحدث هناك في «الوطن»، وما يحدث هنا في المستشفى، تقع «الراوية» في قصة حب مع «أرنو» الأوروبي الإفريقي. يغيب عنها بضعة أشهر تكتشف فيها أنها حامل. تتحمل وحدها مسئولية إجهاض حملها. يأتي أرنو أخيرا، متنصلا، معتذرا، لأنه لم يخبرها بأنه متزوج! قصة حب رديئة مثله. يفترقان أغرابا – كما تقول – وهي تتركه لتسرع إلى أمها التي تحتضر. يطول عذاب أمها معنويا وجسديا «هل تخفّف زيادة نسبة المورفين ألم النهايات»؟ وأخيرا، أطبقت أجفانها المرهقة! وأخبار «الوطن» أصابها – هي الأخرى– تعتيم في إذاعات العالم. مكالمة هاتفية من «الوطن»، من داخل الحصار «نحن نأكل (. . .) بالإبرة، لا الإبرة تشيل ولا (. . .) يخلص». نتركها في السطر الأخير من الرواية، تنتظر الباص رقم ٢٧. الذاهب إلى أين؟ إلى عملها؟ إلى رتابة حياتها المتغرّبة؟ إلى الغوص في محنة «الوطن» التي تتفاقم؟

هذه، باختصار وتركيز شديدين، بعض التضاريس الخارجية الأساسية لهذه الرواية/ السيرة الذاتية المتميزة حقا برؤيتها الإنسانية الرفيعة، وحساسيتها المرهفة، وبنيتها الفنية المتسقة، برغم، وبفضل، ما تزخر به من أصوات متعددة سردية وتقريرية

وحوارية، وثنائيات ومفارقات ضدية، وتناقضات حدثية وقيمية وموقفية، ورؤى تفصيلية مغرقة في تفاصيلها، وتشابك حميم بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي دون طمس لأحدهما، ومستويات مختلفة من المعاني الظاهرة والباطنة والمباشرة وغير المباشرة، التقريرية والانطباعية، فضلا عن أفقها الإنساني المفتوح، وإدراكها العميق لمعنى الفن، لا بالحديث أو الدفاع عنه بل بتوظيفه وإبداعه، إلى غير ذلك.

قد لا يسمح المجال بتفصيل، ولهذا، حسبي الإشارة المجزأة إلى صفتين حاكمتين في طبيعة السرد الفني لهذه الرواية. الصفة الأولى هي السرد بالجمل السريعة المتلاحقة. والثانية هي أنسنة الأشياء. وأكتفي بنموذج على الصفة الأولى، برغم أنها الصفة السائدة في الرواية، نفتح أية صفحة فتواجهنا: نقرأ، مثلا، في صفحة ٦٩ «ازدادت وحدتي ذلك المساء. توقف أزيز المروحة وحل الحر عندي والظلام. أشعلت شمعة. ألهاني تأملها عن الدراسة. أغلقت الكتاب بضجر. سقطت بعوضة في قدح الشاي بقرب الشمعة»، وهكذا. وتقدم الراوية، على هذا النحو، في صفحة ١٥٨ من الرواية، لوحة تفصيلية لمدينة لندن شديدة الدلالة.

أما الصفة الثانية، وهي أنسنة الأشياء، فأقصد بها إرجاع الرواية بعض الفاعليات إلى الأشياء نفسها لا إلى الإنسان، دون إلغاء دور الإنسان، لإبراز عمق العلاقة بينهما، في ما يبدو! وما أكثر الأمثلة التي تستخدم فيها الرواية فعل «الابتلاع» للتعبير عن ذلك: مثل «المقاهي تبتلع الطبقة العاملة»، و«ممر المشاة تبتلعه السماء»، ومثل «يبلعني دهليز مضبّب»، ومثل «ابتلع مشيته الهادئة قسم الأمراض»، ومثل «ابتلعتها حافتا التلفزيون». وما أكثر الأمثلة والتعابير الأخرى الدالة على هذه الصفة السردية. ولا يسمح المجال بتحليلها، فضلا عن تحليل صفات أخرى تتسم بها هذه الرواية المتميزة.

هذه هي قراءتي المجتزأة لرواية «كم بدت السماء قريبة» للكاتبة الأديبة بتول الخضيري التي تكشف لنا عن عمل روائي متميز، وكاتبة مبدعة ذات رؤية قومية وإنسانية رفيعة نبيلة، تمتلك أدوات الكتابة الروائية، وبخاصة أنها روايتها الأولى.

إن هذه الرواية إضافة جادة لا إلى الرواية العراقية ذات التاريخ الأدبي العريق فحسب بل إلى الرواية العربية المعاصرة عامة، فضلا عن أن لها فضل التعبير عن الجرح العراقي النازف في جسدنا العربي، بدرجة عالية نسبيا من الإبداع والموضوعية.

«الغلامة» وبنية ترجيعات القهر الذي يعصف بالجميع

د. صبري حافظ

أول ما يميز رواية الكاتبة العراقية القديرة عالية ممدوح الجديدة «الغلامة» (دار الساقي/ بيروت/ ٢٠٠٠)، هو بنيتها السردية المتميزة والمراوغة في آن، إلى الحد الذي يخفق معه القارئ المتعجل في استبصار ما تنطوي عليه من تراكب وتناغم وتعقيد.

وبنية الرواية المراوغة تلك هي جزء جوهري من رؤيتها ومن عوالم المعنى الثرية فيها، لأن لكل بنية روائية محتواها الذي لابد من أن يتناغم مع الرؤية الكلية للعمل ويثريها، في أي عمل أدبي جيد. وهي بنية أودّ أن أدعوها ببنية الترجيعات السردية، إذ تجعل من مختلف شخصيات الرواية الأساسية محاور السرد في فصولها المختلفة، وتخلق بين هذه المحاور المتجاورة نوعا من الجدل الروائي الذي تتخلق، من خلال تناقضاته وتكراراته، رؤى الرواية وعالمها السردي الدقيق.

وبنية الترجيعات السردية تلك بنية حداثية بأي معيار من المعايير، لأنها تتطلب من القارئ قدرا أكبر من التركيز والفعالية، فهي بنية لا تقدم إليه الأحداث في تتابعها الزمني، وإنما تستقطب قدرا كبيرا منها حول كل شخصية، وتترك الشخصيات الأخرى تقدم إلينا ترجيعات أخرى لهذه الأحداث، ولأحداث مختلفة، مصاحبة أو مفارقة أو مكملة لها، تتيح لنا إعادة اكتشاف ما سبق أن تعرفنا إليه أو إعادة تأويله. فالحدث ما إن تخبرنا به شخصية حتى يكتسب بعدا آخر في علاقته بغيره من الأحداث أو الجزئيات التي تطرحها علينا الشخصيات الأخرى، بطريقة ترجّع فيها بعض الأحداث البعض الآخر. ويقع على القارئ مع هذا كله عبء إعادة ترتيب تداعيات الأحداث، وملء الفجوات التي وجدها مع شخصية من الشخصيات، من خلال ما تقدمه الشخصيات الأخرى، حتى يتخلق من هذا التجميع والترتيب شهادة الرواية الجسورة والموجعة معا على كل ما دار في العراق، في أهم فترة من فترات تاريخه الحديث التي تمتد من اغتيال الملك غازي وتستمر مجازيا حتى اليوم.

لكن بنية الترجيعات السردية في هذه الرواية ليست رديف تعدد الأصوات، فالرواية لا تتيح للشخصيات المختلفة أن تسيطر على منظور السرد، حتى حينما يتعلق الأمر بالفصل الذي تخصصه لتلك الشخصية، لأن البطلة «صبيحة صبوحة صباح وصال وئام سهاد» هي التي تستأثر بجل المنظور السردي، لا تنازعها فيه أي من الشخصيات الأخرى، اللهم إلا الكاتبة المضمرة نفسها التي

تستهل الرواية بهذا الدعاء الذي يوشك أن يكون مكتوبا هو الآخر على لسان البطلة «صبيحة صبوحة صباح وصال وئام سهاد»، لأن النص مكتوب بضمير المتكلم، وكل ما فيه يوشك أن يكون مرئيا من خلال عيون البطلة، أو مما أتيح لها رؤيته أو معرفته من حيوات الآخرين، واهتمامها الشديد بشخصياتهم.

وهي بنية منولوج داخلي بالغ التنظيم إلى حد الافتقار إلى التلقائية دون الافتقار إلى الشاعرية، يضع كل شخصية أو كل مرحلة داخل فصل محدد، غير عابئ بقوانين التداعي الحر والتدفق غير المنظم التي تحكم منطق المنولوج الداخلي. لكن أجمل ما في هذه الرواية لحظات انفلات المنولوج من هذا التنظيم القسري الذي يؤطره، ودخول مراحل وشخصيات أخرى على تلك التي يخصص لها الفصل نفسه، مما يرهف من جدل الترجيعات السردية في الرواية كلها.

ووراء هذه البنية التي تستقطب للوهلة الأولى اهتمام القارئ بالشخصيات، وتدفع بعض المتابعين للمشهد الثقافي والسياسي العراقي إلى الدخول في لعبة التعرف إلى الشخصيات الحقيقية، وراء تلك الشخصيات الروائية المختلفة – تكمن البنية السردية المضمرة في هذه الرواية التي تتطلب من القارئ جهدا إضافيا لاستكشاف صيرورتها الخطية التي تحكي لنا، بتسلسل تاريخي، ما دار في العراق منذ اغتيال الملك غازي حتى تخثر تجربة الجبهة الوطنية عام ١٩٧٧. وإن كان مدار تركيز السرد ينحصر في السنوات الأربع عشرة التي تمتد منذ أحداث عام ١٩٦٣ والإطاحة بالشيوعيين والتنكيل بهم، وتستمر حتى عام ١٩٧٧. وإذا كانت المعرفة بالكثير مما دار في تاريخ العراق الحديث ضرورية لاكتشاف مختلف طبقات المعنى الثاوية في هذه الرواية، فإن استخدام بنية الترجيعات السردية للشخصيات، كمحاور أساسية للسرد، جعلت تجربة الرواية المحورية ليست هي التجربة السياسية التي تسرد لنا الرواية، بطريقة مضمرة، الكثير من جوانبها، ولكنها التجربة الإنسانية التي عاشتها الشخصيات الرئيسية في الرواية، والشخصيات النسائية منها، على وجه التحديد، أو، بالأحرى، عبء هذا التاريخ الفادح الذي يصنعه الرجال على أرواح النساء، وآثاره الموجعة على أجسادهم وحيواتهم. فهي رواية كتبتها امرأة بمنطق كتابة المرأة الجديدة التي تحرص على كتابة اختلافها داخل النص، فكريا وفنيا، على السواء، وجعلت الشخصية الساردة فيها، والبطلة الأساسية التي تسيطر على منظور القص امرأة، وأهم شخصيات الرواية كلهن من النساء، لا من الجيل الذي يستأثر باهتمام السرد فحسب – جيل صبيحة وهدى وهجران وخلود ونجاة وساهرة وتود، حتى ريحانة اليافعة التي تزوجها الأب وهي في عمر ابنته – وإنما من الجيلين السابقين: جيل الجدة وفيقة والخالة فخرية، وجيل الأمهات نوعة وفريدة وعباسة وكرجية الغجرية، حتى اللواتي لا نعرف حقيقة الجيل الذي ينتمين إليه، من النساء المعتقلات: الشاعرة عفراء، والدكتورة أنيسة، والطبيبة هيفاء، والمناضلة لمياء.

أما الرجال، وفي الرواية الكثير منهم، فإنهم يقومون بكل الأدوار الرجالية، من دور الأب إلى دور الزوج والعاشق ودور المنظّر السياسي والناقد والكاتب، وغير ذلك من أدوار صناعة الفكر السياسي منه والأدبي، في حين تنشغل النساء بصناعة الحياة، وتخليصها من آثار القهر السياسي الذي يمارسه الرجل لا على النساء وحدهن، بل على الرجال من المعارضين للنظام السياسي الذي يسيطر عليه البعض، ويروح الآخرون ضحية له. ومن أطراف تصورات هؤلاء الرجال للنساء، هو تصور السياسي للمعارضين له من الرجال كنساء، إذ يتصورهم كنساء، حتى يسهل عليه نفسيا ومنطقيا البطش بهم. ففي أحد المقاطع الدالة في الرواية، لمّا سئل أحد رؤساء الشرطة السابقين، في مكان ما من الكرة الأرضية، ترى كيف ستفرق بين القتلة وغيرهم؟ أعنى كيف يبدو المجرم؟ أجاب بدون تردد فتاة، يبدو كفتاة، أعني يبدون كفتيات معاقات، قبل أن يتحولوا إلى مجرمين يبدون ناعمين رقيقين مملوئين بالأسرار والشفافية وجوههم تجمع بين الرجولة والأنوثة، حتى لو كان أحدهم يتحلى بشاربين شهيرين، وأصابع يد ناعمة، وصوت نحيل حامل رنين الأنوثة، إنهم لم يكونوا ذكورا فحسب، وإنما نساء، أيضا (ص٢). وهي عبارة دالّة على طبيعة استقطاب القهر في هذه الرواية، حيث تحصل النساء منه على نصيب الأسد، أو ينصب عليهن القدر الأكبر من القهر الفعلي منه والرمزي والمعنوي، على السواء، ويقوم الرجال فيه بنصيب الأسد من ممارسة التعذيب السياسي المباشر إلى ممارسة صيغ القهر الرمزي والمعنوي المختلفة. والعبارة هذه تجعل الأنوثة ذاتها تهمة أو قيمة كيفية مدانة، وإذا كانت هذه الإدانة جاءت مرة واحدة بهذه الصيغة المباشرة، فإنها وردت عشرات المرات بصيغ عديدة غير مباشرة.

وقد استطاعت الرواية أن تخلق بنية سردية توشك أن تكون هي قضيتها الأساسية التي تطرحها على قارئها، لأن طبيعة البنية المراوغة التي قد تشتت انتباه القارئ، للوهلة الأولى، هي التجلي البنيوي للطبيعة المراوغة لآليات القهر التي تغلغلت في كل تفاصيل الحياة التي عاشتها هذه الشخصيات، وأحالتها جميعا إلى أدوات فاعلة، بوعي أو بغير وعي، في عملية التدمير، تدمير الذات وتدمير الآخرين، على حد سواء. فليس من الطبيعي أن نتوقع بنية منطقية تتطور بالأحداث في تعاقبها التاريخي، إذا ما كانت آليات القهر التي تسعى هذه البنية إلى تجسيدها لا تتخلق بشكل منطقي، ناهيك عن التطور حسب قواعد التعاقب التاريخي أو التسلسل السببي. وقد كشفت الرواية منذ بدايتها الباكرة عن هذه الطبيعة المراوغة لعملية القهر، من خلال المفارقة الصارخة بين الأقوال والأفعال في تصرف القوة التي جاءت للقبض على البطلة، وشغف قائدها بالعطور التي أخذ يرشها على كل شيء، ويغرق نفسه كلية بها، كأنه يريد أن يغطي رائحة القهر الكريهة بهذه العطور، دون وعي منه بما ينطوي عليه سلوكه من مفارقات. وواصلت الرواية تعرية هذه المفارقات في كل فصلها السردي الأول «المخلفات»، لأن الفصل الأول ليس سرديا بقدر ما هو استهلالي تمهيدي، وهو أمر سنعود إليه بعد قليل.

لهذا كله، كان من الضروري أن ننطلق من طبيعة هذه البنية الروائية ذاتها، لاكتشاف حقيقة العالم الذي تفتح هذه الرواية أعيننا على ما يدور فيه، وعلى مفارقاته المؤسية. فبنية هذه الرواية المتميزة هي المفتاح الرئيسي الذي يفضّ مغاليق العمل، ويساهم في حل مختلف شفراته. ومن دون البداية من هذه البنية ذاتها، ستغيب عنّا عدة مستويات من المعنى في هذه الرواية الشيقة، لأن الوعي بأن بنية الرواية الزمنية، بالرغم من عدم التزامها بالتعاقب الزمني، تبدأ في الربيع، ربيع عام ١٩٦٣، وهو أقسى الفصول، كما يذكرنا إليوت في «الأرض الخراب»، وتنتهي في الخريف، خريف عام ١٩٧٧، وقد أصبح كل شيء خرابا بالفعل – هو نوع من تجسيد الطبيعة الدائرية والتكرارية لعملية القهر ذاتها، ورسم التكرارية المضمرة لحركية القهر وممارساته. وبدون الوعي بالجدل المستمر بين الشخصيات الحاضرة والشخصية الغائبة، بدر، حب صبيحة الحقيقي والوحيد، يفوتنا الكثير من دلالات الجدل بين تاريخ العراق الحديث السابق مباشرة على أحداث البداية، وبنية الرواية الرمزية المضمرة في هذا كله، وبدون الوعي بأن هناك تناظرا بين عدد فصول الرواية (١٤ فصلا) وعدد السنوات الأساسية بالنسبة إلى تغطيتها الزمنية (١٤ سنة)، سيغيب عنّا الفروق الأساسية بين تعامل الرواية مع هذه السنوات الأربع عشرة، وتعاملها مع بقية الأبعاد الزمنية لعالمها الروائي التي تمتد من فترة حكم الملك غازي (١٩٣٣– ١٩٣٩) التي انتهت باغتياله عام ١٩٣٩، حتى انتهاء الرواية باغتيال آخر، سواء أكان اغتيالا فعليا أم معنويا، بعد ما يقرب من أربعين عاما على الاغتيال الأول، هو اغتيال صبيحة، والعثور على جثتها في نهر دجلة عام ١٩٧٧.

فالزمن الذي تغطيه الرواية يمتد لأكثر من أربعين عاما، منذ شباب جيل الآباء السيد خلف صالح عبد النبي تاجر الذهب الكبير، والد صبيحة، والسيد جميل أحمد المعروف الشرطي منذ العهد الملكي، والد عادل وهدى، الذي عاش شبابه في ثلاثينات القرن وأربعيناته، حتى اكتهال جيل الأبناء، أو، بالأحرى، البنات اللواتي انتهكت كهولتهن، وهرست الظروف القاسية أرواحهن في سبعينات القرن، حتى تضوع منها عبق الجلد الإنساني الذي لا تمنعه الإخفاقات المتتالية من مواصلة الحلم والأمل.

تبدأ الرواية – كما قلت – في ربيع عام ١٩٦٣، فجر التاسع من شباط (فبراير)، حيث عمليات الاعتقال والتنكيل بالشيوعيين وأحداث النادي الأوليمبي الشهيرة، وتنتهي في خريف عام ١٩٧٧. تبدأ بالاعتقال والتعذيب والاغتصاب، وتنتهي – فهذه هي النهاية الطبيعية التي يؤدي إليها الاعتقال والتعذيب والاغتصاب – بالموت غيلة، أو القتل، أو حتى الانتحار غرقا في نهر دجلة. تبدأ بالبحث عن الحقيقة، «برغم أن الحشود لا تشعر أبدا بالتشوّف إلى الحقيقة» (ص١)، وتنتهي بدون الاهتداء اليقيني إلى أية حقيقة، وترديد الجملة نفسها بعد أكثر من مئتي صفحة «الحشود لا تشعر أبدا بالتشوّف إلى الحقيقة» (ص٢٣). وبين ذكر هذه الجملة في البداية وهي تتردد في عقل صبيحة إزاء استجواب المحقق المراوغ، وذكرها في النهاية في عقل الناقد المولع هو الآخر بالبحث عن الحقيقة – يتخلق عالم ثري من الرؤى والمشاعر والكشوف والدلالات، ويدور جدل خصب بين البنية الروائية المعلنة، بنية الترجيعات السردية، والبنية المضمرة، بنية التتابع التاريخي العراقي في السنوات الأربع عشرة التي تقدم الرواية عبئها على هذه الشخصيات وما فعلته فيها، وعلى وجه الخصوص، فيهن.

وحتى يمكننا معرفة المسار الدامي الذي بدأ بالاعتقال وانتهى بالدمار، تقدم الرواية بانوراما حيّة للواقع العراقي في العصر الحديث، منذ العهد الملكي حتى عام ١٩٧٧، وهي بانوراما تتسم بالحيوية والتوهج، حيث يتخلق التاريخ والواقع اليومي معا يدا بيد، في سرد يحكي ما دار، بالدرجة الأولى، لامرأتين هما صبيحة وهدى، وعائلتين هما عائلة السيد خلف صالح عبد النبي تاجر الذهب الكبير، والد صبيحة، وعديل التاجر الأكبر والد شاكر، وعائلة السيد جميل أحمد المعروف رجل الأمن منذ العهد الملكي، والد عادل وهدى. ويدور القص بين مكانين أساسيين هما السماوة الواقعة على جرف الفرات، وحي الصليخ بالأعظمية في بغداد. لكن ما يحتل المكان المحوري في تجسيد الرواية لهذه البانوراما العراقية المترعة بالتوهج والحيوية، هو عالم البيت الداخلي، حيث تسيطر الخالة فخرية والأم نوعة على عالم البيت، وهو العالم الذي نتعرف فيه إلى حقيقة علاقة الصداقة التي تربط الرجلين والأسرتين معا، وإلى العلاقة التي تربط السيد خلف بأبي بدر الذي يملك دكان أقمشة بجوار دكان أبي صبيحة في الخان الكبير، وجلسات العرق الرخية بين السيدين خلف وجميل التي يتسلل إليها العالم الخارجي، من خلال الحوار الطليق بفعل سمادير العرق الشجية، وإلى العلاقة بين أبناء هاتين العائلتين وجيرانهما: الحب الأول بين صبيحة وبدر، وهيام شاكر ابن خالتها فخرية بها، وعلاقتها الحميمة بصديقتها هدى، وهي حميمية لا تخلو من الشغف الحسي، والعلاقة الغريبة التي توشك أن تخترق حجاب المحرمات بين الأم نوعة وابنتها صبيحة، وشغف الأب الحسي بالنساء الذي تبدو فيه المرأة، من خلال علاقة الأب الرعوية البدوية بها، باعتبارها التعبير الحسي الملموس عن نجاحاته الاقتصادية، أقرب ما تكون إلى جواري عصر الحريم المدللات، فقد وضعت عالية ممدوح يدها على جوهر عراقي، أو، بالأحرى، عربي خالص، وهي تقدم آليات العلاقة بين الأب والنساء. إنه أب مزواج، ويهيم، بالإضافة إلى زوجاته العديدات اللواتي جمع فيهن بين الأخت عباسة وأختها الصغرى ريحانة، بغجرية شهوانية مدهشة تتفجر بعرامة الحياة وشهواتها، يعصف معها بكل الرواسي والمراسيم.

وتقدم الرواية، في هذا المجال، مشاهد متألقة من الولع الحسي بالمرأة، لم تكتب في الرواية العراقية، وربما العربية، من قبل. اقرأ، مثلا، تناول النص لعلاقة السيد خلف بريحانة التي «تفور بالصبا والجمال، ويجأر جسدها بالحسية والتوهج. ريحانة كالثريا وهي تدخل في حضن أبي يمامة، بلّلها الندى والضوء ونشيد الراعي المزدحم بالنغمات. شديدة الانتباه والإصغاء والنظام كانت. لحمها مشغول كله، حتى يطابق هوى الوالد. حين تدخل حمّامها اليومي تنقع اللحم الفياض بزيت الجوز الذي يستورد لها من التجار الهنود، فيطير عقله عندما يمدّ اليد واللسان والفم وهي تتمطى وتتعرى في الركن الفسيح واقفة بطولها الذي لوحته الزيوت، والأغذية الزبدة البلدية والأسماء النهرية» (ص ١٢). إنها امرأة شهية تؤكل قبل أي شيء! ولا تنسى أن هذا كله مقدم من خلال عيون امرأة أخرى، الابنة المولعة بأبيها التي تشير إلى الأب في النص بأبي. ولا غرو في أن يناجي السيد خلف ريحانته الندية تلك «خليني أشوف حيلي وتعبي وفلوسي، خليني أشوف اللحم والهبر، الثريد والدجاج، وأشم ريحة الشوي والزفر والمرق والشحم المحروق وأني أبوسك وأشمك» (ص ١٢).

هذا هو المنطق البدوي الرعوي الذي تعدّ فيه المرأة ذروة المتع الحسية التي توفرها الثروة ويوطئها الجاه. وهذا الفهم للمرأة هو الذي يجعل الأب غير معترف بأي إنجاب تنجبه المرأة، إلا إذا كان هذا الإنجاب ذكرا، فالمرأة – كما تكشف لنا عنها تصرفاته – هي مجرد واحدة من اللذات والشهوات التي يحتاجها الرجل الذي لا يعرف العلاقة الندية الحقيقية، علاقة الرفقة والحب، إلا مع الرجال الآخرين، كأن عالية ممدوح تتفق هنا مع تصور مارجريت دوراس الشهير، بأن في كل الرجال قدرا كبيرا من الجنسية المثلية، لأنهم لا يقيمون علاقة حقيقية، تنهض على الندية الحميمية، إلا مع الرجال الآخرين، ويعجزون، في الأغلب الأعم، عن إقامة علاقات مماثلة مع النساء، مهما كانت درجة حبهم لهن. وعالية ممدوح تقيم هذه العلاقة الحميمة، بحق، التي أخفق الوالد في إقامتها مع أي من نسائه، بينه وبين صديقه جميل المعروف.

ويقابل الجانب المهم في الرواية، جانب حياة البيت التي تسيطر عليها المرأة، جانب آخر، هو جانب حياة الواقع الخارجي المترعة بالاستراباات والأخطار المبهمة، لا بالنسبة إلى النساء وحدهن حين يغادرن كنَّ البيت ويفتقدن حمايته، ولكن بالنسبة إلى الرجال، أيضا، حيث تتنوع الأخطار التي يتعرضون إليها من الاعتداء والسرقة (والد شاكر والسيد خلف)، إلى الاختطاف

والاغتيال السياسي (بدر وغيره من المعارضين السياسيين).

ويوشك هذا الجانب العامّ أن يكون هو مدار اهتمام الرواية الأساسي خارج البيت، حيث تقدم الكاتبة كل تنويعاته المتباينة، من المناضل مسلم التقي الذي يناوش دور المثقف الثوري في الحزب الثوري وتنظيراته الخريفية الغريبة التي تنظّر للعسف، فينتهي به الأمر مطاردا ومنفيا، ولعبة في يد السلطة سرعان ما تتخلص منها وتحطمها، حينما يناسبها القيام بذلك، إلى الموظف الحزبي مصعب الذي شغف بهدى وهي في عمر بناته، تزوجها وحرّرها من ربقة التقاليد، ولكنه لم يتورع عن خيانتها مع أعز صديقاتها صبيحة حينما تسافر، ومع غيرها بلا شك، إلى المسئول الحزبي اللامع رامي حيدر الذي أدت علاقته بهجران إلى تدمير هذه المخلوقة الرقيقة الوديعة التي تمنح الرواية واحدا من أشد فصولها توترا وشجنا وألما، إلى الشاعر الوزير كمال عبد الرحيم الذي ما إن ترك لعواطفه العنان وأحب صبيحة حتى طاردته عوادي الدمار الحزبي ذاتها، لأن الحب في هذا المجتمع السياسي وصمة، إلى الأستاذ الجامعي زياد المرهون الذي لا يتورع عن كتابة التقارير الأمنية ضد طلابه، إلى الناقد النزيه عبد الجبار علي المشغوف بالبحث عن الحقيقة في عالم لا يتشوّف لمعرفة الحقيقة ولا يعبأ بها، إلى المناضل الشاب بدر الذي أطاحت به السياسة وهو في شرخ الشباب، مع أنه كان هو الوحيد الذي وفّر للبطلة لحظات الفرح الحقيقي القليلة في حياتها.

وما يجمع كل هذه الشخصيات في عالم الرواية هو علاقتها بالشخصية المحورية «صبيحة صبوحة صباح وصال وئام سهاد» التي تتعدد أسماؤها كما تتعدد وجوه المرأة، وكما تتراكب تكوينات الوطن. فإذا كانت صبيحة، في مستوى من المستويات، هي التجسيد الحي للمرأة، والتجسيد الرمزي للوطن، فإن قصة صبيحة المهمة مع بدر، الغائب عن النص الحاضر أبدا فيه، تكتسب هي الأخرى أبعادا جديدة، وتفتح النص على عدد من التأويلات المثيرة، فقد بدأت تعاستها وعذابها منذ حرمت من حبها الأول ذاك، والشخص الطبيعي المناسب لها أكثر من غيره من كل الذين نهشوا لحمها بالحلال أو الحرام، وانتهوا بها جثة ينتشلها الصبية من قلب دجلة.

لكن هذه الدلالات الرمزية تحتاج إلى المزيد من نسج آليات توليدها في النص، وليس ثمة مجال لتحقيق ذلك، لأن الكشف عن هذه البنية العميقة قد يعرّض الكاتبة نفسها إلى المزيد من الأخطار التي تصدت لها في هذه الرواية، بقدر كبير من الشجاعة التي يعجز عنها الرجال، في كثير من الأحيان، وبالمثل، ليس ثمة مجال للحديث عن ذاكرة الرواية التاريخية، ومنطق تأريخها للأحداث والشخصيات، مثل ميلاد شاكر عند مقتل الملك غازي ١٩٣٩، بطريقة تربط اليومي بالسياسي ببراعة حاذقة، لأن هذا قد يدخل بنا في إحالات طويلة إلى تاريخ العراق، وما أدراك ما تاريخ العراق، تاريخ مثقل بالوجع والألم والدمار. ولا مجال للحديث، أيضا، عن علاقة هذه الرواية المراوغة بالروايتين السابقتين للكاتبة: «حبّات النفتالين» و«الولع»، لأن هذه الروايات الثلاث تشكل ثلاثية روائية من نوع فريد تحتاج إلى دراسة مستفيضة في مكان آخر، ولا عن العلاقة بين الشخصيتين الأساسيتين في هذه الرواية، هدى وصبيحة، وكيف انفردت أولاهما ببطولة الولع وثانيتهما ببطولة هذه الرواية، بعدما جرد القهر الجميع من أي أمل في أية بطولة، ولا عن تبدل البنية الروائية في كل رواية من روايات هذه الثلاثية الشيقة، وبطريقة تناظر فيها البنى المختلفة مراحل السرد المختلفة وعوالم الروايات المتباينة والمتكاملة معا، ولا عمّا إذا كان من الضروري أن تكتب عالية ممدوح الزمن الأخير في الولع: زمن حرب الخليج، قبل أن تكتب الزمن الأول في الغلامة.

فهل كان لقلب التراتب الزمني في هاتين الروايتين دلالته، أم تراها تستثير فينا منطق الطير لفريد الدين العطار، وكيف أن الارتحال بعيدا عن السماء الأولى هو الذي يمكّن الطير من اكتشاف ما كان على أعتاب أعشاشها القديمة الأولى؟ هل الخواتيم هي التي ترتد بنا إلى البدايات، أم هي جائحة الدمار الكبرى التي بدأت في صيف عام ١٩٩٠ الدامي، ولاتزال قعقعاتها تتردد في أرجاء الوطن العربي الكبير؟

كل هذا – على أهميته البالغة في توليد الدلالات وإثراء مستويات المعنى المتعددة في هذه الثلاثية – يحتاج إلى دراسة مطولة، بل دراسات لا مجال لها في هذا العدد الخاص، وكل ما أرجوه أن تثير هذه الدراسة الآخرين للنهوض بها!

المكان في أدب المرأة

ياسين النصيّر

هي محاولة لرؤية مدى القدرة على استعادة الوعي ثانية في المكان الأول، وأسميه المكان الأول استرجاعا لقول أبي تمام «المنزل الأول». ولأن الموضوع مغلف بهدف مخصص لمساهمات المرأة في الخارج، وعن دورها كفرد مسئول عن تثبيت قيم وأعراف ثقافية وفكرية، من شأنها أن تجعل الآخرين يفكرون بها كقضية يمكن أن تسهم في فك الحصار عن الشعب العراقي- فإن الموضوع سيكتسب حالة استثنائية قد لا تكون «نقدية» بالضرورة، مما يفرضه الموقف الأخلاقي لأن نفرز لها اهتماما خاصا بوصفها كاتبة مسئولة تتحمل نتائج رؤيتها، وبوصفها أمّا وأختا وحبيبة وزوجة يمكنها أن تقوم بمهمات أرضية مانحة لكل جدب. وفق هذا السياق رأيت أن المرأة العراقية – الأديبة – لها رؤية مختلفة كليّا حتى عن نفسها، عندما تتجرد من كونها امرأة، ولها رؤية مختلفة عندما تكون كاتبة، ولها رؤية ثالثة ملتزمة بقضايا شعبها، برغم أن ذلك من محصلة المواقف. وما النتاج الأدبي إلا حالة طبيعية بالنسبة إلى الكاتبة منهن، تجد فيه متنفسا تعبر به عن مواقف معلنة أو مضمرة، ولَمجرّدَ أن «تكتب» المرأة العراقية كتابة أدبية أو غير أدبية هو ثورة بحد ذاته وهزيمة لأي حصار، أيّا كانت هوية ذلك الحصار الذي يفرضه الأمريكان، أو الذي يفرضه النظام العراقي نفسه عليها من خلال مؤسساته الثقافية والإعلامية. فقد عانت المرأة العراقية الأديبة وغير الأديبة حصارا متعدد الوجوه، لمنعها من أخذ دورها الحقيقي في مجمل الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية، ومن يراها اليوم وهي تسير متحجبة في الشوارع والجامعات بثقل الواقع الاقتصادي والسياسي المشوه، يتحسس مدى المعاناة التي حملتها هذه المرأة – الإسفَنْجة – التي تمتص كل عذاب الأبناء.

إلا إن المسألة التي نحن بصددها هنا مسألة أدبية بحت، مهمتها الكيفية التي توظف الكاتبة بها رؤيتها الأدبية في شأن آخر غير الأدبية، ونعني أن قراءتنا لنتاجها سيكون مسبوقا بموقف أخلاقي، ونريده نحن أن يكون موجودا في نتاجها، وهو الحصار الظالم على شعبنا العراقي ودور المرأة، ومع إنني من المعجبين أشد الإعجاب بدور المرأة العراقية، خاصة تلك التي في الداخل التي وقفت مع الرجل وقفات محمودة ومشهودا لها في مختلف الميادين، يكفينا منها أنها أم لبيت ترعى شجون المحارب في زمن الظلم والقهر، وأخت ترطب بأغانيها أحزان أخيها، وعشيقة تردد نغمات الحب كلما مر طائر مهاجر، وزوجة تتزين في أقبية الليل لزوجها وهو يهمهم بآمال غد أطفاله، وابنة لا تكون معجبة إلا بأبيها، ولّما كانت مثل هذه المهمة غير نقدية بالمرة، رأيت أن أترك النصوص التي سأتناولها في نتاج ثلاث كاتبات تكشف عن نفسها: واحدة من جيل الستينات الصاخب الملتزم بقضايا الفن والنص، هي سالمة صالح، والثانية من جيل الصخب السياسي في الثمانينات، نضجت تجربتها الأدبية والسياسية في داخل العراق وخارجه، هي هيفاء زنكنة، والثالثة بدأت الكتابة خارج العراق مرتحلة بين مدن وعواصم عربية وأوربية هي دنى طالب، إضافة إلى رأي في لوحة لفنانة تشكيلية هي رملة الجاسم، وبعض من قصائد شاعرة كردية، هي دلسوز حمه، ملتزما – من جانبي – بموقف نقدي – أخلاقي هو أن الأدب العراقي ليس عربيا كله، ولا كرديا كله، بل هو هذا الذي تنتجه الجغرافيا الحيّة في بقعة غائرة في الوجود والتاريخ اسمها العراق.

المكان الأليف

قصة شجرة المغفرة لسالمة صالح

بقي لسالمة صالح وهي في الغربة منذ ربع القرن ذاكرتها وبقايا من مناخ البيت الشعبي، وسيكون من الملائم لها أن تعيد رسم خارطة أيامها القديمة، من خلال مزج التجربة البصرية بالذاكرة الشعبية، محولة نموذج الحدث البسيط إلى حكاية، بعد أن تشحنه بما هو اعتقادي، ميثيولوجي، ديني، ومن خلف ذلك، تكمن الروح الدينية المغلفة بالتقية والورع والهدوء، ليأتي أسلوب قصصها بسيطا لكنه محمل بالشعر، والشفاهية، من خلال نماذج قلما تخطئ الذاكرة في نسيانها. وشجرة المغفرة ليست إلا عصا رجل كثير السوءات أراد أن يتوب إلى الله من أعماله الشريرة الماضية، ولما استشار رجلا تقيا أشار عليه بزرع عصاه في بقعة ما خارج المدينة، فإنْ اخْضرت وتحولت إلى شجرة غفر الله ذنوبك، وإن لم تخضر العصا فليس لك لدرب المغفرة طريق. انتظاره دام أسابيع يرقب كل ليلة وريقات عصاه المخفية في الجذور دون جدوى، ولما يئس وقرر العودة إلى بيته رأى جمعا يدفنون ميتا، ثم بعد أن غادروا المقبرة جاء رجل وحفر القبر واستخرج الجثة ومارس معها الجنس، وعندئذ يبادر الرجل صاحب العصا إلى الاشتباك معه وقتله، وبعيد عودته وهو القاتل يرى عصاه قد اخضرت. عندئذ تكون الحكاية قد أكملت هدفها فتاب الله على الرجل من معاصيه، وتكون الحكاية قد وصلت إلى هدفها الشعبي، وهو تأكيد الصدق في الحكي الشعبي، هذا المبدأ الفني الذي لا يوجد إلا في الحكايات البسيطة، تلك التي تنبع من محيط الأسرة وتموت في محيطها، أيضا. والطريقة الفنية للسرد في قصتها هذه تتم على لسان الأب الذي يحكي الحكاية ذاتها لابنه أحمد، وتتبرم الأم بما تسمعه، لأنها سمعت القصة عشرات المرات. لكن القصة لا تقف عند الحكاية ولا على من يقصها أو من يسمعها. فمثل هذا الفعل يتم يوميا كلما اجتمع الثلاثة على مائدة أو قبل النوم. محور القصة الخفي هو البيت، المكان الأليف الذي يجتمع فيه ثلاثة أجيال: الرجل العاصي وهو مصدر الحكاية، وهو من جيل سابق على جيل الأبوين، ووجوده في البيت كوجود الماء والهواء يرافق كل الأجيال بوصفه صانع الحكاية، وهؤلاء المقدَّسون أولياء ومصادر معرفة للكثير من القص الشفاهي، نراهم من خلال الكلام، وهم يعيشون معنا في كل الأزمنة، وجيل الأبوين: الأب والأم، وكلاهما يعمل، الأب يقص الحكايات والأم تغزل بمغزلها الصوف، وهو جيل ناقل لقصص الأولين كما لو كانت هذه القصص عقائد تلقن للأبناء، ومهمتها المحافظة على روح الحكاية، فالحكاية ترتبط بالعمر ارتباط السياق المشدود إلى الذاكرة. والقاصة هنا تستعير مهمة الأبوين الحكائية، لتؤكد، من خلال كتابتها للقصة مهمة الحكي للأجيال المقبلة. ألا تشبه الإبرة والخيط الذي تستعمله الأم وهي تستمع إلى حكاية الأب لابنه أحمد، السرد القصصي الذي تتتابع فيه الكلمات واحدة خلف الأخرى مكونة سدى النص ولحمته، مثلما تؤلف الأم بخيوطها وإبرها سدى عباءة أو ثوب؟ سالمة صالح في حكاية قصتها كتابة لنا هي الأم الحديثة تحكي الحكاية القديمة لأبناء قرّاء! أما الجيل الثالث، فهو جيل الشباب، ممثلين بأحمد، الذين عليهم أن يستمعوا، ومن ثم يفرزوا ما سمعوا. والقاصة لم تقُل على لسانه كلمة واحدة، بل كان طوال فعل السرد متنقلا في البيت منصتا للأب وملبيا طلبات الأم. في حين أن البيت كله محكوم بزمن الساعة الخربة التي وقفت قبل بدء القصة، ثم بدأت تعمل بعد أن أكمل الأب حكايته، هذا الزمن المتوقف طالما تعاملت معه الحكاية القديمة التي تدخل البيت الحديث بساكنيه المنفتحين على أزمنة جديدة.

المكان المفترض

قصة المغارة لهيفاء زنكنة

ربما تكون القاصة معنية بأن تفترض مكانا خاصا لكل قصة من قصصها، وهذا ما وجدته في المجموعة كلها. وقد يعود ذلك إلى ابتعادها عن الوطن فترة طويلة، فتحيل ذاكرتها إلى حال من الاستدعاء المبطن لتاريخ أمكنة لا تبوح بها. هذه القصة بداية لفهم المكان المفترض، ذلك الذي من عمق إشباعه بالواقع يتحول إلى الرمز. فالمغارة مكان على الواقع يتحول إلى مكان في النفس،

والبطل المفرد الذي خبر الحياة منذ أن نشأت القرية من بيوت عدة إلى أن أصبحت كبيرة، يتحول إلى ذاكرة جمعية، يسرد علينا تاريخ نشوء العلاقات الاجتماعية، ومن ثم البحث داخلها عن هوية خاصة به. القصة تبدأ من نقطة استدعاء أبناء القرية للحرب، مجندين فيها، ومن داخل هذا الوعي الحاد بالتحولات، تتلو القاصة علينا بطريقة المونتاج لسيرة حياة البطل والمكان، كل مفاصل التكوين الاجتماعي والفكري للمكان وللإنسان. والقصة قد تصلح في جانب منها لدراسة سوسيولوجية للعلاقات الاجتماعية، لكنها لا تنهض بمثل هذا الجانب دائما، فقصد الحكاية فيها هو البحث عن المغارة الداخلية للشخصية التي نجدها في النص مجموعة مغارات: منها الجدة التي تروي القصص والحكايات، فهي، أيضا، مغارة زمنية ممتلئة بما مضى، وعندما تموت لم يبقَ منها إلا سلتها الممتلئة بخيوط الحياكة، هي، أيضا، دالة على الحكي، ومنها المقهى، ذلك المكان الذي يكون ملتقى لأقدام أبناء القرية والغرباء، وفيه يستمعون إلى قصص الأبناء والمهاجرين، من خلال ما يحمله البريد بشاحنته الحمراء بين فترة وأخرى لهم، من الرسائل التي تأتي القرية وفيها أخبار الأبناء المحاربين، والمهاجرين. وفي المقهى الراديو، النافذة على كل الطرقات المختفية وراء الحدود. ومنها دكانه الممتلئ بالذكريات، وفيه علب ألوانه المختلفة ليرسم بها خطوطا لزمن لم يتضح بعد. ومنها المغارة نفسها، هذا التكوين السري في باطن الأرض المكون لتلك التكوينات الرخامية والشمعية القديمة النازلة والصاعدة على هيئات حيوانية وبشرية. وعندما يستدعى مع ثلاثة شبان للخدمة العسكرية، في حرب قررها غيره، يذهب إلى المغارة ويتخذ فيها زاوية له، ومن هناك يطل على زمن القرية والناس والعلاقات، وفي كل يوم يغير مكان جلوسه حتى صار «بإمكانه أحيانا، حسب درجة توحده مع المكان، أن يستمع إلى نبضات العروق الرخامية، تصدر أصواتا سكونية مثل عزف فرقة وترية»، و«لطول بقائه في المكان تجاوز المكان». وفي داخلها، وبعد أن تسقط المغارة كتلة من نحاس مضيء، يتلاشى البطل داخل تكوينات المغارة، ليتحول هو الآخر إلى جزء مضيء من أجزائها، تاركا عالم الحروب والقرى وأحاديث المقاهي والأماكن الممتلئة بحكايات الجدات والعجائز عن حروب خاسرة.

المكان المستعاد

قصة «مشروع رسالة» لدنى طالب

لهذه القاصة ميزة، ربما لم نجدها في قصص غيرها، هي أنها تكتب القصة بعد وقوعها واقعيا، إذ ليس ثمة افتراض لما حدث، الوقائع تضغط على الحدث، فتشده إلى واقع معروف. ولذلك، فاختيار زاوية غير مألوفة في هذا الذي حدث، ومن ثم روايتها لنا، جهد فني بحد ذاته. بمعنى أن قصتها مشبعة بالماضي، لكنها وهي تسرد الحكاية لا ترويها إلا بضمير السارد، مما يعني أن لقصتها زمنين: الأول هو ما حدث، ويشكل أرضية خلفية لمجريات الذي يحدث الآن، والحرب الإيرانية – العراقية هي الخلفية، ومن ثم نزوح سكان مدينة الفاو نتيجة لهذه الحرب بعد أن احتلتها إيران. والزمن الثاني هو زمن رواية ما حدث وكان تاريخه هو كانون الثاني (يناير) ١٩٩٧، في كوبنهاجن، ولذلك، يكون كل شيء فيها مستعادا، بما فيه المكان. بهذه الثيمة البسيطة كتبت القاصة حكاية النازحين من مدينة الفاو إلى البصرة ومناطقها المتباعدة، تاركين بيوتهم وأمكنتهم، متنقلين كأي لاجئين يعيشون على بيع الخبز وأشياء أخرى. القاصة مشبعة بما حدث للبصرة في حربها مع إيران، وفي كل قصة تختار زاوية فنية من هذا الواقع

العريض، لتروي لنا منها حكاية غير مألوفة. في مشروع رسالة، نجد قصة امرأة محملة بأطفال ثلاثة أجبرت على مغادرة بيتها في مدينة الفاو. تأتي البصرة وتسكن كغيرها في مخيم عارٍ إلا من رمال الصحراء. ومن هناك تطل علينا بحكايتها كل يوم: بحث عن لقمة العيش، ومداراة لأطفال رضع، وتذكر لأب غائبٍ عنهم، وملاحقات من قبل أجهزة الأمن والحزب، ونظرات المشترين خبزهم المتشككة. ووسط عالم ضيق جدا، تحاول المرأة أن تكتب رسالة لزوجها تخبره بما يجري لها بعد أن فقدت مكانها الأول (فالتهديد مستمر مادامت قد فقدت المكان)، لكن الرسالة، برغم أنها اشترت لها أوراقا، لم تكتب، بل تقص علينا وتجسد على الواقع. امرأة محشو فمها برمال الصحراء، جاف بلعومها، جاف بصرها، جاف ضرعها، تموت الآن وسط احتضان أطفالها لها: جثة على الطريق وأوراق فارغة من أية كلمة، ولا أمل بالعودة للفاو ثانية، (من لم يملك أوراقا تثبت ولادته أو عضوية انتسابه لهم لن يعطى الحق باسترجاع أرضه أو بامتلاك مكان في الفاو الجديد)»!! و. . . رسالة فارغة لم تكتب ولم ترسل إلى زوجها الذي وعدته أن تنقل إليه صورة حية عن أولاده وضحكاتهم وحتى عن حاجتها الجسدية له.

المكان المتخيل

الفتاة والقيثارة للفنانة رملة الجاسم

تصبح معاناة الفنانة التشكيلية مضاعفة إذا لم تعايش عيناها اللون الذي يحيا فيه حدث لوحتها. فالذاكرة لا تسعفها دائما، إذا عرفنا أن البصر من أكثر الحواس تحسسا بدرجات اللون آنيا، وأكثرها نسيانا، وأن ما يختزن في الذاكرة منه لا يستقر على درجاته البصرية القديمة. من هنا تكون كل معاناة الفنانين التشكيليين مضاعفة، عندما يرسمون قضية من قضايا الوطن وما مرّ به. في لوحة الفتاة والقيثارة، استعادة للأغاني الهاربة من الذاكرة، وتبدو هذه الاستعادة من خلال جلستها على متكأ في فراغ ومسكتها للقيثارة بيديها محتضنة لها كما لو كانت ابنتها. ثم هذه النظرة نصف المتأملة التي تصوبها الفتاة إلى زاوية بعيدة خارج كادر اللوحة، تبدو نقطة في المجهول أو المكان البعيد، محاولة منها لاستعادة تلك النقطة – البؤرة، كي تتواصل مع أحاسيسها المفقودة في الغربة. والقيثارة هنا ليست إلا زمنا عراقيا مرّ وقد تجمد على الأغاني القديمة، هو ذلك الماضي الذي عرفناه من خلال آلاته السومرية، فبدت هنا اللوحة استعادة متكئة على ماضٍ عريق، وقد ظهر لنا من خلال جسد الفتاة أنه بالإمكان المقارنة بين حاجات الجسد الذاتية – الآنية وماضٍ مختزن ببرق الموسيقى الصاخبة. ولا يبدو الجسد هنا في حال سكون أو حركة موضعية يجسدها وضع اليدين على الآلة الموسيقية، بل في حركة صاخبة تتمثل في أن قدميها شبه العاريتين، تنطلقان في فضاء أرضي مشغول بلون رمادي هو الآخر آتٍ إلينا من الماضي، وإحدى القدمين مقيدة بسوار نباتي، دالة على العلاقة مع الأرض المانحة، وهي ثيمة سومرية نراها في لوحات عدة، في حين تدحرج الثانية كرة هي بين النبات والأرض ملوحة بها لنا، كأنها تعزف هي الأخرى بآلتها المكانية الأرضية نغما بصريا يدل على صخب الجسد وعفويته معا. لكن الفتاة وآلتها وكل محتويات جسدها النابض بالرغبة، محاطة بخلفية تجمع بين الطبيعة والتجريد اللوني. فالخطوط البيضاء والسوداء الحادة والمستطيلات الملونة، تشكل حاجزا جماليا وقويا كما لو كانت جزءا من متكئها الأرضي – السمائي، في حين أن اللون الأحمر على يسار اللوحة كوّن مع جسد الفتاة تناغما دراميا يلوح بعنف التجربة المتأملة الداخلية للفتاة، وفيما إذا كانت آلة القيثارة قادرة على احتواء المعاناة. وفي الخلف البعيد، استعادة أخرى لزمن حي لا نعرف متى كان، لكنه زمن بدا لنا أن جزءا منه يعود إلى خصب الأرض القديمة، حيث الأخضر مادة لونية مبرزة تعيد اللوحة به تكوينات روحية مستقرة في ماضٍ ليس ببعيد. الفتاة، من خلال اللون الأخضر هنا، تؤكد أنه كان حاضرا ذلك الماضي بقوة، ولكن ثمة تقاطعات تمنع حضوره اليومي، بدت الفتاة متحررة منها بجلستها في مقدمة اللوحة وهي تنظر الآن إلى نقطة غير مرئية في البعيد، في حين أن ذاكرتها تنشد الأغاني المحتملة عن العلاقة مع زمنها القديم الهارب. نقطتان جوهريتان في هذه اللوحة، هروب إلى أمام، وفي الوقت نفسه عودة إلى أغاني الذات الداخلية.

تمنحنا اللوحة تصورا عن المكان المتخيل الذي تستحضره الذاكرة في لحظة احتدام عارمة. ولأن اللوحة نفسها مكان واقعي

بحد ذاته، يشكل الرسم عليها واقعا غير مفترض، من هنا تبدو لنا اللوحة كيانا نتلمسه ونتحسس أبعاده ونستشعره ونراه، فهو ليس لغة بحروف تقرأ بل بحروف للتأمل. ولما كانت هذه اللوحة مشحونة بالتأمل والموسيقى الروحية والجسدية والعنف الداخلي والمحتمل، ظهر المكان الغائب حاضرا من خلال أجزاء المكان المعلن. فهناك حتما صحراء روحية ملغية بقوة الحضور للأخضر، وهناك أمل داخلي محبط يتمثل في اليأس مما يحيط الجسد، فأخذ بالتعري من كوابيسه البيتية المانعة، وهناك نصف عين مغمضة منكفئة إلى الداخل كأنها تريد أن تقبض على ما في يديها من وجود، بعد أن منحت عينها الثانية أفقا بصريا منطلقا لفضاء الرغبات الحقيقية، وهناك القيثارة التي بدت لنا جزءا من جسدها المغني والعازف كأنها توصل بها روحها المنسكبة خارج الرأس والجسد، وهناك الرأس الذي بدا لنا ملغيا من حضوره، وهذه ثيمة طالما رأيناها في رسومات الفنانين العراقيين، عندما تعاملوا مع الرأس، في محاولة لتسليط الضوء على معاناته الداخلية وهو ينسحق تحت ثقل المحيط الخارجي والبيتي.

المكان المعشوق

قصائد الشاعرة الكردية دلسوز حمه

هذه شاعرة مطبوعة بالشعر، لا تترك مجالا من الحياة إلا وتتأمل فيه كأنها عرّافة في الجسد المجهول. ففي قصائد عدة نشرتها جريدة «ثقافة١١»، وفي دواوينها الصادرة تتغنى بالأرض – الحبيب، بكردستان وبالعراق، من خلال شخصية الرجل الذي يتحول إلى أغنية لا حدود لقدرتها على إعادة الحياة للجسد – الأرض، وللنفس – الطاقة. تنمو أحاسيسنا بقدرة الشعر على تجاوز العادي والبحث عن بقعة سحرية، وإن كانت كهفا صغيرا أو مغارة. ودلسوز الشاعرة هنا لا تغيب وراء نصها، ولم تدعِ يوما أنها تكتب القصائد من أجل الحب، بل كل قولها إنها تجد في الشعر قضية نزوع نحو الحرية، تتمنى لو أن كل امرأة لا تستطيع كسر حصارها، تلجأ إلى الغناء أو قول الشعر. وحبها للكاتبة هو، بحد ذاته، موقفها الذي يفسر أنها شاعرة مطبوعة بنغمات الشمال العراقي المرتحل عبر بوابات الطرق السرية للعالم، ثم العودة إليه من خلال الذكريات واليقظة الدائمة، للرحيل ثانية.

تراتيل خضر

سوف تبتلعني هذه العزلة المتموجة القاتلة

سوف تمتصني لجة هذا السكون المتلاطم

افتحْ لي جسورا بين شعاب هذه البيداء القاحلة،

وامنحني حنان صدرك الندي

افتحْ لي أبوابا وطرقات كي أعاود الخروج للمشي فوق الأعشاب الطرية

وبمحاذاة الفصول

مُدَّ لي معبرا بين زوغي وغيابي لأمضي إلى الأبد

بين أن أكون أو لا أكون

فأنتَ الوحيد الذي كتب الله أن يقرر كل هذا

فهل يمكن أن يخالف المرء ربه؟!!

عندما يمتلئ جسدي بك

أُسقطُ الحصار عنك

يبدأ موسم الانهمار

وتتقطع أوصال تمردي

وبِصمتٍ أسلم كل حدودي

وبكل حريتي أمنحك مملكتي

مدينة تلو مدينة

قلعة تلو قلعة

تقاسيم وترنيمات : أطفال ونساء

وليد الحمامصي

حزين هذا الزمان الذي يدفع فيه الأطفال حياتهم وبراءتهم ثمنا لوحشية الكبار وساديتهم. حزين هذا القلب الموجع للأدوار. موجع أن نعيش في عالم يموت فيه أطفال العراق كمدا وحصارا، ويموت فيه أطفال فلسطين اغتيالا ومقاومة. حزين وموجع بعد كل ذلك أن نصمت. ولكن المفرح أن يقرر بعضنا ألا يصمت، وأن يقدم شهادته فنا للعالم ليرى ما فعله بالأطفال. يمكنني التنبؤ بأن هذه الرغبة في الرفض هي ما دفع اللبناني سايد كعدو لإتمام فيلمه التسجيلي «تقاسيم من بغداد» ﷺفيلم ملوّن، مدته ٥١ دقيقة ،أنتج في أواخر التسعينات رضي الله عنه، وأن هذه الرغبة ذاتها هي ما حثّ المصري حسام علي على إنجاز فيلميه التسجيليين «أوراس – ترنيمة حب لأطفال العراق» ﷺفيلم ملوّن، مدته ١٧ دقيقة، من إنتاج سينمائيون بلا حدود ،عام ١٩٩٩ رضي الله عنه و«نساء تحت الحصار» ﷺفيلم ملوّن، مدته ٢٨ دقيقة، من إنتاج سينمائيون بلا حدود، عام ١٩٩٩ رضي الله عنه. ثلاثة أفلام يتعامل كل منها مع حصار العراق من منظور مختلف، وإن كان ما يجمع بينها هو أنها جميعا تجعلنا نبكي، ذلك النوع من البكاء الذي يستفز المشاعر نحو درجة أكبر من الوعي.

يعرض لنا عمل سايد كعدو آثار الحصار من جوانبها المختلفة، فبرغم إهداء الفيلم «إلى أطفال يغسلون أحلامهم بدمائهم»، فإنه لا يحصر نفسه في تناول ما يحدث للأطفال وحدهم، ولكنه يتناول الحصار وآثاره الاجتماعية والاقتصادية والصحية وغيرها على فئات المجتمع العراقي، بشكل عام، وهو ما يتضح من اختيار المخرج لضيوفه في الفيلم، فبينهم الكاتبة، والطبيب، والنحّات، والرسّام، والأكاديمي، والطبيب النفسي، والمهندس، والأديب، والممثلة، بالإضافة إلى الكثير من المواطنين الذين أضيروا مباشرة من الحصار، والذين يعبرون عن خسارتهم بأجسامهم وآهاتهم وتشوهاتهم. إذن، يبدو جليا للمتفرج، منذ البداية، أن الفيلم هو تناول بانورامي لحصار شعب بأكمله، الرجل والمرأة والطفل، المثقف والمواطن الكادح المسحوق.

يستوحي فيلم «تقاسيم من بغداد» بناءه من اسمه. فالفيلم في عرضه للحصار يستلهم إيقاع تقاسيم العُود التي تدغدغ أحاسيس المستمع تارة، وتارة تعلو بانفعالاته إلى أقصاها، ثم تعود به ثانية إلى هدوئه الأول. وعلى النحو نفسه، تأتينا مشاهد فيلم سايد كعدو، فمشاهده بطيئة متأنية تترك للمشاهد وقتا لاستيعاب ما يراه، كما أنها تقوم على فكرة الصعود والهبوط. فمثلا، يبدأ الفيلم بحديث الكاتبة ناصرة السعدون عن المرضى والضحايا والمستشفيات، كلام، برغم ألمه الموجع، يأتي هادئا ومنظما وواضحا، وإذا بالمخرج يكسر هذا النظام فجأة بصور أمهات ومرضى وضحايا تثير حالة من الفوضى الشعورية لدى المشاهد، ثم يعود به إلى هدوء الكلام العلمي الرصين مع شهادة الدكتور وليد الطويل عن المعامل والمستشفيات وما لحق بها من دمار، وهكذا. هذا النمط القائم على حوارية الهدوء والفوضى من أوضح سمات الفيلم التي يقف أمامها المُشاهد مذهولا مرتبكا عاجزا عن فك

شفرة المَشاهد. ولعل ما أراده سايد كعدو بهذا البناء هو إعطاء المُشاهد صورة لوطن دمره الحصار، ولكنه وطن لم يُمت بعد، وطن يضج بفوضى الألم، ولكنه مازال يحاول ويقاوم! يأتي للمشاهد هذا الانطباع، خاصة من محتوى شهادات المتحدثين. فالمهندس محمد هداوي، مثلا، يحدثنا عن تعايش الإنسان العراقي مع وضعه الجديد، فبدلا من استيراد الآلات قبل الحصار، أصبح المهندس يقوم بتصنيع آلاته في الداخل من مواد محلية، وهي آلات إن لم تكن في كفاءة مثيلاتها السابقة فهي تؤدي الغرض فحسب. أكانت هذه هي الروح التي حاول المخرج نقلها للمشاهد؟ لا أدري.

الأسلوب نفسه في عرض الفيلم القائم على التقابل بين ما هو خراب وما هو مقاومة نراه، مثلا، في تبادل الصورة بين طبيعة عراقية محترقة ومدمرة ومياه صرف ملوثة بكل ما يمكن أن يقتل الأبرياء، وأعمال الفنان التشكيلي خضر جرجيس المستوحاة من الطبيعة العراقية، وكلامه عن الحصار الذي أدى بالفنان العراقي إلى حالة «انفتاح فكري، انفتاح ذهني، انفتاح فني». الشيء نفسه يتكرر في تبادل المشاهد بين مأساوية شهادة الكاتب عبد الخالق الركابي الذي يعتذر لكل أساطين الأدب في العالم ويشكرهم، في الوقت ذاته، لأنه ببيع محتويات مكتبته من أعمالهم، أصبح قادرا على كسوة أطفاله، من ناحية، وشاعرية عازفي العود والكمان من طلاب معهد الدراسات الموسيقية بالعراق، من ناحية أخرى. كأنما تقول الصورة إن الدمار أصبح عاملا يحث الفنان العراقي على الإبداع، فبالإبداع وحده يتخطى الإنسان آلامه ويتسامى بها.

يستخدم الفيلم، أيضا، تقنية أخرى هي تقنية الصدمة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بانفعالات المُشاهد، وتبدو أكثر وضوحا على مستوى الصوت والصورة. ففي الوقت الذي يعتمد فيه المخرج أسلوب التبادل بين كلام المتحدثين وصوت موسيقى العود الحزينة نمطا في فيلمه، نجده في مواضع من الفيلم يكسر هذا النمط تماما، في محاولة منه لإيقاظ شعور المشاهد وتذكيره بمأساوية أوضاع هؤلاء المواطنين المحاصرين. ففي مشهد شديد التأثير، ينقلنا المخرج فجأة من هدوء حديث الفنان خضر جرجيس وجمالية أعماله وخلفية صوت العود الشجي، إلى صوت امرأة مشوهة من جراء الحصار تبكي وتنوح على ما حدث لها، وتشكو نقص الأدوية الآتية من الخارج، وتهيب بنا – نحن المشاهدين – في واحدة من أكثر جمل الفيلم وجعا: «ساعدونا الله يساعدكم». ولعل ممّا يزيد تأثير التقنية أن المخرج ينقل لنا صوت هذه الضحية، بداية، دون صورتها، فيتسمر المشاهد أمام الشاشة غير مدرك لما يحدث! وبهذا يصبح صوت هذه المرأة – التي لا صورة لها – صوت كل ضحية للحصار. الصدمة نفسها تحدث صوتيا وبصريا، حين نرى طفلا يتأوه على كتف أمه، ومن بعد، صوت وصورة مادلين أولبرايت وتصريحاتها بأن دماء هؤلاء الأطفال ثمن مجزٍ حقّا نظير استتباب الوضع السياسي العالمي.

على المستوى البصري، أيضا، يلجأ المخرج إلى التقنية ذاتها، أي صدم شعور المشاهد. ففي مشهد يتحدث فيه أستاذ الإعلام هاشم حسن عن نقص ورق الكتابة، واضطراره إلى تمزيق رسائل الماجستير للكتابة عليها، وعن تحول العلاقات الأسرية والزوجية إلى علاقات ميكانيكية لا متعة فيها، يتخلّى المخرج عن صفاء صورته المعتاد، وإذا بالكاميرا تقترب من وجه المتحدث مع إظلام نصف الشاشة، ثم يتصاعد الموقف إلى إظلام كامل مع بقاء صوت المتحدث في الخلفية، فيسمعه المشاهد ولا يراه. وفجأة يخرج بنا المخرج من هذا الظلام الحالك إلى نور نهار ساطع، ليرينا صور المرضى والضحايا يتعذبون، كأنه بصدمتنا هذه يلفت انتباهنا إلى معاناة هؤلاء المحاصرين. يحدث الشيء نفسه في واحد من أكثر مشاهد الفيلم درامية، حينما نرى ذلك الطفل الناظر إلى الكاميرا واقفا في حديقة الحيوان يقول إن الحيوان «مثله مثل الإنسان»، وإذا باللقطات التالية تعرض لنا مجموعة من العراقيين خلف قضبان يشاهدون ما يحدث حولهم في الخارج. ولا يسع المشاهد في هذا المشهد الذي يعكس قضبان الحصار، سوى أن يربط بين من هم داخل الأقفاص وما يقوله الطفل في المشهد السابق، كأنما هذا الطفل البريء يعلن فقدان شعب بأكمله لآدميته.

آخر التقنيات التي يعتمدها الفيلم هي تقنية دائرية العرض. فتيمة الحصار التي يتناولها الفيلم تفرض حصارا بصريا على مخرج الفيلم، أيضا. فالمشاهد يرى مَشَاهد تتكرر مثلما يحدث مع مشهد الشمس في بداية الفيلم ونهايته، وهي شمس لا يعرف المشاهد إن كانت تشرق أو تغرب، إن كانت شمس أمل أو أفول أحلام. كما يبدأ الفيلم وينتهي بحديث الكاتبة ناصرة السعدون، كأن المخرج يقول لنا ها نحن نتهي حيث بدأنا، كأنه يعترف بعجزه عن تغيير الموقف وكسر الحصار. وهناك صور الماكينات في نهاية

الفيلم التي يراها المشاهد في بدايته، مع اختلاف واحد، هذه المرة، ففي مشهد من أجمل مشاهد الفيلم، نرى تتابعا لصور أطفال تسقط واحدة تلو الأخرى، ثم نراها محمولة على الأعناق في مشهد جنائزي قوامه أمهات يرتدين السواد، وإذا بالصور نفسها تعرضها لنا الكاميرا مارة بين أنابيب الآلات ذاتها، ثم متصاعدة نيرانا من مدخنتها. ومثلما يحدث معظم الوقت يتساءل المشاهد: أمعنى هذا المشهد المجازي اليأس، حيث الأطفال يحترقون داخل الآلة، أم إنه مشهد حماسي، يفيد بأنهم يعمِّرون الآلة بدمائهم وحياتهم؟

على الجانب الآخر، يأتي فيلم حسام علي «أوراس – ترنيمة حب لأطفال العراق» مليئا بالحب الذي يصفه عنوان الفيلم. يقدم هذا العمل منظورا مختلفا تماما لما يقدمه فيلم ساید کعدو، وإن كان يتناول حصار العراق، أيضا. ففيلم حسام علي يبتعد عن فذلكة التقنية الفنية التي تظهر لنا في «تقاسيم من بغداد»، ليظهر أقل إتقانا من الناحية الفنية، وإن كان، بالتأكيد، أكثر تلقائية وإنسانية في تناوله لآثار الحصار.

يبدو تعاطف المخرج مع موضوعه من العنوان، فأوراس هو اسم الطفل الذي يظهر في بداية الفيلم ليتكلم عن دراسته واضطراره إلى العمل، لسدّ حاجات أسرته التي لم تعُد قادرة على الإنفاق على تعليمه، بسبب تردي الوضع الاقتصادي العراقي. وإذا كان مخرج فيلم «تقاسيم من بغداد» قد قدم لنا صورة متكاملة للوضع تحمل في ثناياها وجهة نظر الضحية والمثقف المستنير، فإن حسام علي يفعل الشيء نفسه، وإن كان يركز على صوت المهمشين، منذ البداية. فمع أولى لقطات الفيلم يدرك المشاهد أن هذا العمل يعطي صوتا لمن لا صوت له. في مجموعة مشاهد سريعة متلاحقة، نرى مباني مدرسة مهدمة، ثم أطفالا يندفعون خارج المدرسة، ثم أطفالا داخل الفصول، ثم يتحدث أوراس ليوجع قلوبنا بحكايته عن حياته الشقيّة التي يغادر فيها منزله صباحا إلى المدرسة، وبعدها يذهب للعمل في تصليح إطارات السيارات.

يقوم الفيلم، منذ البداية، على حوارية التناول على مستويي الصورة والمضمون، ففي حين يشرح لنا أوراس متاعبه اليومية، يلاحقنا المخرج بمجموعة من اللقطات نرى فيها أوراس يحمل إطارا يماثله وزنا، ويرقد تحت جسم سيارة لتركيب ذلك الإطار. تستمر طريقة الحوار البصري التي تعكس ما يقوله المتحدث، أيضا، في مشاهد مديرة إحدى مدارس البنات، ففي حين تتحدث هي عن تردي الوضع الاقتصادي، وعن سوء التغذية الذي يلاحق الأطفال ويودي بحياتهم، يكون المخرج قد كرَّس لما تقوله بمجموعة مشاهد لفتيات صغيرات في صف طويل يبتسمن للكاميرا، ويشي حالهن بما تقوله مديرة المدرسة.

ويتكرر ذلك في مشهد مدرس الإعدادي الذي يشرح لنا الحالة التي وصل إليها. ففي حين يخبرنا المدرس باضطراره إلى العمل كحارس مدرسة ابتدائي، بسبب ظروف العيش، ويحكي عن تردي حالة التعليم وحالة الأطفال الصحية التي تسبب فيها التلوث البيئي الذي يعيشون فيه – تذهب بنا الكاميرا إلى صور أطفال صغار يلعبون في مياه الصرف الصحي الملوثة، مقدِّمين بأرجلهم وأياديهم الحافية العارية شهادة صدق مؤلمة على ما يقوله المدرس عن أحوالهم.

هكذا، يبدو جليا أن أهم ما يميز فيلم حسام علي هو اقترابه من الأطفال المهمشين – موضوع فيلمه – بالدرجة الأولى. ولذلك، حينما يسمعنا المخرج صوت المسئولين ممثلين في طبيبة الأطفال، أو منسقة برامج اليونيسف في العراق، أو حتى ممثل منظمة التغذية الأجنبي في العراق، يكون هذا الصوت تعليقا على صوت أوراس، وعلى صور الأطفال الآخرين الذين هم في مثل سنّه وظروفه. فالمخرج معني أساسا بأن يرى المُشاهد ويسمع صوت هؤلاء الأطفال، وما عدا ذلك يأخذ مرتبة هامشية، وهو ما يتضح، مثلا، في صور الأطفال التي تقطع تقريبا حديث منسقة اليونيسف، كأن المخرج يريد أن يقول إن المهم في فيلمه هو صوت وصورة الأطفال وليس ما يقال عنهم.

ويكمل مشهد ممثل منظمة التغذية منظومة الحوار التي يقيمها حسام علي، منذ بداية الفيلم، على مستويين، فعلى المستوى الأول يعضد ما يقوله عن ارتفاع نسبة وفيات الأطفال ما يؤكده الفيلم منذ بدايته. وعلى المستوى الثاني، فإن المتحدث بلهجته الأمريكية الواضحة يمثل تباينا مع لغة الفيلم العربية، ولكنه تباين يساهم في وحدة بنية الفيلم، فأسلوب الحوار الذي بدأه المخرج

على مستوى الصورة والمضمون، يجد مساندا له في أسلوب الحوار الذي يضعنا أمامه على مستوى اللغة.

إن فيلم حسام علي، في مجمله، دفقة شعورية تخرج من قلب المخرج لتصل مباشرة إلى قلب المشاهد، وهو ما يؤكده قصر مدة عرض الفيلم مع امتلائه بمشاهد سريعة ومتلاحقة، كأن المخرج لا يستطيع إيقاف تدفق مشاعره المتدافعة والمتواترة ممثلة في لقطات الكاميرا، الأمر الذي يخلق شعورا بالتعاسة ولحظات كثيرة من المرارة والحزن لدى المشاهد.

والفيلم، في النهاية، «ترنيمة حب»، لذلك، هو بعيد عن دعائية التعليق على الحدث. فالمخرج يريد لمشاهده أن «يرى» الأمر كما هو، ثم يتفاعل معه كما يحلو له، ومن أجل ذلك، يترك المشاهد مع صورة و«صوت» الطفل الذي يغني في نهاية الفيلم: «أنا نزارٌ نزار... أنا وليد النهار... بلا حليب وأحيا... مهما أطالوا الحصار». فالطفل يقرر مصيره بنفسه، يقرر المقاومة بنفسه، دون تدخل من أحد، في حين ينسحب المخرج من الفيلم بصورة للطبيعة العراقية وسط برواز من السواد، معلنا، دون سفسطة ودون كلمات، حداده ومرارته الشخصيتين.

مثلما في فيلم سايد كعدو، وعلى خلاف فيلمه الأول يأتي صوت المخرج حسام علي أكثر علوا في فيلم «نساء تحت الحصار»، فهذا الفيلم – كما يبدو من العنوان – يقدم إلى المشاهد مجموعة نماذج لسيدات يمثلن أنماطا مختلفة للمرأة، فهناك الأم التي فقدت أطفالها في ضرب العراق، والفنانة التشكيلية، والمعلمة، والطبيبة، والممثلة المسرحية. كل هؤلاء يقدمهن المخرج بتدخل واضح من جانبه يمثله عنصر الاختيار. والبادي أن حسام علي أراد هذه المرة تقديم الوجه الآخر للعملة، فبدلا من الأطفال المهمشين الذين يعانون تحت ضغوط اقتصادية وظروف صحية متدنية، نرى مجموعة من النساء العاملات الفاعلات اللاتي يقفن في وجه الحصار، ويحاربنه بما بقي لديهن من طاقة. فالمخرج يعرض لنا جوانب مختلفة للمرأة المثال.

تبدو نماذج الفعل في هؤلاء النساء، مثلا، في أم غيداء، الأم التي فقدت أطفالها ضحية للصواريخ، والتي تحكي لنا ظروف الضرب وكلها تماسك وشجاعة. نرى الشيء نفسه مع الفنانة التشكيلية التي تحول وجوه السيدات والفتيات إلي بورتريهات جميلة وحزينة، في الوقت ذاته. وتتكرر الظاهرة في ما تفعله المعلمة التي تزرع في نفوس تلاميذها روح المقاومة، من خلال توعيتهم بظروفهم وعدوهم الحقيقي: أمريكا، بل تتخطى ذلك متطوعة للمقاومة. أما الطبيبة، فتشرح لنا حال المستشفيات، وتصف مقاومة مختلفة متمثلة في العناية بالمرضى على المستوى الإنساني، في غياب الأدوات الطبية اللازمة. وأما الممثلة المسرحية، فقد دفعتها طاقتها الإبداعية إلى إنتاج فن يتعامل مع ظروف المجتمع ويعكسها.

وكما في فيلمه عن الأطفال، نرى حسام علي يستخدم أسلوب الحوار في ما بين اللقطات، فحديث الأم عن أطفالها والصواريخ تعكسه لقطات أرشيفية لضرب العراق، كأننا نرى المشهد الأول في مرآة الثاني، وحديث المعلمة عن تلاميذها يلي لقطة نراها فيها وهي تلقن التلاميذ درس توعيتهم الأول. هذا الحوار على مستوى مضمون الفيلم – الذي يتجاوز اللقطات إلى كونه حوارا في ما بين هؤلاء النساء – يؤكده حوار آخر على المستوى البصري. فمثلا، تسبق لقطات وجوه نساء حزينات واحدة تلو الأخرى صور وبورتريهات الفنانة التشكيلية، فيأتي وجه المرأة ووراءه الصورة المستوحاة منه في تتابع يعكس محاولة المخرج مزج الواقع المؤلم بالإبداع الجميل، مؤكدا شجاعة وصلابة هؤلاء النساء في وجه الحصار. ولا يكسر هذا الحوار المسترسل في ما بين المشاهد سوى لقطة واحدة تتوقف فيها الصورة على وجوه أطفال في المدرسة، يحاول المخرج بسكونها طبعها في ذهن المُشاهد، وتوضيح الدور الذي تلعبه المرأة المعلمة مع أطفالها.

أهم ما يميز الفيلم كونه جمع بين دوري المرأة: الخاص والعامّ. فنحن نرى الأم التي لا يشار إليها إلا كأم في حيزها العائلي الخاص، كما نرى الطبيبة التي تمارس عملها في المستشفى ونتعرف إليها من خلال الحيز العام. وتبدو قمة التمازج من خلال الفنانة التشكيلية التي تمارس عملها العام مؤكدة ضرورته، من أجل تغطية مصاريف ومتطلبات الحياة اليومية. إن ما فعله حسام علي في هذه النماذج هو أن أعطى المشاهد صورة لدور المرأة العراقية تحت الحصار، ليس من خلال الخاص والتابع فحسب، وإنما من خلال العام والرائد، والسياسي، أيضا. ويصل هذا التفاعل ذروته في المشهد الأخير، حيث نرى سيدات يتظاهرن ضد

أمريكا، تليها لقطة أخرى لسيدات في أعمار متقدمة يزرن المساجد ويتبركن بها، وهي الصورة التي ينتهي بها الفيلم، كأن المخرج يقول إنه ما كان ليغفل دور هؤلاء حتى على تواضعه.

يأتي «نساء تحت الحصار» أقل انفعالا بالموقف وأقل تلقائية من فيلم حسام علي عن الأطفال. وهذا – في رأيي – هو العيب الوحيد الذي يمكن أن يؤخذ على العمل. ففي هذا الفيلم، يسقط المخرج في فخ أكاديمية التناول، حتى نخال أن رسالة تعليمية واضحة عن دور المرأة العراقية، يريد أن يضرب بها مثلا لنساء عربيات أخريات. وفيما أرى، فإن هذا الجانب الوعظي قد طغى قليلا على الجانب الفني في الفيلم، فلم يأتِ في سخونة شحنة انفعال المخرج بالحدث في الفيلم الأول. فالفيلم يفقد هذه السخونة والطزاجة، بمحاولة تقديم صورة منمقة ومنظمة أكثر من اللازم.

أتصور أن الأفلام الثلاثة تؤدي دورها الفعّال من خلال وجودها على الجانب الآخر من الحدث. ففي الوقت الذي تغمرنا فيه أجهزة الإعلام وأصوات المثقفين بالحديث عن الحصار، وضرورة كسر الحصار، وعدم جدوى كسر الحصار، وهكذا، تعرفنا هذه الأفلام، في هدوء ودون افتعال أو زعيق، جميعا، ماهية هذا الحصار الذي نثرثره نهارا وليلا، دون معرفة حقيقية لمعنى أن تكون أنتَ نفسك محاصرا، ومريضا، ومشوها، ومقهورا في آدميتك. بكل جماليات ومآخذ الأفلام الثلاثة، تحية تقدير لأعمال تفيض إنسانية.

سهير مرسي

العراق تحت الحصار: الإبادة الجماعية كنظام عالمي "جديد"

أرجع مكتب الهند للإدارة الاستعمارية البريطانية انتفاضة العراق (في عام ١٩٢٠) إلى «متشددين» أرادوا «إنهاء جميع أشكال السيطرة الأوروبية من كل أنحاء الشرق»... وبينما كانت بريطانيا تفتقد إلى قوات برية في العراق، نفّذت قواتها الجوية عمليات قصف لإنهاء «التمرد القبائلي»، ضمن استراتيجية أوسع نطاقا لإنشاء نظام حكم محلي تابع. ودافع تشرتشل بشدة، بصفته وزير دولة للحرب، في عام ١٩١٩، عن وجهة النظر الداعية إلى «استخدام الغاز السام ضد القبائل غير المتحضره...». نعوم تشومسكي ١٩٩٢(١).

لقد دمروا إمدادات المياه الخاصة بكم، ومحطات الكهرباء والمستشفيات والمدارس والطرق الرئيسية والفرعية، على كل الطريق المؤدية إلى بيروت، وادعوا أن هذا هو سعيهم إلى السلام... قذفوا الفتيات والصبيان بالقنابل العنقودية، فأتتفخت أجسامهم إلى ضعف حجمها وصارت بنفسجية وسوداء، ونزعوا الأرداف من مولود عمره أربعة أشهر، قائلين إن هذا إنجاز عسكري متألق، وعندما حدث ذلك قالوا إنه دفاع عن النفس... لم أكن أعرف، ولم يخبرني أحد، وعلى أية حال، ماذا كنت أستطيع أن أفعل أو أقول؟ نعم ، كنت أعلم أن النقود التي اكتسبتها من عملي كشاعرة قد أنفقت على القنابل والطائرات والدبابات التي استخدمت لذبح ذويكم. ولكنني لست إنسانة شريرة. وشعب بلادي ليس بهذا السوء. فلا تتوقعوا أكثر من ذلك منّا نحن الذين ندفع الضرائب ونشاهد التليفزيون الأمريكي. جون جوردن ١٩٨٢(٢).

مقدمة

في مقابلة منشورة في الهيرالد تريبيون الدولية في أثناء الحرب العراقية الإيرانية، رحب الرئيس السادات بالتواجد العسكري الأمريكي في الخليج قائلا:

يقول بعض شيوخ الخليج «إننا لا نحتاج إلى مساعدة من أحد»... إنهم في

حاجة إلى المساعدة... وأقول بوضوح إنه بالرغم من جهلهم، فإنني سوف أدافع عنهم، وسوف أقدم التسهيلات إلى الولايات المتحدة، لتتمكن من الوصول إليهم في حالة تعرضهم إلى الخطر(٣).

وطبقا لإحدى الوثائق الرسمية للولايات المتحدة، فإن مصر في عهد السادات أصبحت «ذات قيمة استراتيجية للولايات المتحدة، في سعيها إلى السلام في الشرق الأوسط وحماية المصالح الأمريكية في الخليج الفارسي»(٤). ومن هنا تم «مكافأة» مصر بمعونة اقتصادية هائلة ومشروعات "تنموية"(٥) في أعقاب «تحرير» اقتصادها، أواسط السبعينات. ومؤخرا، تم تقديم مزيد من «التعويض» في شكل إعفاءات جزئية للديون. وكان هذا في أعقاب المشاركة المصرية (والسورية) لقوات التحالف التي كانت الواجهة العربية للحملة العسكرية الأمريكية ضد العراق، في أعقاب غزوه الكويت في أغسطس ١٩٩٠، بديلا من حل سلمي دبلوماسي عربي - عربي (أشبه بالدور الذي كان الرئيس عبد الناصر قد لعبه قبل ذلك بعدة عقود). قبل حرب الخليج الثانية (١٩٩١)، كان تهميش و«احتواء» مصر قد أصبح أمرا واقعا من خلال معاهدة كمب ديفيد في ١٩٧٩، مما فتح الطريق لإسرائيل لاستعراض عضلاتها العسكرية ببجاحة غير مسبوقة(٦)، فقصفت قواتها المفاعل النووي العراقي في ١٩٨١، وقامت بغزو لبنان في ١٩٨٢. وعلى عكس شعار الرئيس بوش «عدم الربط»(٧)، فإن توقيت أشكال العدوان هذه، بالإضافة إلى مؤشرات أخرى، يؤكد العلاقة بين التطورات على المستوى الوطني والقومي والعالمي، سواء تلك التطورات المتعلقة بمشروع الشرق أوسطية الصهيوني(٨)، أو المشروع الأم في هذا السياق أي النظام العالمي «الجديد» المتنكر في شكل «تدخلات إنسانية»(٩). وكما لاحظ ريتشارد فولك، في أعقاب حرب الخليج الثانية فإنه:

بالرغم من كل ادعاءات دعم الديمقراطية التي شكلت الدعاية التبريرية للحرب، فقد كانت هذه حربا حول البترول، ولضمان وضع إسرائيل في المنطقة، وقبل كل شيء، للتأكيد على دور الولايات المتحدة باعتبارها المسئول الأول عن الترتيبات الأمنية في عالم ما بعد الحرب الباردة، أو كما أسماه جورج بوش «النظام العالمي الجديد»(١٠).

ولكونه أحد الضحايا الأساسيين لهذا النظام العالمي «الجديد»، يمثل العراق الخاضع للعقوبات الاقتصادية إظهارا فعليا لعلاقات القوى البنيوية وآلياتها، تلك التي تنتج البؤس وتكرس وجوده، لا في أوساط النساء (وآخرين) في وطننا العربي، ولكن في كل أنحاء العالم. ومن هنا، استحسن عدد من دعاة الحركات النسوية، من الجنوب الكوني المعادي للإمبريالية العالمية، التحليل ذا المرجعية التاريخية

الذي يضع الأحداث في سياقها العالمي، ويعطي الاهتمام اللازم لما وصفته جياتري سبيفاك بـ «العنف الإمبريالي». وتم رفض ترويج مفهوم "الإجماع النسوي" و إغفال التناقضات بين النساء، ومن ثم خطاب «قضايا النساء» القاصر. وتقدم الأنثروبولوجية هيلين بيج(١١) البديل، حيث تطرح ضرورة العمل على توضيح العلاقات والآليات البنيوية التي تكرس أشكال الظلم كافة التي تتعرض إليها النساء، وليس عدم المساواة بين الرجل والمرأة فحسب(١٢). ولكن هذا المدخل ليس هو السائد بالمرة في الدراسات حول «الآخر العربي»، بل إن هذا الاتجاه التحليلي كثيرا ما يهمل لصالح التركيز على أشكال الثقافة المحلية للعنف، خاصة جرائم الشرف وختان النساء. وهذا التبسيط المخل الذي يغلفه بريق الدعاية لـ «تمكين» النساء، لا يمكن أن يكون بديلا من التحليل العلمي الدقيق لعلاقات القوى العالمية التي أنتجت الدراسات المهيمنة الاستعمارية، بما فيها ما تصفه جاكي ألكسندر وشاندرا موهانتي بـ «نسوية السوق».

وفي حالة نساء العراق تحت الحصار، فإن التحليل العلمي يقتضي الرجوع إلى السياق الأوسع، ألا وهو «إعادة استعمار العالم العربي»(١٣) ففرض العقوبات الاقتصادية على العراق ليس إلا أحد أشكال العنف البنيوي ضد وطننا، في إطار النظام العالمي «الجديد»(١٤)، وصورته الإقليمية - أعني الشرق أوسطية. وعليه، فإن اقتصاد العراق المؤمم وموارده الطبيعية مستهدفان لإخضاعهما إلى السيطرة الأجنبية، وهو ما يذكرنا بالانقلاب الذي قامت به المخابرات المركزية الأمريكية لعزل رئيس الوزراء الوطني محمد مصدق، وإعادة حكم الشاه بهلوي ، حتى تتوفر الحماية لمصالح الشركات الأمريكية والأوروبية في الدولة الإيرانية الغنية بالنفط(١٥) وفي العالم العربي، فإن مقارنة بسيطة توضح بجلاء مقاربات دالّة على العلاقات البنيوية الأساسية. والدليل على ذلك، مثلا، هو الشبه بين ما تمخض عنه إرهاب الدولة الصهيونية ضد الشعب اللبناني الذي وصفته الشاعرة جون جوردن، والدمار الذي رصدته ليزا سهير مجاج في قصيدتها «ضد قصف العراق» التي نشرتها في ١٩٩٨.

إن هذا التحليل المقارن يوضح، أيضا، التشابه بين وحشية المذابح الإسرائيلية الموثقة في أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان في ١٩٨٢، وما سجله شهود عيان من آثار حرب الإبادة ضد الشعب العراقي عن طريق العقوبات الاقتصادية، و«القنابل الذكية» التي وجهتها الولايات المتحدة إلى العراق إلى جانب ما سميت بالقنابل الأسمنتية، وهو ما يذكّر بتبريرات حلف الناتو لتدمير يوجوسلافيا، فهذا «التطوير التكنولوجي» يتم تقديمه كذبا باعتباره لفتة «إنسانية» تقوم بها القوات العسكرية الأمريكية، في محاولة للحد من «الدمار

المصاحب للعملية العسكرية»(١٦) ، في إطار عملية مراقبة الشمال، فقد أعقب القصف فوق «منطقة حظر الطيران»، الهجوم الأمريكي البريطاني في ديسمبر ١٩٩٨ الذي تم قبل رمضان مراعاة «للاعتبارات الثقافية».

ومن خلال النضال العالمي من أجل رفع العقوبات ضد شعب العراق، تتأكد حتمية الاهتمام بفهم طبيعة القوى المهيمنة "عند التصدى لها بسلاح الحق"(١٧). وهنا تجدر الإشارة إلى الدعوة إلى «التحليل المنطقي» التي أشار إليها العالم المصري فوزي منصور، الباحث في الاقتصاد السياسي، في دراسة تكشف العلاقة الجدلية بين التطور الإقليمي العربي والنظام العالمي المعاصر، تحت قيادة الولايات المتحدة. ويحذر فوزي منصور من أنه «دون فهم متعمق لطبيعة العلاقة بين الصهيونية العالمية وإسرائيل، من جهة، وبين النظام العالمي المعاصر بقيادته الأمريكية، من جهة أخرى، ستبقى ظواهر مهمة قابلة للتفسير العقلاني الرشيد مثيرة للحيرة والدهشة، حتى لدى أكثر العقول لماحية، وستلقى تساؤلات مهمة مشروعة إجابات مجتزئة غير كافية. وبين هذا وذاك، ستجد الحركة الشعبية نفسها عاجزة عن فهم حقيقة ما تناضل من أجله أو ضده، ومعرضة للسير فى دروب فرعية تقود إلى التشتت والضياع»(١٨).

والسعي إلى مثل هذا الفهم وكشف السياق العالمي للعنف، يذهب بنا إلى ما هو أبعد من الخطاب القاصر حول «قضايا المرأة» الذي تختزل فيه حياة النساء العرب إلى تحليل التكوين الثقافي الذي يفرض عدم المساواة بين الرجال والنساء.

وهذه الدراسة تبحث في أوضاع المرأة العراقية في علاقتها بالدمار الذي انصب على المجتمع العراقي بأكمله، مستعينة بأعمال الباحثين المعارضين للعقوبات الاقتصادية وأبحاث الاقتصاد السياسي المعنية بالخصوصية التاريخية. وسوف نحاول تجنب الخلل الناتج من النظرة الجزئية التي حذر منها فوزي منصور، فنضع التغيرات التي عاشتها النساء ضمن التحليل الأشمل لتراجع التنمية في العراق الذي يرتبط بالحرب، والعقوبات الاقتصادية المفروضة من قبل مجلس الأمن، بدءا من ١٩٩٠(١٩).

ويعتمد التحليل المقدم على الأبحاث المنشورة وتقارير الهيئات المختصة في الأمم المتحدة وروايات شهود عيان، بالإضافة إلى ملاحظات الكاتبة المباشرة التي سجلت في أثناء مهمة للأمم المتحدة بالعراق، في خريف ١٩٩٧. وقد قامت الكاتبة بتكوين الجانب الأكبر من التحليل المتضمن في هذه الورقة خلال عملها كمستشارة، في أثناء الإعداد لتقرير اليونسيف حول حالة النساء والأطفال في العراق الذي نشر في ١٩٩٨.

العراق – العدو الجديد: طمس التاريخ وتبرير الإبادة الجماعية

قبل أن يصبح إدعاء فرانسيس فوكوياما («نهاية التاريخ») من الموضات الثقافية، كان التعتيم على التاريخ وطمسه يوظف سياسيا، كتبرير فكري للدمار والمعاناة البالغة التي جلبتها المشروعات الإمبريالية على شعوب العالم، من أمريكا الشمالية إلى جنوب إفريقية وإيرلندا وفلسطين وغيرها(٢٠). وعلى مدى العقد الفائت أصبحت مثل هذه الروايات اللا تارخية – التي تخفي حركة التاريخ ، وتقدم بعض حكايات وأحداث مختارة بديلاً منها – مادة لا غنى عنها ضمن أدوات العمل الإعلامي العالمي المضلل/ المعتمد على التكنولوجيا المتقدمة. وقد سعى الإعلام العالمي على شاكلة السي إن إنCNN إلى خلق رأي عام كوني يجمع على تأييد تدمير العراق، وجعل مستهلكي هذا النوع من الإعلام، في جميع أنحاء العالم، وقد أغرقتهم تحليلات «المتخصصين» المواكبة للأحداث، عرضة إلى مثل هذا الزيف الملفق بعناية. ففيما بدا أشبه بألعاب الفيديو، أضاءت سماء بغداد الصواريخ «كما تضاء شجرة عيد الميلاد» (على حد قول معلق لإحدى محطات التلفزيون الأمريكية)! وهكذا، برر الإعلام بتحليلاته المختزلة والمخلة قصف العراق وإعادته إلى «مرحلة ما قبل الثورة الصناعية»، باعتباره مجرد رد فعل على الغزو غير المشروع الذي قامت به القوات العراقية للكويت.

وقد مضى الآن عقد من الزمن على استعادة الكويت سيادتها على أرضها، وعلى المجزرة التي تمت على «الطريق السريع للموت»(٢١) ، حيث لقي الجنود العراقيون وغيرهم من المدنيين العرب وغير العرب حتفهم في عمليات قتل جماعي ذات مستوى عالٍ من التقنية، استخدم فيها اليورانيوم «المنضب»(٢٢). ومع ذلك، يظل الإعلام الأمريكي العالمي «الحر» يقدم اليوم التصورالمخل لذي تم تثبيته كمبرر للموت والدمار القادر عليه النظام العالمي «الجديد»، مثلما كان عليه وقت إعداد باحثي الصحة العامة الدوليين تقاريرهم الأولى حول حقيقة المحرقة البشرية في العراق، عام ١٩٩١ وهكذا، يتم إغفال منهج التحليل التاريخي لصالح الحكايات المنفصلة التي تبرر الحصار الاقتصادي المفروض على ٢٣ مليون رجل وامرأة وطفل هم سكان العراق، فتختزل الأسباب الحقيقية وراءتدمير العراق بما فيها تعمد «كسر إرادة الشعب» (٢٣) إلى سياسة «عقاب لصدام» على غزوه الكويت.و مؤخرا ورد قول مضلّل آخر على لسان وزير خارجية إدارة بوش الابن، ففي تصريح لكولن باول لشبكة سي إن إن، في ١٢ فبراير ٢٠٠١، قال فيه : "يجب علينا أن نستمر في القول للعالم إننا لسنا

ضد الشعب العراقي". أما فضح هذه المغالطة السافرة، فقد جرى في تعليق الخبير العسكري الأمريكي وليام آركين على موقع الإنترنت لجريدة الواشنطن بوست في ٢٦ فبراير ٢٠٠١، إذ يوضح آركين أن إقناع العالم بما صرح به باول سيكون صعبا، لكون الولايات المتحدة الأمريكية تستعمل سلاحا له "خصوصية في التأثير على المدنيين"، و هو نوع جديد من القنابل العنقودية (Joint Stand-Of Weapon) الذي يصفه آركين بأنه (يقذف ثم يترك)، و بذلك يبقى المدنيون عرضة إلى ضرره لفترة زمنية تتعدّى بكثير المدى الزمني للغارات الجوية. و يسجل آركين أن هذا السلاح قد استخدم بالفعل ضد العراق في عمليات القصف التي قامت بها الولايات المتحدة و بريطانيا على جنوب العراق في ١٦ فبراير ٢٠٠١. وترتبط مثل هذه الحكاية التبريرية لإبادة شعب العراق بأخرى، وهي ضرورة «محاصرة» النظام العراقي، لكونه يهدد جيرانه، كما يؤكد المسئولون الأمريكيون، مستخدمين - في بعض الأحيان إشارات عنصرية تنفي صفة الإنسانية، بل تضفي صفات شيطانية على الشخص مثل «وضع صدام في صندوقه مرة أخرى». وقد ذهب الرئيس السابق جورج بوش إلى أبعد من هذا عندما اعتبر تدمير العراق بمثابة عمل ديني. ففي يناير من العام الماضي، نقل عنه قوله إن قيام القوات الأمريكية بقصف العراق من القواعد الجوية في الكويت هو «عمل في سبيل الله».

وبرغم اعتراف المسئولين الأمريكيين، من أمثال مساعد وزير الخارجية مارتين إنديك (وهو شخصية بارزة في اللوبي الصهيوني)، بالدمار الشامل الذي تسببه العقوبات، فإنهم يستمرون في الدعوة إلى إبقاء الحصار الاقتصادي، سعيا إلى «تغيير النظام»، وهو الهدف الرسمي للولايات المتحدة(٢٤). وبرغم كل الأدلة، فإنهم ينفون أن «تكون العقوبات موجهة ضد الشعب العراقي»(٢٥). ولايزال جهاز الإعلام «العالمي» يقدم التبرير نفسه، وهو الغزو العراقي للكويت، تبريرا أيديولوجيا لإفقار المجتمع العراقي، وخلق جيل عراقي جديد ضعيف صحيا وعلميا ومهنيا، أما الجامعة العربية فدعوتها إلى لعراق «بتطبيق قرارات مجلس الأمن»، لا تقل خداعا، وإن كانت أكثر استفزازا بالنسبة إلى كاتبة هذه السطور.

وبعيدا عن التبريرات المعتمدة على حكايات مبتورة السياق، والخلاف حول صدقية بعض تصريحات «ليست للنشر»(٢٦) للمسئولين الأمريكيين، فإن مجرد نظرة خاطفة على السجل التاريخي العام، تستحضر للمحلل عناصر طويلة الأمد للسياسة الخارجية الأمريكية المتعلقة بالخليج تستحق التأمل الجاد لما تقدمه من توضيح أساس مأساة الإبادة الموجهة ضد العراق -، وإصرار المسئولين الأمريكيين والبريطانيين

على «ضمان استمرار العقوبات إلى مالانهاية»(٢٧). ومثال على ما يمكن استنتاجه من مراجعة مثل هذه المادة هو فائدتها في «فهم» رد مادلين أولبرايت الشهير على سؤال الصحفية ليسلي ستاهل، في برنامج «معاقبة صدام» الذي أذاعه تلفزيون سي بي إسCBS ، في مايو ١٩٩٦. ففي إشارة إلى العقوبات التي تفرضها الولايات المتحدة على العراق، قالت ستاهل «سمعنا أن نصف المليون طفل قد لقوا حتفهم. . أي إن عدد الأطفال القتلى أكثر منه في هيروشيما. ألا ترين في هذا ثمنا باهظا؟» وكان رد السيدة أولبرايت (وكانت وقتها مندوبة الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة التي تتبعها الهيئة المختصة بالأطفال - يونسيف)، «أعتقد أن الاختيار صعب للغاية، لكن الأمر يستحق، في رأيي، مثل هذا الثمن»(٢٨).

ويمكن استيضاح «الثمن» الذي أشارت إليه أولبرايت، بالنسبة إلى الأمهات العراقيات، من خلال تقرير اليونسيف الصادر في أغسطس ١٩٩٩، تحت عنوان« وفيات الأطفال والأمهات» إن هذه الوثيقة الصادرة عن الأمم المتحدة تكشف عن أن معدل وفيات الأطفال ممن هم دون الخامسة زاد على الضعف، في المناطق الخاضعة للحكومة في وسط وجنوب العراق، خلال ما يقرب من عقد من العقوبات (من ٥٦ في الألف في ١٩٨٤ - ١٩٨٩ إلى ٩١,٥ في ١٩٨٩ - ١٩٩٤ و١٣٠,٦ في ١٩٩٤ - ١٩٩٩). ولكن حتى هذه الأدلة المرعبة استخدمت من قبل وزارة الخارجية الأمريكية لتبرير استمرار الحصار الاقتصادي، وتوجيه اللوم إلى رئيس العراق الذي كان يوما حليفا ضد «الشر» الإيراني. فوزارة الخارجية تستخدم منطقا خادعا، يعتمد على أن المحافظات الشمالية للعراق (التي لا تقع تحت السيطرة الحكومية) أظهرت انخفاضا في مسح اليونسيف الذي بيّن أن معدل وفيات الأطفال، ممن هم دون الخامسة، في هذه المناطق من العراق الذي كان ٨٠ في الألف في ١٩٨٤ - ١٩٨٩ وارتفع إلى ٩٠ في الألف في ١٩٨٩ - ١٩٩٤، انخفض إلى ٧٢ في الألف في ١٩٩٤ - ١٩٩٩. ويتضخيم هذا الفارق المبتور السياق حول اختلاف معدل الوفيات في المناطق الخاضعة إلى سيطرة الحكومة والمناطق ذات السيادة المستقلة عن بغداد، تكون وزارة الخارجية قد أطلقت سحابة الدخان للتضليل المغلف بالـ «حقائق» العلمية .

وفي معرض الرد على إساءة استخدام العلم لخدمة إعادة استعمار الوطن العربي، تجدر الإشارة إلى تعليق ريتشارد جارفيلد، أستاذ علم الأوبئة في جامعة كولومبيا، حول تبريرات وادعاءات وزارة الخارجية لحرب الإبادة ضد الشعب العراقي. ففي خطاب إلى محرر صحيفة

النيويورك تايمز في ١٣ أغسطس ١٩٩٩ كتب جارفيلد:

تدعي وزارة الخارجية أن المعدل الأقل لوفيات الأطفال في كردستان العراق دليل على أن صدام حسين، لا العقوبات، هو المشكلة... ولكن الحصار الاقتصادي للشمال ليس هو ذاته المفروض على بقية أنحاء العراق - كما يدعون. فشمال العراق يتمتع بحدود ومنافذ مع تركيا وسورية وإيران، (إذن)،

فالحصار الاقتصادي هناك أقل إحكاما من بقية أجزاء البلاد. والشمال يتلقى مساعدات من ٣٤ منظمة غير حكومية ، في حين تقدم ١١ منظمة مماثلة فقط دعمها لباقي أنحاء العراق. كما أن نصيب الفرد في الشمال من برنامج النفط مقابل الغذاء أعلى بنسبة ٢٢٪، وتتلقى المنطقة ١٠٪ من المعونات من خلال الأمم المتحدة على شكل أموال نقدية، في حين تتلقى بقية المناطق معونات عينية فقط. وقد بدأ معدل الوفيات بالانخفاض في جميع أنحاء العراق، نتيجة وجود الطعام والدواء ومضخات الماء ولكن مضخات الماء لا يمكن أن تكون صحية حينما لا تملك السلطات الأموال لشراء الرمال ودفع أجور العمال وغيرها مما تتطلبه مشروعات تنقية المياه. والأمم المتحدة توافق على شراء السلع وتوزيعها في الشمال

لوحة زيتية : «فتيان وبطيخ» للفنان العراقي جواد سليم
وصورة فوتوغرافية لفتيان من العراق لربيع بشور

أسرع بكثير مما تستغرقه موافقتها على عمليات مماثلة(لاستخدام الأموال العراقية) في الجنوب أو الوسط. ويتعامل مجلس الأمن مع شعب هذه المنطقة من العراق باعتباره بريئا، وهي المعاملة التي يستحقها، أيضا، عشرون مليون مدني هم مواطنو جنوب ووسط العراق.

أما التعليق الرسمي لليونسيف على تقريره، فقد أشارت فيه كارول بلامي المديرة التنفيذية للمنظمة إلى أنه «لو كان الانخفاض في معدل وفيات الأطفال في العراق في الثمانينات قد استمر على مدى التسعينات لكنّا تجنبنا موت نصف المليون من الأطفال ممن هم دون الخامسة في هذا البلد ككل، في الثماني سنوات ١٩٩١ - ١٩٩٨»(٢٩).

وبالقدر نفسه من اللاأخلاقية التي اتصف بها تعليق أولبرايت المشين («الأمر يستحق هذا الثمن»)، جاء تعليق وزارة الخارجية على تقرير اليونسيف في أغسطس ١٩٩٩، فاعتبرت ما ورد فيه «مسئولية صدام»، وإن كان بالإمكان «فهم» رد الخارجية، إذا ما رجعنا قليلا إلى التاريخ، إذ نتبين بوضوح العناصر التالية لتجهيزات وجود عسكري أمريكي دائم في الخليج قبل غزو العراق للكويت في أغسطس ١٩٩٠:

* مذهب كارتر، وفكرة قوة الانتشار السريع التي ظهرت في السبعينات، وكان الخليج الهدف الأساسي لها.

* شهادة إلى لجنة الخدمات العسكرية بمجلس الشيوخ في ١٩٨٠، تربط بين «اعتماد العالم الحر على إمدادات الطاقة من هذه المنطقة المحورية» وخطر القلاقل الإقليمية والداخلية، وخاصة «القومية المتطرفة».

* تقرير سياسة الأمن القومي إلى الكونجرس في مارس ١٩٩٠ (أربعة أشهر قبل غزو العراق للكويت) الذي نبه إلى أنه من «الأرجح أن الحاجة إلى استخدام القوة العسكرية (للولايات المتحدة) لن تكون لمواجهة الاتحاد السوفيتي، بل العالم الثالث، حيث يكون استخدام القدرات والأساليب الجديدة مطلوبا»(٣٠).

* يتضح مما نشر في مجلة نيوزويك (عدد ٢٨ يناير ١٩٩١) أن التحضير لتوجيه ضربةإلى الجيش العراقي بدأ قبل دخوله الكويت. ففي يونيو ١٩٩٠، أي قبل شهرين من الغزو، أشرف الجنرال نورمان شوارزكوف على تدريبات حربية لآلاف من القوات الأمريكية ضد فرق مدرعات عراقية. وتؤكد صحيفة الواشنطن بوست (عدد ٢٣ يونيو ١٩٩١) أن المناورات العسكرية التي أقيمت على أرض قاعدة شو للطيران، في ولاية نورث كارولينا في يوليو ١٩٩٠، كانت قد «حددت ٢٧ هدفا استراتيجيا في العراق، حسب قول أحد كبار مسئولي المخابرات الأمريكية».

ومن خلال رصد تاريخي

دقيق للسياسة الخارجية الأمريكية تجاه العراق وغيره من بلدان العالم الثالث، يتساءل براين ويلسون عضو جماعة المحاربين القدامى للسلام (في مقال منشور على شبكة الإنترنت في ١٩٩٨) «من يوقفنا؟»، وفي ردّه يلاحظ أن الفكرة الأساسية المحركة بقوة وحسم للسياسة الخارجية الأمريكية، تاريخيا، كانت التأكيد على ضرورة ضمان حرية الحركة لقوى السوق «الحر» وتوسعها في العالم الثالث، ومن ثم ضمان استمرار المكاسب المادية الهائلة التي تجنيها الشركات العالمية. ونمط الحياة الأمريكي» وبالفعل فإن رصد المهام التدخلية للولايات المتحدة على مدى القرن الماضي، يكشف عن أن تدمير العراق ويوجوسلافيا من بعد (بدعوى تجنب «كارثة إنسانية»!!!) ليس إلا ما يظهر من جبل الجليد. فالعلاقة بين المصالح العالمية الخارجية والعنف الداخلي الذي تلعب فيه الولايات المتحدة دورا ليس هينا في عدد من «مناطق الاضطرابات» حول العالم، هي علاقة ثابتة ومؤكدة(٣١).

ومع النظر إلى المصالح العالمية ، يمكن فهم رد الفعل الموحد والدائم للمسئولين الأمريكيين على الكارثة الواقعة في العراق باعتبارها «مسئولية صدام»، وإصرارهم على الإبقاء على الحصار الاقتصادي. وفي هذا الشأن كتبت صحيفة الواشنطن بوست في ١٥ يوليو ١٩٩٩:

أجمع المسئولون الحكوميون على أن عدم وجود المفتشين (على الأسلحة) أفضل من التنازل بأي شكل «فالوضع الراهن»، على حد قول أحد المسئولين الحكوميين، «يتميز بالحفاظ على العقوبات الاقتصادية»، ويضيف أن المنتمين إلى الجانب الآخر الذين يزعمون أن العراقيين يعانون حرمانا شديدا بسبب العقوبات، يبالغون في رواياتهم.

ويعتبر رمزي كلارك من مركز الحركة العالمية، وكان وزيراللعدل في السابق، ممثلا «للجانب الآخر» ، يعتبر أن المحرقة البشرية الناتجة من العقوبات «جريمة ضد الإنسانية» ، ومن ثم خرق لميثاق الأمم المتحدة المناهض للإ بادة الجماعية.

وكتجسيد ل «العولمة»(٣٢) ، في إطار النظام العالمي «الجديد»، فإن «المصلحة القومية» للولايات المتحدة تتضمن الآن القضاء على القطاعات الإنتاجية الوطنية للآخر المستهدف، وإلغاء دولة الرفاه، بحيث تكون الغاية النهائية هي خلق ملاذات آمنة للاستثمار «الحر»، بما يضمن «رفاهية الشركات العملاقة» - على حد تعبير الداعية رالف نادر. ويتم تحقيق هذا بطرق عديدة(٣٣) تتراوح بين «الأساليب السلمية» ممثلة في برامج التكيف الهيكلي الداعمة للاقتصاد «الحر»، واستخدام العقوبات الاقتصادية، الذي يمثل في حالة العراق سلاحا للدمار الشامل(٣٤).

والعراق ليس إلا واحدا من المجتمعات التي استهدفها نظام العقوبات الاقتصادية. ففي مقال بعنوان «موقف من العقوبات الاقتصادية» طرح في نشرة Fellowship of Reconciliation الصادرة في نوفمبر/ ديسمبر ١٩٩٨، يشرح جون سوملي كيف أن الولايات المتحدة انتهجت لسنوات عديدة سياسة فرض العقوبات الاقتصادية على البلدان الأخرى. ففي عهد الرئيس كلينتون، تم فرض ما لا يقل عن واحدة وستين عقوبة اقتصادية. وفي الوقت الحاضر، هناك «واحدة وعشرون عقوبة مطبقة أو يتم التهديد بتطبيقها، كلها أو بعضها، على ما يزيد على خمس وسبعين دولة، طبقا لرئيس مجلس التصدير» وفي ما يتعلق بفرض العقوبات على العراق لا توجد حاجة لتخمين دوافع الحكومة الأمريكية. ففي تعليقه على تبرير السيدة أولبرايت الشهير للإبادة « الأمر يستحق هذا الثمن». يرى إلياس دايفيدسون أحد المدافعين عن السلام من إيسلند أن «الهدف من العقوبات ينعكس في نتائجها». وقد كان من النتائج الأساسية للعقوبات المفروضة على العراق تحويله إلى «أمة للبيع» مثلما وصفت باربرا نمري عزيز المذيعة وباحثة الأنثروبولوجيا العقوبات على العراق. وهي تكشف كيف «أفسحت الحرب والحصار الاقتصادي الطريق أمام الخصخصة». ومن ناحية التمايز الطبقي، «فالاتجاه إلى الاقتصاد الحر يتجلى في تعاظم الفقر وليس الثروة»(٣٥).

هدم تنمية العراق: حياة النساء في سياقه

إننا بصدد تدمير مجتمع بأكمله. هذا هو الأمر بكل بساطة وبشاعة. وهو عمل غير شرعي وغير أخلاقي. دينيس هاليداي، مساعد الأمين العام للأمم المتحدة سابقا، منسق الشؤون الإنسانية في العراق.

نظرة عامة

جاءت حرب الخليج الثانية ١٩٩١ بعد النزاع المسلح الطويل بين العراق وإيران، ومع نظام العقوبات الذي تبع هذه الحرب تحول العراق تحولا جذريا. انحدر العراق من بلد كانت مؤشرات التنمية البشرية فيه من أعلى المؤشرات في المنطقة العربية، وأعلى من مثيلاتها في الدول النامية، إلى وطن لتجمعات من البشر تم إفقارها ماديا ومهنيا وعلميا. ولأنها أعقبت سنوات من الحرب مع إيران، فقد كان للعقوبات الاقتصادية المفروضة على العراق تأثير سيئ للغاية على الشعب العراقي، حيث خلقت مخاطر عديدة هددت وجود هذا الشعب بأكمله، من ناحية الصحة والتعليم والضمان الاجتماعي. ويمكن القول إن هذه المخاطر لا تقتصر على العراق وحده. وبالفعل، فبعضها إذا تم تناوله كل على حدة ليس بالغريب على مناطق أخرى في العالم، بما فيها المنطقة العربية. ولكن برغم صحة هذا الادعاء، فإن مثل هذه النتائج المستقاة من

مقارنة جامدة تغفل طبيعة التنمية الاجتماعية في العراق في العقدين السابقين على فرض العقوبات.

ففي إطار ارتفاع أسعار البترول، نعم الشعب العراقي بدولة الرفاه. وطبقا لوحدة استقصاء مجلة الإيكونميست، «كانت دولة الرفاه في العراق، وحتى وقت قريب ،الأكثر اتساعا وكرما في العالم العربي... فكانت تضمن للعراقيين أعلى معدل استهلاك سعرات حرارية للفرد في الشرق الأوسط، بحلول نهاية الثمانينات»(٣٦). وبحلول ١٩٩٠، كان مؤشر التنمية البشرية للعراق أعلى من جيرانها إقليميا. وكانت مصنفة في بند بلدان ذات «تنمية بشرية متوسطة» ، في التقرير الأول لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي في ١٩٩٠. كما استفاد العمال والمهنيون العاملون في العراق والقادمون من بلاد عربية أقل ثروة من هذا الرواج الاقتصادي.

وفي أعقاب حرب الخليج ١٩٩١، ساءت الظروف الاجتماعية في العراق بشكل سريع. ويعلق جون فيلد، من واقع متابعته المباشرة للوضع قبل وبعد الحرب في العراق، بالقول:

الوضع في العراق وضع متدهور بشكل سريع... في مجتمع عاش سابقا على مدى ثلاثة عقود تجربة تنمية ناجحة، حيث توفرت بنهاية الثمانينات، المياه النظيفة لـ ٩٢٪ من السكان ، وتوفر الصرف الصحي لنسبة من السكان أقل قليلا من هذا، أما الخدمات الصحية الحديثة، فقد كانت متاحة لعدد هائل من البشر بلغ ٩٣٪ من السكان وانتشرت شبكة من المراكز الصحية والمستشفيات التابعة للحكومة، في مختلف الأماكن، كانت مجهزة تجهيزا جيدا من الناحيتين البشرية والمادية وقادرة على خدمة المواطنين في أماكنهم، وإن كان داخل العيادات... فقد نجح العراق في تحويل الثروة البترولية إلى دعم التقدم الاجتماعي... فتوسع التعليم، وانخفض معدل وفيات الأطفال، كما زاد العمر المتوقع للفرد بقدر يستحق التقدير(٣٧).

وقد طالت آثار الحرب والعقوبات الاقتصادية التي دمرت البنية التحتية للصناعة الوطنية والصحة العامة، كل بيت وكل فرد. فغالبية الأسر العراقية تعاني نقص الطعام وسوء التغذية أو المرض. وقد كتب جون فيلد معلقا على هذا الارتباط بين وحدات المجتمع الصغيرة والكبيرة في علاقتها بالتحليل العلمي، قائلا:

دعوني أقول بعض الكلمات حول المقاطعة والعقوبات. وهذا ليس من ضمن عملنا كفريق متخصص (من جامعة تافتس واليونسيف)، ولكن لا يمكن التغاضي عن القضية(٣٨).

و«القضية» التي وجده جون فيلد أنها تفرض نفسها حتى

في ذلك الوقت المبكر، ١٩٩١، تتعلق بسلسلة متواصلة من التهديدات لحياة العراقيين مرتبطة بتدهور اقتصادي حاد. فطبقا لتقرير الإيكونميست «العالم في ١٩٩٩» ،بلغ إجمالي الدخل القومي للعراق ٥,٧ مليار دولار فقط مقارنة بنحو ستين مليار دولار قبل حرب الخليج ١٩٩١.

وقد أدى التحول الحاد في الأمن الغذائي في العراق واضطراب عمل مؤسسات القطاع الاجتماعي، إلى خلق مخاطر كان قد توفرت الحماية منها لأطفال العراق حتى ١٩٩٠. وبما أن رأس المال البشري من البالغين (نساء ورجالا) الذي تراكم عبر العقدين السابقين على العقوبات قد تجمد، إن لم يكن قد تبدد خلال عملية الإفقار العلمي والمهني فإن أية إمكانية لتعويض هذا عبر الجيل الجديد من العراقيين تظل محدودة للغاية.

عدم الأمان الغذائي

شهدت سنوات الحصار الاقتصادي تدهورا هائلا في قيمة الدينار العراقي. وفي تطور موازٍ، تفيد تقارير منظمة الاغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة بأن مؤشر القدرة الشرائية للأسرة العراقية في تدهور مستمر(٣٩). فقيمة مؤشر القدرة الشرائية للأسرة فيما بعد ١٩٩٠ أقل بكثير من ١,٢٥ ، وهو المستوى الذي تعتبره المنظمة مؤشرا لنقص الغذاء الذي تحصل عليه الأسرة. وفي هذا المستوى ينفق ٨٠٪ من دخل الأسرة على الغذاء. وعادة ما تضطر العائلات إلى بيع أثاث منازلها وإرسال الأطفال إلى سوق العمل المأجور بدلا من متابعة الدراسة.

وقد ساهم الاعتماد على الطعام المستورد كإحدى خصائص الاقتصاد العراقي، حتى وقت فرض العقوبات في أغسطس ١٩٩٠، في تزايد الأزمة الحالية التي سببتها العقوبات وطبقا لمنظمة الأغذية والزراعة، في تقييمها التقني لأثر الحصار، فقد ضعفت قدرة القطاع الزراعي، بسبب نقص الآلات الزراعية وعدم توفر المواد الأولية والتدهور العام في خدمات الري. فأصبحت مساحات واسعة من الأرض، بما فيها بعض الأراضي المستصلحة، مهمشة نتيجة لنقص المياه وارتفاع ملوحتها.

وكان من المتوقع أن يخفف قرار مجلس الأمن رقم ٩٨٦ الذي سمح للعراق ببيع النفط مقابل الغذاء في ١٩٩٦، حجم المعاناة ،مع افتراض أن هذه الإمدادات من الغذاء ستصل كاملة، وفي الوقت المناسب، ومقترنة ببعض الواردات المتعلقة بالصحة، مثل السلع المستخدمة في قطاع المياه والصرف الصحي وبعض الإمدادات الطبية. ولكن هذا التوقع لم يتحقق، ويوضح دينيس هاليداي مساعد الأمين العام للأمم المتحدة المسئول عن البرنامج (الذي استقال احتجاجا على العقوبات)، «أن المواد الغذائية الأساسية لم تكن

تتصف بالتوازن المطلوب ولا بالقيمة الغذائية الكافية، بحيث يمكن تحقيق تغير ذي مغزى».

وعمليا، فما المشروع «الإنساني» للنفط مقابل الغذاء إلا إجراء لتكريس الوهن والمرض الذي يعانيه سكان العراق. والقيود على استيراد المواد «ذات الاستخدام المزدوج» التي فرضتها لجنة العقوبات بالأمم المتحدة (لجنة ٦٦٦)، تؤدي في النهاية إلى منع الحكومة، فعليا، من إعادة بناء البلد وتوفير الطعام المناسب للشعب. أما قرار مجلس الأمن رقم ١٢٨٤ الصادر مؤخرا الذي اعتبر من قبل البعض بمثابة محاولة لرفع العقوبات ، فإنه لا يضع العراق خطوة واحدة على طريق إعادة البناء. ففي ظل السيطرة القائمة «للمجتمع الدولي» على اقتصاد العراق، تمنح قرارات الأمم المتحدة، واقعيا، قيادة هذا «المجتمع» (أي الولايات المتحدة) الحق في تحديد مسار «تنمية» العراق، بطريقة لا يوازيها إلا الحكم الاستعماري في العهود السابقة.

الخدمات العامة والصحة والتعليم

قبل ١٩٩٠، كانت عائدات النفط الكبيرة بالإضافة إلى الرخاء الذي وفرته لغالبية العراقيين تسمح بإنفاق حكومي كبير على المشروعات العامة. وتشير تفاصيل بنود إجمالي الدخل القومي في ١٩٨٩ إلى أن الاستهلاك الخاص شكل ٥٦,١٪، وتلاه الاستهلاك الحكومي الذي شكل ٣٢,٩٪. فقد كانت الثروة النفطية تمول عددا هائلا من مشروعات البنية التحتية للقطاع الاجتماعي التي كانت تخدم سكان المدن المتزايدين ،كما تخدم المناطق الريفية.

وكان العراق يملك شبكة متطورة للمياه والصرف الصحي تضمنت التجميع الآلي والتخلص من الفضلات صحيا. وتقدر منظمة الصحة العالمية أن ٩٠٪ من سكان الحضر والريف في العراق تمتعوا بقدر وفير من مياه الشرب النقية. ونتيجة لتدمير البنية التحتية في أثناء الحرب، فقد انخفضت تقديرات الأمم المتحدة في هذا الصدد الآن إلى ٥٠٪ من مستواها الأصلي، في المناطق الحضرية، وإلى ٣٣٪، في المناطق الريفية(٤٠).

وعلى مدى العقدين السابقين على تدمير العراق، كان التحسن في الحالة الصحية في العراق (المرتبط بأعمال صيانة الصحة العامة وأشكال أخرى من البنية التحتية للصحة) أكثر وضوحا في مؤشرات صحة الطفل، في الثمانينات. وهو ما رصدته اليونيسيف، من خلال تحليل البيانات التي تجمعت لديها في إطار مسح حول الأطفال والأمهات في ١٩٩٠، قامت به وزارة الصحة العراقية بالتعاون مع إسكوا واليونسيف ومنظمة الصحة العالمية، انتهى إلى أن العراق «شهد انخفاضا حادا في نسبة وفيات الأطفال». فقد وصل معدل وفيات الأطفال ممن هم دون السنة الواحدة ٤١ في الألف

في السنوات الثلاث السابقة على المسح (أي ١٩٨٧)، في حين وصل معدل وفيات الأطفال ممن هم دون الخامسة ٥١ في الألف في السنوات الأربع السابقة على المسح (أي في ١٩٨٦)(٤١).

أما تأثير العقوبات على صحة الأطفال وعلى حياتهم ذاتها، فلا يمكن وصفه إلا بالتأثير المأساوي . فبحلول أكتوبر ١٩٩٦ قدّرت اليونسيف أن ٤٥٠٠ طفل تحت سن الخامسة يموتون شهريا من الجوع والمرض. ومؤخرا لخصت مجموعة Iraq Action Coalition في الولايات المتحدة أثر العقوبات, كما عرضتها تقارير الأمم المتحدة على مدى العشر سنوات وقد وثقت هذه االتقارير زيادة في وفيات الأطفال تحت سن الخامسة بنحو ٤٠٠٠٠ (أربعين ألف) حالة وفاة, بالمقارنة بعام ١٩٨٩ (ترجع أسبابها إلى الإسهال والالتهاب الرئوي وسوء التغذية). أما من هم فوق الخامسة من العمر، فقد زادت وفياتهم بنحو ٥٠٠٠٠ (خمسين ألف) حالة وفاة سنويا، ترجع أسبابها إلى أمراض القلب وضغط الدم العصبي والسكر والسرطان وأمراض الكبد والكلى. وطبقا لتقرير لليونسيف في ١٩٩٨، فإن نحو ٢٥٠ شخصا يموتون يوميا نتيجة للعقوبات. وهذا الأثر المدمر للعقوبات على شعب العراق هو ما دعا وزير العدل الأمريكي السابق، رمزى كلارك إلى استخدام لفظ «إبادة جماعية» لوصف ما يحدث في العراق تحت الحصار.

وتعد صحة الأمهات من الأسباب الجديرة بالتوقف عندها في معرض تحديد الأسباب العديدة المتباينة التي تؤثر على حياة الطفل في العراق ، تحت العقوبات. فالقصور الصحي للنساء العراقيات البالغات سن الإنجاب، يتضح من خلال حالات سوء التغذية التي تتعاظم بسبب الإصابة بالملاريا التي وصلت إلى مستويات وبائية، في السنوات الماضية. ومن المعروف أن الملاريا هي أحد الأسباب الرئيسية للأنيميا التي ترتبط بالأمراض المتعلقة بالحمل. كما ينعكس نقص تغذية الأم مباشرة في الأوزان المتدنية لمواليدهن. وبالإضافة إلى هذا، فقد رصدت منظمة الصحة العالمية زيادة ملحوظة في حالات السل لدى النساء التي ارتفعت على مستوى البلد، من ٢٣٠٤ حالة في ١٩٩٠ إلى ١٠٣٢٠ حالة في ١٩٩٦. وهذه الزيادة بنسبة سبعة أضعاف لدى النساء هي أعلى بكثير من مثيلتها لدى الرجال ،حيث كان معدل الزيادة أقل نسبيا فبلغ ثلاثة أضعاف.

وقبل فرض العقوبات، كان الإنفاق الحكومي يدعم قطاع التعليم الذي كان يشمل الإناث والذكور في جميع مراحل التعليم، من الحضانة حتى الجامعة. وفي إطار السياسة الحكومية الداعمة لحقوق المرأة، فقد توفرت فرص شغل مناصب في القطاع العام للمرأة، بمقتضى

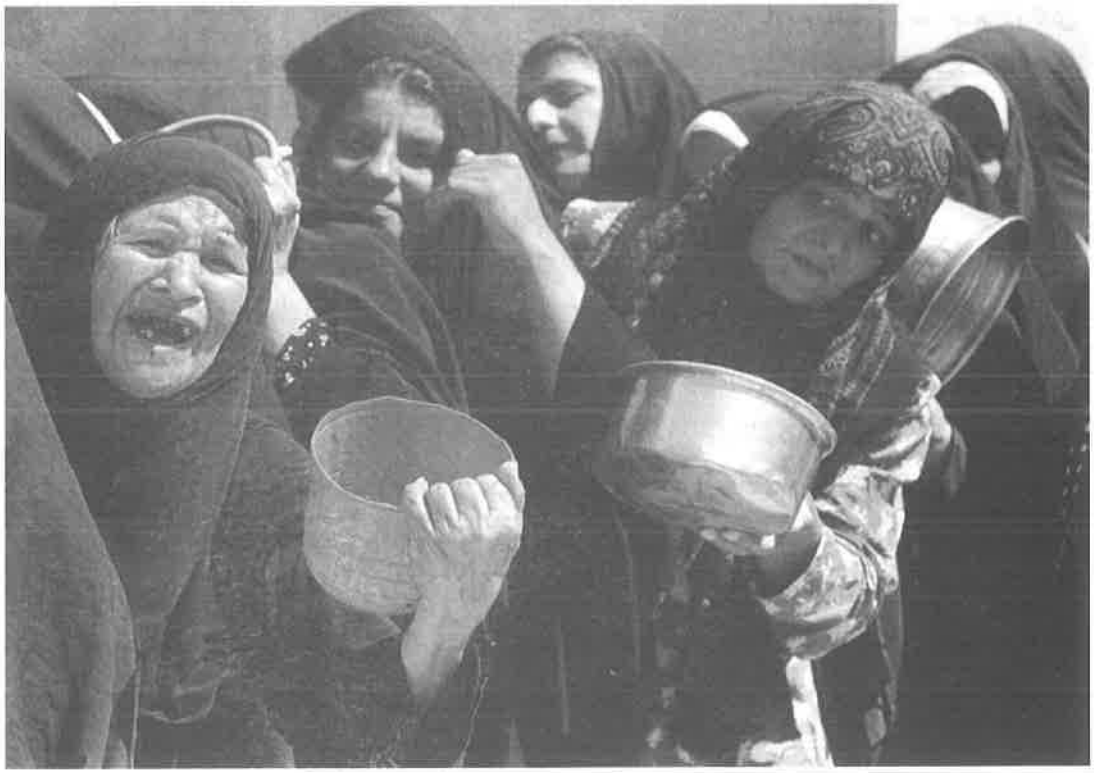

بدون تعليق . صورة لرمزي حيدر

القانون العراقي، بما في ذلك الوظائف التي تحتاج إلى تخصص مهني. وإن كان القانون لم يحمِ المرأة من الحدود المفروضة عن طريق «السقف الزجاجي» أو القيود الثقافية.

ويكشف تقرير الأمم المتحدة في مارس ١٩٩٩ حول الوضع الإنساني الراهن في العراق عن انخفاض حاد في نسبة الالتحاق بالمدارس، في كل الأعمار، يصل إلى ٥٣٪ من العدد المسجل قبل ١٩٩٠. فبالإضافة إلى تدهور المباني المدرسية، أشار التقرير إلى تقهقر نسبة الأمية إلى معدلاتها السابقة في منتصف الثمانينات. وتضمنت أشكال أخرى لـ «الإبادة الثقافية» (حسب تعبير هانز فان سبونك الذي خلف هاليداي في منصب منسق الشؤون الإنسانية في العراق، واستقال هو الآخر احتجاجا على الحصار) ،الانخفاض الحاد في معدل الحضور بالمدارس، وما يصاحبه من ارتفاع في أعداد عمالة الأطفال، وظاهرة أطفال الشوارع.

والتدهور في التعليم لا يشمل الانخفاض الحاد في مستوى التعليم العام فحسب، ولكن ما تمليه الضرورة على الأطفال من تحمل مسئولية عائلاتهم ماديا. فحتى تلاميذ المدارس، أصبح ملقى على عاتقهم المشاركة في الإسهام في ميزانية الأسرة. وأصبحت ظاهرة عمالة الأطفال ظاهرة ملحوظة في شوارع بغداد، مرتبطة بالتوسع في ما يسمى بقطاع الاقتصاد غير الرسمي. أما المصير الأسوأ، فهو الوصول إلى الجريمة، وهو مصير أصبح يهدد عددا متزايدا من الأطفال. وامتدت عملية تحويل قدرة الأطفال على العمل إلى سلعة - إلى تقديم الخدمات الجنسية - كما يرصد روبرت فيسك من صحيفة الإندبندنت.

الحرب و العقوبات الاقتصادية كأسلحة ماضية للدمار المادي والاجتماعي

شهدت سنوات الحصار الاقتصادي للعراق وما تمخض عنه من دمار لدولة الرفاه وانهيار القطاع العام، تصاعدا للحركة نحو الخصخصة (التي كانت قد بدأت في أثناء الحرب العراقية الإيرانية)، كما شهدت اتساعا للفجوة بين الأغنياء والفقراء:

بالتباين مع تنامي عدد الفقراء العراقيين، هناك دلائل على وجود طبقة محدودة لكن ملحوظة من التجار وأصحاب الأعمال تتكون من كبار التجار والمزارعين الذين يتحكمون بدرجة ما في توفير السلع التي يحتاجها البلد احتياجا ملحّا، خاصة السلع الغذائية والملابس وقطع غيار الأجهزة... وعلى المدى القريب، فإن الاتجاه الراهن يعني بِنية اجتماعية (جديدة) تتكونَ من أقلية غنية وطبقة وسطى متواضعة وأغلبية ساحقة في عداد الفقراء(٤٢).

ولقد أصبح السعي وراء الدخل الإضافي للأجور الوظيفية حتميا لاستمرار الحياة لدى كثير من العراقيين، وأصبح المهنيون، الرجال على وجه الخصوص، على استعداد لقبول وظائف كانت في الماضي لغير المتخصصين والأقل

كفاءة. ولكن الأغلبية ليس لها حتى مثل هذه «الفرص»، وبات من الشائع هجر الوظائف ذات الطابع التخصصي:

حتى إن مدرسا مثل علي، يتقن الإنجليزية، يعمل الآن بائعا متجولا، فهو يدفع بعربة خشبية يعرض عليها بضاعته من الزيوت العطرية، ويقول، بغير حماس، «دخلي كبائع أكبر، لقد كنت أملك سيارة وبيتا، وكان يتبقى لي في نهاية الشهر فائض من الأموال، وكنت أقوم بإجازة سنوية مع أسرتي. أما بعد الحصار، فلم أعُد أستطيع حتى شراء الطعام العائلي ». وفي جميع أنحاء العراق تقابل شبابا يعملون في قيادة سيارات الأجرة أو إصلاح الأجهزة أو بيع الفواكه أو إدارة المطاعم، كانوا في السابق محامين ومهندسي إلكترونيات ومصممي ديكور ومهندسين زراعيين ومتخصصين في علوم الغابات والآثار. في الماضي كان هؤلاء جميعا موظفين في الحكومة شكلوا طبقة وسطى كبيرة نسبيا. فقد كانت المتاحف التابعة للحكومة والمؤسسات ومراكز التخطيط والمدارس تستوعب الغالبية العظمى من المتعلمين، وكان التعليم بمستوياته المختلفة مجانيا. والآن، فإن هذه الطبقة من المتعلمين تختفي وهو الدليل الواضح على إفلاس الحكومة. فالمهنيون المدربون الذين كانوا أحد أهم الموارد الحكومية مطروحون الآن في الأسواق المفتوحة (المصدر السابق).

ومع التهديد القائم بالتدهور السريع للمستوى العلمي والمهني، هاجر الكثير من العراقيين، رجالا ونساء، بحثا عن العمل في المنطقة العربية وغيرها. ويقول هانز فان سبونك، المنسق السابق للشؤون الإنسانية للأمم المتحدة، متحدثا إلى وفد أمريكي من منظمة أطباء في سبيل المسئولية الاجتماعية، زار بغداد في صيف ١٩٩٩، تعليقا على «حالة استنفاد المواهب »/ «الهجرة في صمت » ، «إن من المرعب... ما يحدث لأشخاص متعلمين تعليما جيدا وليس لديهم أية فرصة للعمل بكل طاقتهم في مجال خبرتهم».

وبينما انخفض العدد الكلي للموظفين في القطاع العام بعد ١٩٩٠، فإن هذا الانخفاض كان محدودا بالنسبة إلى النساء (١١٪) مقارنة بالرجال (٢٥٪). وهذا التطور يشبه التكيف الاجتماعي لتكوين القوى العاملة الذي صاحب الحرب العراقية الإيرانية، وإن كان لأسباب مختلفة. فتحت الضغوط الاقتصادية القاسية، وما يتصل بما من تدهور شديد في قيمة العملة المحلية، يترك الرجال القطاع العام سعيا وراء نشاط يدر دخلا أعلى داخل أو خارج العراق. ولكن حركة النساء مقيدة أكثر في هذا المجال ،بسبب مسئولياتهن الأسرية والمنزلية. فمسئولية الإعالة - حسب العرف الاجتماعي لاتزال

تقع بالأساس على عاتق الرجال، في حين تعتبر مشاركة المرأة في دخل الأسرة مشاركة إضافية .ولأن دخل موظفات القطاع العام والأمهات منهن يعتبر ثانويا ، فإنهن يكنّ في وضع أفضل يسمح بالبقاء في وظائفهن الحكومية التي تتطلب ساعات عمل أقل نسبيا من قطاعات أخرى، كما يتمتعن بالحق في إجازة وضع مدفوعة الأجر وإجازات بدون مرتب، وهي المزايا التي تدفع النساء إلى الاحتفاظ بالوظيفة. وفى إطار الأزمة الاقتصادية الحالية، فإن مرتبات النساء قد تكون الملجأ الأخير لضمان بقاء الأطفال على قيد الحياة. ولكن هذا لا يحمي الأطفال من ترك المدرسة، حيث تفرض الظروف على مزيد منهم بيع قوة عملهم في السوق، أو حتى التسول الذي لم يكن موجودا من قبل.

وفي حين يضطر الأولاد في سن الدراسة إلى العمل في وظائف أو كبائعين للسجائر، مثلا، فإن البنات والنساء يقع على عاتقهن أعباء منزلية إضافية ترتبت على انهيار البنية التحتية لخدمات المياه والمجاري. وتعطينا جوني سيجر شهادتها:

في أعقاب حرب الخليج... أصبحت النساء في العراق وفي الكويت، حتى الحضريات اللائي لم يعهدن تجهيز احتياجات الأسرة من المواد الخام، أصبحن يقطعن الأخشاب ويحملن المياه. ويلاحظ تقرير موجز للأمم المتحدة من العراق، صدر بعد عدة شهور من الحرب، أن النساء والأطفال يقضون وقتا طويلا من اليوم في البحث عن الطعام والوقود والمياه، وعادة ما يضطرون إلى حمل هذه الأشياء لعدة كيلو مترات.

وتحت ظروف الحصار القاسية اضطرت النساء إلى اللجوء إلى طرق عديدة لزيادة الدخل(٤٣)، لتعويض النقص في دخول الرجال، وتضمنت هذه الطرق ما كان يعتبر فيما مضى غير لائق، فعلى سبيل المثال، تضطر وداد عبد اللطيف التي كانت تقتصر مسئولياتها قبل الحصار على رعاية البيت وأهله، إلى الوقوف على ناصية أحد الشوارع لبيع سندوتشات الفلافل:

لا يليق بامرأة أن تقوم بمثل هذا العمل ولكني مضطرة... أولادي يعملون في البناء حين يتوفر لهم العمل، ولكن بدون القروش القليلة التي أحصل عليها لن نتمكن من العيش. بناتي يمكثن في المنزل طوال اليوم. ولن يتمكنّ أبدا من الزواج ،مادامت ظروف الحصار مستمرة. فالرجال لا يستطيعون تحمل مصاريف الزواج الآن. أما النساء، فماذا يمكننا أن نقول؟ لا شيء! لا نملك إلا السكوت(٤٤).

ولكن إيمان محمود لا تسكت، وهي المدرسة التي كان راتبها قبل ١٩٩٠ يصل إلى

٤٠٠ دولار وأصبح يساوي الآن ما يقرب من ٢ دولار، تقول:

لقد غيّر الحصار أشياء كثيرة بالنسبة إلى النساء... لا يوجد عمل، ولذلك لا يقْدم الرجال على الزواج. بالكاد تستطيع النساء الحصول على الطعام والدواء، وفكرة الحصول على أي شيء جميل هي محض أحلام. عندما كنت صغيرة، كنت أنتمي إلى الطبقة المتوسطة وكنت سعيدة. الآن لا أستطيع أن أعيش شبابي. الشباب والرجال يستطيعون التأقلم أسهل منا، فهم أحرار في حركتهم، ويستطيعون الحصول على عمل وإن كان سيئا. لكن حركتنا نحن محدودة، فلا يمكن حتى أن نقوم برحلة، وهذا يسبب مشكلات نفسية كبيرة(٤٥).

وبسبب الأعباء المتزايدة الواقعة على المرأة (بما في ذلك المرأة العاملة) المرتبطة بالمعاناة الاقتصادية، فإن المشكلة لم تعُد متمثلة في تأخر سن الزواج ،بل إلغاء فكرة الزواج تماما. وتشير بعض التقديرات إلى أن ما يقرب من ٧٠٪ من العراقيين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٤٠ عاما غير متزوجين. وبالرغم من غياب الإحصائيات الدقيقة حول عدد الأسر التي تشكل النساء عائلها الأساسي، فمن الواضح أن مثل هذه الأسر تتكون من امرأة غير متزوجة تعول أبويها أو إخوتها الأصغر. وبالإضافة إلى هذا، فإن مثل هؤلاء النساء لا يتمتعن بالقدر من حرية الحركة والاستقلال النسبي الذي تتمتع به المتزوجات من النساء.

وقد أفقدت حرب الخليج وما أعقبها من فرض الحصار الاقتصادي على العراق، المؤسسات العامة القدرة على رعاية المسنين والمعاقين والأيتام، وغيرهم ممن يعانون من صدمات عصبية بسبب الحرب. وبخلاف مثل هذه الحالات التي تحتاج إلى المساعدة ولا يمكن حصرها بسهولة، فإن «العنف الأسري» المستتر داخل جدران المنازل يصعب رصده. وفي مثل الأحوال السائدة الآن في العراق، حينما يضعف الدور التقليدي للرجل كرب للأسرة وعائل لها، أو عندما يحدث تبادل في الأدوار وتصبح المرأة ربة الأسرة بحكم الأمر الواقع، تتزايد احتمالات اعتداءات الزوج على زوجته. وفي حالة العراق، يؤكد البعض أن ما يسمى بالعنف الأسري قد تفاقم بالفعل، بحكم الظروف الاقتصادية القاسية. كما تشير بعض التقارير إلى أن الرجال أكثر عنفا وقسوة مع الزوجات اللائي يلدن أطفالا مشوهين..و يلقي الرجال باللوم على الزوجات، بسبب تدهور صحة وتغذية الأطفال. ولا تبدو هذه التأكيدات بعيدة عن الحقيقة في ضوء الظروف الراهنة، حيث انهارت روابط العائلة الممتدة ففقدت النساء الدعم التقليدي الذي تقدمه. ومع التمايز الاجتماعي والاقتصادي الذي أحدثه الحصار والتوسع في الخصخصة، نجد

ظاهرة موازية وهي التمايز العرقي الذي يدفع باتجاهه، ضمن تطورات أخرى، بنية برنامج الأمم المتحدة للمساعدات «الإنسانية» ذاته، وهو ما يكرس التمايز بين جنوب ووسط العراق، من ناحية، والمحافظات الشمالية التي يسكنها الأكراد العراقيون من ناحية أخرى. وعلى خلاف البرنامج الحكومي لتوزيع الغذاء الذي ساوى في ما بين العراقيين جميعا، باعتبارهم مواطنين في أمة لها سيادتها، فإن سياسة برنامج النفط مقابل الغذاء ترتب بالضرورة، تفرقة إقليمية. وتكتب إيليا شوهات في معرض أفكارها حول هويتها كيهودية عربية:

الحرب... صديقة التمايز، تكاد لا تترك مساحة للهوية المركبة. فحرب الخليج - على سبيل المثال كشفت الضغط الموجود بالفعل على اليهود العرب... ضغط للاختيار بين أن تكون يهوديا أو أن تكون عربيا.

ونجد مثل هذا الرفض «للاختيارات» المفروضة لدى الأكراد العراقيين، أيضا.

وقد فرضت الحرب والحصار على كثير من الأطفال الرضع بالعراق هوية مميزة لم تكن معروفة قبلا وهي هوية «أطفال السكر» والأطفال المشوهين خلقيا. وقد كتب جون بيلجر حول زيارته للعراق في New Statesman، يقول :

ولفت الطبيب انتباهي إلى أطفال يسمونهم أطفال السكر. فأمهاتهم لا يستطعن الحصول على اللبن الصناعي للرضاعة، ولا يقوين على الرضاعة الطبيعية حيث إن جفّ لبنهن . والبديل هو السكر المذاب في الماء الذي يسبب الانتفاخ في أجسام الأطفال. والآن يموت الأطفال ممن هم دون الخامسة بمعدل أربعة آلاف طفل في الشهر الواحد، بسبب أمراض قابلة للعلاج، مثل الإسهال والنزلات المعوية.

ويبرز أحد الآثار العديدة المدمرة للحرب والحصار شاهدا على إجرام وإرهاب التكنولوجيا الحديث،ة وهو التشوهات الخلقية. وتعرض أوليفيا ورد من Toronto Star، في ١٤ فبراير ١٩٩٩، ما شاهدته من صور مرعبة لأطفال البصرة:

«ربما لن ترغبي في المشاهدة »، قالت وأصابعها تمسك بالغلاف الأسود لألبوم الصور. وينفتح الغلاف، بشكل أشبه بانفتاح غطاء تابوت في فيلم رعب، باستثناء أن الرعب الذي نشاهده هذه المرة حقيقي وواقعي. «هذا بدون رأس» ،تقول الدكتورة جنان غالب حسن مشيرة إلى كتلة من الأنسجة تشبه جسدا آدميا. وتقلب الصفحة ،«وهذا التصقت ساقاه الواحدة بالأخرى»، والتالي بدون أطراف، مجرد

نتوءات تبرز من صدر مشوّه، ربما كانت ستصبح ساعدين لو عاش ذلك الكائن الضئيل. ويليه وجه بلا عينين ، مجرد غطاء من الجلد فوق تجويف. وآخر ذو رأس ضخم منتفخ يخفي غياب المخ. وجسد آخر بدون الفتحات الطبيعية والأعضاء التناسلية، هؤلاء أطفال الحرب، كما تقول الدكتورة جنان، أصابت معظمهم طفرات يعجز الطب عن تسميتها أو تتبعها . يولدون أمواتا في المستشفى ويدفنون بغير اسم، يسجل عددهم فحسب. ويعتقد الأطباء والعلماء العراقيون أن هذه الطفرات نتجت بسبب القذائف المشعة التي انهمرت على البلد، في أثناء حرب الخليج ١٩٩١، والتي مازالت تؤثر تأثيرا شرسا على السكان أطفالا وكبارا.

وعلى مدى العقد الماضي، حصلت زيادة في جهود تحري وتوثيق الآثار السلبية لليورانيوم المنضب، ليس في العراق فحسب، ولكن، أيضا، على العسكريين من الجنسيات الأخرى الذين شاركوا في حرب الخليج(٤٦). وقد ارتبط اليورانيوم المنضب بزيادة ملحوظة في بعض الأمراض السرطانية. وأعرب إريك هوسكين عن قلقه من أن هذه المادة المشعة «قد تسبب أمراضا قاتلة، منها السرطان ومرض معوي غامض بدأ يشاهد في أطفال العراق»، يصفه بأنه «وباء ما بعد الحرب»(٤٧).

والأبحاث المتعلقة بالتعرض إلى اليورانيوم المنضب التي أجريت على سكان من نيومكسيكو، وبالمثل على المحاربين في حرب الخليج من الأمريكيين والبريطانيين والأوروبيين، بالإضافة إلى ما رصده العلماء العراقيون، كلها تؤيد وجود علاقة بين التشوهات الخلقية التي حدثت لأطفال العراق والتعرض إلى اليورانيوم المنضب. وهو الرأي المعقول، بالنظر إلى أن الأمراض المختلفة التي يصفها الأطباء العراقيون، والتي زادت منذ الحرب، هي نفسها التي رصدتها المجلات العلمية، في أبحاثها حول نتائج التعرض إلى اليورانيوم(٤٨) كما وثّق الأطباء العراقيون أعراضا لم يتم وصفها من قبل لمرض قاتل، من المحتمل أن يكون له تأثير مباشر على الجهاز المناعي. وظهرت التشوهات الخلقية والإجهاض في مراحل متأخرة من الحمل. وبالإضافة إلى هذا، ظهر أن هناك انخفاضا في عدد الحيوانات المنوية، وفي قدرتها على الحركة لدى الرجال العراقيين، ومعدلا أكثر ارتفاعا من الأشكال غير الطبيعية لها.

وهناك عدة أسباب تدعو إلى دراسة آثار اليورانيوم المنضب، أهمها على الإطلاق ضرورة التحرك الفوري لحماية العراقيين من مزيد من التعرض إلى الاشعاع، عن طريق تنظيف وإزالة مصادر اليورانيوم المنضب قدر الإمكان. فمن

الضروري أن يتحمل منتجو مستودع ذخيرة «القنبلة الذكية» المسئولية الأخلاقية لتصنيع التكنولوجيا المتطورة تلك. وتجدر الإشارة هنا إلى مقال نشر في عدد يوليو/ سبتمبر ١٩٩٨ في Veterinary Hospital Newsletter، يقول كاتبه:

بدأت وزارة الدفاع الأمريكية تقييما شاملا لتحديد الأمراض التي تعانيها الكلاب التي تواجدت في أثناء حرب الخليج. فقد وجدت هذه الكلاب في الظروف التي عاش فيها أفراد القوات المسلحة الذين يعانون أعراض مرض حرب الخليج.

ولكن يبدو أن العراقيين تحت الحصار لا يستحقون العناية الطبية التي تتلقاها «الكلاب العسكرية» العاملة في وزارة الدفاع الأمريكية.

وباستعراض مختلف أشكال العنف التي تعرض إليها العراقيون، يصبح من الواضح أن العقاب الجماعي من ضربات عسكرية وحصار اقتصادي، على مدى عقد من الزمن، لم تكن موجهة ضد نوع جنسي أو عرقي أو ديني بعينه. فالحصار الاقتصادي **تلك الأداة الفظة للإبادة الجماعية**، دمرت حياة غالبية الناس صغارا وكبارا، رجالا ونساء، أكرادا وعربا، مسلمين ومسيحيين، سنيين وشيعيين. وتكشف الضربات الجوية المنتظمة لما يسمى بـ «منطقة حظر الطيران» التي سببّت موت أهالي المنطقة من الشيعة (في الجنوب)، كذب الادعاء بأن الهدف من حظر الطيران في هذه المنطقة هو حماية سكانها. كما تفضح كذب ونفاق المسئولين الأمريكيين وما ذرفوه من دموع تماسيح «تأثرا» بنكبة الأكراد الذين يموتون، رجالا ونساء وأطفالا، طوال الوقت على يد الجيش التركي المتحالف مع الولايات المتحدة والناتو. بل إن الأمم المتحدة تلتزم الصمت إزاء الغزو المنتظم الذي تقوم به تركيا لشمال العراق لمطاردة الأكراد.

ومع استمرار حرب الإبادة، وتزامن الذكرى الخمسين للإعلان العالمي لحقوق الإنسان مع العام التاسع للحصار الاقتصادي المفروض على العراق، تثار الأسئلة حول دور الأمم المتحدة في إطار النظام العالمي «الجديد». وبالتحديد، تتعلق الأسئلة بالاتفاقيات «الدولية» للأمم المتحدة المتعلقة بالطفل والمرأة، خاصة إعلان حقوق الطفل، وميثاق إلغاء كل أشكال التمييز ضد المرأة. والمؤسف إنه بعد سنوات من تناول المرأة العربية بالبحث، مازال البحث الاجتماعي العالمي المرتبط بفكرة «تمكين» المرأة عاجزا عن تقديم إجابات، من خلال الأدبيات المعادية للاستشراق في الدراسات النسوية.

مناقشة: تجاوز معاداة الاستشراق في الدراسات النسوية والجنوسية

أحيانا يتركز فضول الباحثين بإصرار على صيغ ومشكلات محددة متجاهلين ما عداها: ومن

المتوقع وجود مساحات متناثرة لا يلتفت إليها، بحكم أنه من المستحيل الالتفات إلى كل شيء مرة واحدة. ولكن التناسي الدائم والمنظم مربك. فقصر النظر المستمر، والانتقائية، والتجاوز عن التناقضات لا تكون عادة مجرد دلائل على ضعف (التحليل) بقدر ما هي دلائل على نية مبيتة لحماية قيم معينة، وما يرتبط بها من أشكال مؤسسية .ماري دوجلاس ١٩٨٥(٤٩).

ويتباين وضوح ما أسماه فرانز فانون ب «العنف في السياق العالمي» الذي يتسق مع قصيدة جوردن التي افتتحت بها هذه الدراسة، مع التهميش النسبي لمصادر العنف الخارجية في الإنتاج العام للدراسات «النسوية» العالمية، للمجتمعات العربية. فهذا النوع الأخير من العنف عادة ما يطغى عليه، في تلك الدراسات، الأشكال الداخلية للعنف، بطريقة تذكرنا بما اصطلح على تسميته في الإعلام العالمي «عنف السود ضد السود»، في فترة التفرقة العنصرية في جنوب إفريقية. وبرغم الهجوم الذي يبدو لانهائيا على التصور الاستشراقي(٥٠) ، فإن العنف المرتبط تاريخيا بخلق علاقات القوى المتضمنة في هذا المفهوم الراسخ وإعادة إنتاجها، لا يشكل جانبا بارزا في أدبيات الدراسات الأكاديمية الدولية حول المرأة العربية. فهذه الأدبيات - بشكل عام - لم تظهر حتى الآن التزاما جادا بالربط بين مظاهر المعاناة الجماعية المحددة زمنيا ومحليا والتطورات العالمية، وما يتبعها من أشكال العنف.

فلا يمكن اعتبار التناسي الدائم لقضايا العنف المرتبط بالقوة المفرطة للنظام العالمي «الجديد» ونظيرتها الإقليمية أي الكيان الاستيطاني الصهيوني، مسألة إغفال لما هو غير ذي قيمة بالنسبة إلى البحث العلمي، إنما يمكن فهم هذا الإغفال في ضوء الانتماءات المؤسساتية للباحثين وطموحاتهم الوظيفية، كما يشرح لنا بول فارمر:

يقولون لنا إن الحديث عن استخدام القوة على نطاق واسع، أو الفقر أو العنف أو -لا سمح الله - الإمبريالية، ينفّر الناس. ولكن الناس الذين ينفرون من مناقشة الاقتصاد السياسي لمنطق القوة هم عادة نحن أنفسنا: أناس يملكون النيّات الحسنة لتغيير الأوضاع، ولكنهم، في الوقت نفسه، مدينون لمؤسسات السلطة. فهناك ضرورة للتفكير على المستوى المحلي والعالمي، وللفعل، استجابة لهذين المستويين من التحليل. وهذا الإدراك يتضمن التزاما بالدراسة وبالتحليل، وبربط عملنا البحثي والعلمي بالمجهودات كافة التي يقوم بها هؤلاء المعرضين إلى انتهاك حقوقهم ومصالحهم. علينا أن نحمل على عاتقنا دراسة الاقتصاد

السياسي لمنطق القوة، وأن نتحدى بعد ذلك القوى والبنى الاجتماعية التي تدعم استمرارها (٥١).

وفي العراق، مثلما في غيره، لا يمكن لفكرة «وحدة كل نساء العالم كأخوات»، وبالمثل الاتجاه لإبراز «صوت» الآخر/ المرأة (من خلال الحكي الشخصي وسير الحياة)، لا يمكن أن يكون هذا بديلا من الدراسة الجادة والنضال ضد عنف النظام العالمي «الجديد» وتوجهه «الإنساني».

وتكشف نشاطات وأدبيات المنظمات الدولية المعادية للعقوبات الاقتصادية والمجموعات المناهضة للحرب عن أن العقاب الجماعي الذي تنطوي عليه العقوبات الاقتصادية، ويقترف ضد العراقيين (بمن فيهم النساء) ليس إلا واحدا من أشكال عديدة للعنف الإمبريالي. وعليه، فإن الأدبيات السياسية الصريحة لمنظمات من مثل International Action Center، ومقرّه نيويورك، تمدنا مشكورة ببديل من الميوعة السياسية لكثير من الدراسات «النسوية» المتركزة على المرأة. ففي النوع الأخير من الدراسات، يظل الوعد بتقديم تحليل كلي غير متحقق فيما يخص الأصول الاجتماعية وآليات العنف الخارجي المرتكب ضد الآخر العربي. ومن هنا، فليس هناك ما يدعو إلى التفاؤل جرّاء الحكايات الشخصية وسير حياة النساء الرائجة في الوقت الحاضر (التي تعمل على إخراج صورة إنسانية بديلة من الصورة المسيئة للعرب في الدراسات الاستشراقية)، وما ارتبط بها من دعوة إلى «الكتابة ضد الثقافة». وسواء فيما يتعلق بالعنف أو غيره من الظواهر، فإن هذه الاتجاهات لا تشجع الكتابة حول مفهوم الثقافة باعتباره مفهوما تاريخيا واجتماعيا. ولا تساهم مثل هذه الاتجاهات في رقي المناظرات التفسيرية أي النظرية (٥٢) التي تمثل جوهر العمل العلمي، وتبقى خاضعة للإثبات أو النفي. وببساطة، فهذه التوجهات لا تستطيع تقديم ردود مقنعة على السؤال الذي طرحته أم عراقية على أحد أعضاء البرلمان الكندي، في زيارته الثانية للعراق: «لماذا تقتلون طفلي البريء» (٥٣).

وإعلاء قيمة التركيز على الحاضر المبتور السياق والتحليل الوقتي (والمرتبط باتجاه الحكايات الشخصية) على منهج التحليل العملياتي، يستبعد من أبحاث الدراسات النسوية والجنوسية علاقات مهمة بين التطورات المعاصرة وجذورها التاريخية. وبغير فهم للتطور التاريخي لفكرة «الشرق الأوسط» ذاتها، باعتبارها مفهوما استراتيجيا وليس مجرد مفهوم جغرافي، فلن يتمكن الباحثون لا من تفسير استمرار فرض العقوبات الاقتصادية على العراق (بعد سنوات من سحب

قـــواته من الكويت)، ولا من تفـســيـر التطورات في أجـزاء أخرى من المنطقة. وليس أقلها مظاهر عنف العولمة التي تفـقـر المنطقـــة، في مــقـــابل الأرباح الهائلة التي تجنيها الشـركـات العالمية من الثروات الطبيعية العربية.

ونجـد في أعـمـال أنجـيــلا جيلمان وهي باحثة أنثروبولوجية أمـريكيـة من أصـول إفـريقـيـة، بديلا

منهـجـيـا شـامـلا (تاريخيا/عـملياتيا) يتجاوز التحليل المحـدود الأبعـاد للروايات الشخصية، وما يصدر عنهـا من تصـوير للعـرب في شكل أكثر إنسانية، فهي تقدم دراسة أنثـروبولوجـيـة للعـراق(٥٤) الذي استـهـدفـه عنف العـسكرية الأمـريكيـة المتطورة، وحـاول تقـديمه كـأنه الشيطان مجسدا إنها دراسة تشهد بحق على قدرة هذا العلم على الدراسة المقارنة. و تدعـو البـاحـثـة في دراسـتـهـا إلى استخدام «التحليل المتوازي»، وتحث الباحثين «على تعمد... (تطبيق) الأدوات والتصنيفات الفكرية التي يطبقونها على الشعوب التي تعتبر المادة التقليدية للدراسة الأنثروبولوجية، على المجتمعات الغربية».

وهناك بديل آخر يدعو إلى الترحيب ويختلف عن الاتجاه الشائع لتقديم العرب إنسانيا الذي يقوض التحليل الجاد للسياق التاريخي العالمي المرتبط، في الأساس، بالصورة غير الإنسانية، وهو الاتجاه الذي تتبناه الأنثروبولوجية روزينا حسون، وهي أمريكية من أصل فلسطيني. فالباحثة ترى أن ما يحدث في العراق من موت ودمار «أشد تعقيدا بمراحل من منطق رعاة البقر الذي يقسم البشر إلى خيّرين وأشرار (إضافة) ربما إلى ضرورة تحليل الثقافة الأمريكية(٥٥) وقد قام بذلك بالفعل النشطاء والباحثون المعادون للعقوبات، عند تناولهم لحرب الخليج وحرب الإبادة عن طريق الحصار. ففي تحدٍ لازدواجية نظري/ تطبيقي وبحثي/ سياسي ، تم كشف ما يحدث في العراق المحاصر، باعتباره أول ضحية للنظام العالمي «الجديد» الذي تقوده الولايات المتحدة(٥٦) حتى إن الصحافة الأمريكية المحتكرة من قبل شركات الإعلام تقدم إلى قرائها الآن مفاهيم - مثل «الثقافة المفترسة» و«ثقافة العنف» - لوصف الولايات المتحدة، وإن كانت لا تقدمها بصفتها كدولة إمبريالية. وفيما يخص المرأة بالتحديد يكشف تقرير صادر في ١٩٩٤، اعتمادا على إحصاءات وثائق المحاكم أن امرأة واحدة تموت كل ست ساعات نتيجة عنف الأزواج في الولايات المتحدة».

وسواء تعلق الأمر بالأبحاث التي تركز على نساء العراق تحت الحصار، أو على غيرهن من النساء العرب، فإنه لا

يكفي أن يتم إخضاع دراسات بعينها إلى التقييم النقدي. والمطلوب وبشكل عاجل هو دراسات تتحدى برامج العمل البحثي العالمية، وتحديد واعٍ لأوليات البحث. وفي هذا الصدد، يجدر التذكير بأن هذه البرامج وما يتعلق بها من تقسيم للعمل الفكري دوليا، تصاغ بعيدا عن «صوت» الآخر العربي «الإنسان»، سواء في العراق المحاصر، أو في جنوب لبنان المقاوم أو في مصر المقاومة «للتطبيع».

وفي المنطقة العربية مثلما في غيرها من مناطق تفتقر إلى تمويل محلي للبحث الاجتماعي، أو لا يُعطى فيها لهذا التمويل الأولوية الملائمة، أو يكون مقيدا نتيجة للقيود على حرية التعبير (بما فيها الحرية في ميدان البحث العلمي)، فإن إمكانية تحدي الاتجاهات الفكرية «العالمية» تكاد تنتفي. فالباحثون الأفراد والمجموعات البحثية المستقلة فكريا يواجهون جميعا تحديا جادا لمحاولة إيجاد توافق بين مبادئ العدالة الاجتماعية وانتماءاتهم الوطنية والقومية، من ناحية، والأولويات التي تفرضها برامج عمل وضعتها مؤسسات مراكز القوى العالمية،من ناحية أخرى. ومن هنا تصر أولوكا - أونيانجو وتامالي على أن «خطاب العالم الثالث لابد أن يدخل بشكل مباشر في نقد للبنى السائدة للمعروفة وللسلطة في المجال الأكاديمي، ولا يتم «إضافته وإذابته» كفكرة لاحقة»(٥٧). وبرغم أنه من غير الواقعي الحديث عن خطاب واحد للعالم الثالث أو خطاب واحد للعرب، إلا إنه من المنطقي الإصرار على مساءلة الخطابات السلطوية الآتية باستمرار من المتروبول الكوني. وتجدر الإشارة هنا إلى ما تذكرنا به رنا قباني من أن «إيديولوجية الإمبراطورية الاستعمارية لم تكن أبدا غلوا سافرا في الوطنية ،وإنما استخدمت المنطق بذكاء، وسخرت العلم والتاريخ لخدمة أغراضها(٥٨).

إن من الواجب توسيع برامج العمل البحثي التي تنطلق من التطورات «على أرض الواقع» في المنطقة العربية، لتتجاوز مفهوم «عنف السود ضد السود» المضلل. ويندرج في هذا قضايا حيوية، مثل حرب الإبادة ضد العراقيين التي لا تخص، بأية حال من الأحوال، نوعا بشريا محددا. والقضايا الأخرى تشمل التصفية الجسدية الوحشية التي ترتكب ضد النساء والرجال المدنيين في الجزائر، والتمايز الاقتصادي والاجتماعي وانتهاكات حقوق الإنسان التي تقرها الدولة (بما في ذلك حقوق المرأة) في سائر أنحاء المنطقة، و«إبعاد» الفلسطينيين من أجل إقامة مستوطنات صهيونية للنساء والرجال، على حد سواء. والأولويات البحثية الأمينة للسياق الواقعي للمنطقة لن

تكون أقل ثراء من الناحية التحليلية من تلك التي تضعها المؤسسات الدولية. وفي الواقع فإن ميزة المقارنة المنضبطة ستكون معها موضوعات البحث التي سادت في أدبيات الدراسات النسوية والجنوسية، خاضعة إلى تدقيق تحليلي مكثف في إطار برنامج عمل إقليمي للبحث المقارن. وبدوره سيخلق هذا فرصا للباحثين المحليين للإسهام في القضايا النظرية العامة متجاوزين القضايا ذات الخصوصية الثقافية (وهي المهمة الاعتيادية التي تعطى دائما للباحثين الإقليميين في الجنوب الكوني، في ظل تقسيم العمل الفكري دوليا في إطار العولمة).

وحالة العراق المحاصر تعطي الباحثين الفرصة لإعادة النظر في موضوعات مطروقة، مثل الأسر التي تعولها نساء، وتأنيث الفقر في ضوء الإفقار، الشامل ودراسة معنى وعلاقة الصحة الإنجابية بالكوارث البيئية، بما في ذلك التعرض إلى إشعاعات اليورانيوم المنضب. وهنا، يمكن للمرء أن يتساءل عن جدوى مفاهيم، مثل «جسدي هو لي أنا» في علاقته بالحالة الصحية للأجيال المقبلة، الأنثوية والذكورية للجسد (الذي أصبح المادة الأساسية للسياسة البيولوجية Biopolitics. وهي التسمية التي سحب بها منهج ما بعد الحداثة الأنظار بعيدا عن العلاقات الطبقية العالمية في سياقها التاريخي)(٥٩). والدراسة المتأنية لردود الفعل ضد النساء اللائي وضعن أطفالا مشوهين، يمكن أن تكون مفيدة في تقييم التعميمات حول الإسلام والإنجاب (٦٠) والقضية الأخرى التي تطرحها التطورات في العراق على أبحاث الدراسات النسوية والجنوسية، هي تأثير تراجع دولة الرفاه على العديد من القضايا الاجتماعية، من الصحة العامة إلى وضع الجماعات الدينية والعرقية المتمايزة وبالإضافة إلى ذلك، تساعدنا حالة العراق على الربط بين ما يسمى بالعنف الأسري والساحة الاجتماعية الأوسع التي تتجاوز حتى الحدود الإقليمية للدولة. كما يمكن الكشف عن علاقات مماثلة، فيما يتعلق بالوضع الاجتماعي للأطفال (٦١).

وتكمن وراء التحليل العلمي الجاد في الدراسات النسوية والجنوسية، مسألة إهمال الإطار الأشمل وهو الانقسام الكوني بين الجنوب والشمال، وما يترتب عليه من عدم توازن في القوى، يظل عقبة كبيرة في طريق تضامن نسائي عالمي يعتمد على المساواة. ففي غمرة احتفائنا «بتضامن الأخوات» في «القرية الكونية»، يجب ألا ننسى أن هذا «العالم المنكمش» هو ، أيضا ساحة «للنهب الكوني» (٦٢) ، بما فيه من تطهير عرقي ومجاعات وإبادة جماعية. والتضامن

النسائي العالمي ليس استحداثا كما إنه ليس هدفا في حد ذاته ولكنه وسيلة في اطار كفاح متعدد الأوجه بحثا عن العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية.

وأختم هذه الدراسة بالتأكيد على أهمية تحديد برامج عمل للأبحاث، وما يتعلق بها من توجهات معرفية لتطوير الدراسات النسوية والجنوسية في العالم العربي، وليس أقلها أهمية الأدوات التحليلية التي توضح ارتباط السياق الإقليمي المحدد تاريخيا بمحيطه العالمي، وهي العلاقة التي تكتسب أهمية خاصة في الوقت الذي تطرح فيه الشرق أوسطية (الوصف المستخدم في المنطقة للتعبير عن العولمة بحيث تكون إسرائيل في موضع المركز)، باعتبارها البديل «العملي» من التكامل الاقتصادي العربي الذي له أولوية «واقعية» تسبق التعاون العربي المتعدد الأطراف.

وتقدم انتفاضة الأقصى، بغض النظر عن ما ستسفر عنه من نتائج، إجابة مباشرة لدعوات الانهزامية التي تفترض حتمية الحلول المفروضة لمشكلات وطننا. لقد استغرق تحقيق «الحلم» الصهيوني مئة عام، وحلمنا العربي ليس أقل استحقاقا من مثل هذه المثابرة. فالسعي في سبيل الحرية الذي يتطلب فهما واضحا للقوى العالمية مستقى من تحليل جاد(٦٣)، هو سعي نناضل في أثنائه، نساء ورجالا، لصياغة وتحقيق مشروع جماعي للبناء الاجتماعي المستقل، يعتمد على العدالة الاجتماعية والمساواة النوعية .

وصياغة مشروع عربي يكون بديلا من الشرق أوسطية التي يكون مركزها إسرائيل، يتطلب مساءلة جادة للتجزئة المتعسفة للتقسيمات الأكاديمية، وضمنها، الدراسات النسوية ذات الحدود الضيقة، حتى يمكن إعطاء الاهتمام الذي تستحقه قضايا مثل العلوم والتطورات التكنولوجية المهملة نسبيا في الوقت الحاضر. وتدمير إسرائيل للمفاعل النووي العراقي في ١٩٨١ هو تذكرة لنا بالأهمية القصوى للعلم في خلق التفوق الإقليمي للدولة الصهيونية. والإبادة الفكرية للشعب العراقي، وتدمير رصيده من العلم والتكنولوجيا يمثل ضربة خطيرة للوطن العربي بكامله. وفي حين يبادل العرب «السلام بالأرض» بأسلوب جنوب إفريقية العنصرية، يظل العلم والتكنولوجيا حجر الزاوية «للعمق الاستراتيجي»، في تصور شيمون بيريز للشرق أوسطية.

ترجمة : لميس النقاش

الهوامش

١- Naom Chomsky. **Deterring Democracy**. New York: Hill and Wang, 1992, pp. 181-182.

٢- مقتبسة من **Apologies to all the People in Lebanon** للشاعرة الإفريقية - الأمريكية جون جوردن التي كتبت هذه الكلمات وقت الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. وقد كرست هذا العمل لـ "ال ٦٠٠,٠٠٠ من الرجال والنساء والأطفال الفلسطينيين الذين عاشوا في لبنان منذ عام ١٩٤٨" - على حد قولها.

٣- MERIP, September 1980, p.9

٤- U.S. General Accounting Office, **Forging a New Defense Relationship with Egypt: Report to the Chairman, Senate Committee on Foreign Relations**. Washington, D.C.: U.S. Government Printing Office, 1982, p.27.

٥- أتى "انفتاح" مصر ببرامج مشتركة عديدة، بما في ذلك اختبارات لأدوات منع الحمل استخدمت فيها النساء المصريات كـ "أجساد مختارة.". انظر دراسة سهير مرسي "Bodies of Choice: Norplant Experimental Trials on Egyptian Women. " **In Norplant Under Her Skin,** ed. B. Mintzes, A. Hardon, and J. Hanhart, Amsterdam: Elmron, 1993, pp. 89-114.

٦- Soheir Morsy, **"Normalization" with Zionist Israel: The Arab's Bridge on the River Kwai**.

إسهام في ورشة العمل المنعقدة بمناسبة مرور ٣٠ عاما على حرب ٦٧، في جامعة MIT، التي نسقتها البروفسورة إيلين هاجوبيان.

٧- أصرت إدارة بوش على "عدم الربط"، بحجة أن مثل هذا التواصل يشكل "مكافأة لصدام حسين على عدوانه". وقد جاء هذا الرفض القاطع، أيضا، ردا على اقتراح الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران بأن يُعقد مؤتمر يربط بين المشاكل المتعددة لمنطقة الشرق الأوسط. للتفاصيل انظر:

"U.S. Gulf War: Why?" **Palestine Focus Gulf War Update**, number 2. San Francisco: Palestine Solidarity Committee, February 15, 1991.

٨- **الشرق أوسطية مخطط أمريكي صهيوني، دراسات حول مخاطر التطبيع والعمل العربي في المواجهة**. تحرير حلمي شعراوي. الناشر: مكتبة مدبولي ١٩٩٨. وانظر أيضا:

Soheir Morsy, **Confronting Zionism: Egyptian Popular Resistance to "Normalization"**.

دراسة مقدمة إلى المؤتمر السنوي لرابطة الخريجين العرب الأمريكيين المنعقد في دير بورن بولاية ميتشيجان، في أكتوبر ٢٣-٢٥، ١٩٩٨.

٩- Naom Chomsky, **Humanitarian Interventionism**, 1999.

١٠- Richard Falk, "Democracy Died in the Gulf". **Viet Nam Generation Journal and Newsletter**, Vol 3(4), January 1992.

١١- Helan Page, "Breaking the Silence on Violence in Academe." **Anthropology Newsletter**, March, 1994, p.44.

١٢- انظر أيضا:

Soheir Morsy, "Not Only Women: Science as Resistance in Open Door Egypt." In **Pragmatic Women and Body Politics**. Cambridge University Press, 1997. pp. 77-97.

١٣- لوصف دقيق وتحليل واف لظاهرة "إعادة استعمار العالم العربي"، انظر:

Naseer Aruri, "The Recolonization of the Arab World". Arab Studies Quarterly 11(2&3), 1989, pp.273-286.

١٤- Naom Chomsky. World Orders: Old and New. New York: Coalumbia University Press, 1996.

١٥- لمراجعة بعض الوثائق التي رفع عنها السرية في هذا المضمار، انظر موقع النيويورك تايمز

WWW. nytimes. org

١٦- Cynthia Peters, ed. **Collateral Damage: The "New World Order" at Home and Abroad**". South End Press, Boston, 1992.

١٧- شعار "مواجهة القوة بالحق" هو تعبير عن فلسفة جماعة الكويكرز التي تنادي بالمقاومة دون اللجوء إلى العنف.

١٨- د. فوزي منصور "التحالف الصهيوني - الأمريكي ومشروع الشرق الأوسط". في: **الشرق أوسطية مخطط أمريكي صهيوني**، مرجع سبق ذكره.

١٩- هنا يجب لفت النظر إلى مسائل عملية. ففي هذا الإطار، نجد أن تقرير الأمم المتحدة الصادر في بغداد في مارس ١٩٩٩ الموجه إلى مجلس الأمن، تحت عنوان:

"Overview Submitted by the UN System to the Security Council Panel on Humanitarian Issues".

يحذر من أنه "لا يمكن الحديث عن المرأة العراقية. فهذه الأخيرة يجب وصفها بدقة: الفلاحة، العاملة، المهنية، الأمية، السياسية، العلمية، الشابة، العجوز، المتزوجة، المريضة، الصحيحة، ربة المنزل". ويستمر التقرير في شرحه مشيرا إلى أن "غياب الدراسات والأبحاث في هذه الأمور يجعل من الصعب القيام بتحليل متعمق".

٢٠- هذا "التناسي" للماضي له أهمية كبيرة في "عصر المعلومات"، حيث إن التضليل الإعلامي يسهل بترويج معلومات كثيرة متناثرة وتقديمها على أنها معرفة متكاملة حول موضوع ما. وهذا النوع من الخداع ليس بجديد. فمنذ أكثر من مئة عام ،أعطى الناشر الصحفي المشهور راندولف هيرست أوامره إلى مصور جريدته (فردريك ريمنجتن) "أنت توفر الصور وأنا أوفر الحرب". وكان هذا في عام ١٨٩٦ عندما بعث المصور إلى كوبا، ليغطي حربا لم يجدها على أرض الواقع.

٢١- Helen Caldicott, In Ramsey Clark, ed., **Metal of Dishonor**. New York: International Action Center.

٢٢- اليورانيوم المنضّب لا يختلف عن الطبيعي إنما درجة إشعاعه تكون منخفضة نسبيا وتصل إلى نحو ٦٠٪. وقد استخدمت قذائف اليورانيوم المنضّب ومدرعات تقذف به للمرة الأولى ضد العراق في حرب الخليج عام ١٩٩١. وبعد ذلك استخدم من قبل قوات الناتو في محاولتها لـ "تفادي كارثة إنسانية" (!) في يوجوسلافيا. ويشكل اليورانيوم المنضّب عنصرا فعالا في مستودع أسلحة النظام العالمي "الجديد"، لكونه عالي الكثافة، وله صفة "بري نفسه" عند اختراق الهدف.

٢٣- يوضح تقرير رسمي أمريكي منشور عام ١٩٩٥ (تحت عنوان:

Cruise Missiles: Proven Capability Should Affect Aircraft and Force Structure Requirements

صادر عن المكتب العام للمحاسبة) أن "تحطيم الإرادة الشعبية" كان هدفا صريحا وراء قصف العراق بالقنابل عام ١٩٩١.

٢٤- في ٧ مارس عام ٢٠٠٠، أصدرت اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للعمل السياسي (وهي المنظمة الأم لمارتين إنديك التي ذهب منها إلى وزارة الخارجية الأمريكية) بيانا يطالب بـ "عدم رفع الحصار عن العراق". أما إسرائيل ،فقد استفادت من التعويضات التي تدفعها العراق عن طريق الأمم المتحدة. ففي ١٥ إبريل ١٩٩٩، نقلت الأسوشيتد بريس عن وزير العدل الإسرائيلي قوله إن "٦٦ شركة إسرائيلية ستقتسم أكثر من ٣١ مليون دولار تعويضا من الخسائر التي لحقت بها في أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١". وتقضي الأسوشييتد بريس قائلة، إن لجنة الأمم المتحدة للتعويضات (التى

أسست عام ١٩٩١ لتعويض الأفراد والمؤسسات التجارية المتضررة من العراق في أثناء الحرب)"، منحت ١٣ فردا (إسرائيليين) مبلغا إجماليا وصل إلى نحو ٢٣١,٠٠٠ دولار.

٢٥- إن الضرر الكامن والواقع على شعب العراق كان ولايزال معروفا لدى الرسميين الأمريكيين. فهذا واضح من تقرير أمريكي رفع عنه السرية صادر في ١٨ يناير ١٩٩١، تحت عنوان:

Iraq Water Vulnerabilities وقد تنبأ التقرير بـ "زيادة الأمراض، إن لم يكن الأوبئة". ويمتد هذا التنبؤ إلى تعجيز الصناعات العراقية المعتمدة على الماء النقي، بما في ذلك صناعة البتروكيماويات والأسمدة وتكرير البترول والإلكترونيات وصناعة الأدوية والنسيج والصناعات الغذائية والأسمنت، إلى جانب المحطات الحرارية لتوليد الكهرباء" (لمراجعة هذا التقرير أنظر موقع الإنترنت: **Gulflink** حيث عرض التقرير في سبتمبر ١٩٩٥.

٢٦- كما جاء في مقتبسات من كتاب بوب وودورد (الصحفي الذي فجر فضيحة ووترجيت) التي نشرت في الواشنطن بوست (بتاريخ ٢٠ يونيو ١٩٩٩)، أن الرئيس بوش قال "نحن بحاجة إلى حرب"، في أثناء اجتماع عقده مع فريقه للأمن القومي لمناقشة رد الفعل الأمريكي للغزو العراقي للكويت. وكان هذا الاجتماع في٣ يناير ١٩٩١.

٢٧- مقتبس من التحقيق الصحفي الذي أجراه نيكولاس أرونز من "Fellowship of Reconciliation" مع سكوت ريتر في يونيو ١٩٩٩.

٢٨- لمزيد من التعقيب على هذا المبرر، انظر مساهمة أولبرايت في عدد ١٨ يناير ٢٠٠٠ لدورية **Annals of Internal Medicine**. وفي العدد الصادر في ١٥ أغسطس ٢٠٠٠، توجد عدة خطابات لرئيس التحرير (من بينها خطاب لكاتبة هذه الدراسة) ترفض تبرير أولبرايت السهل للإبادة الجماعية ليس على أسس أخلاقية فحسب و لكن أيضا بناءً على براهين علمية.

٢٩- يعتقد البروفسور جارفيلد أن تقديرات الدكتورة بلامي تقديرات محافظة، بما أن معدل تضاؤل الوفيات كان في ازدياد قبل فرض العقوبات مباشرة، وانظر أيضا:

Peter Pellett: "Editorial: Nutrition and Health in Iraq, **"International Quartely of Community Health Education: A Journal of Policy and Applied Research** 17(2), 1997-8, pp. 109-115.

٣٠- تشومسكي، ١٩٩٢، ص ٢٩، مرجع سبق ذكره.

٣١- **Inlernal Conflict: Adaptation and Reaction to Globalization,** Briefing, nbr. 12, Dorset: The Corner House, 1999.

٣٢- إن تعبير: "العولمة" الذي يغفل المعنى السياسي لهذه العملية ما هو إلا أحدث تعبير ملطف عن ظاهرة سياسية

واضحة، هي الإمبريالية.

٣٣- Jerry Mander and Edward Goldsmith, Eds. **The Case Against the Global Economy and for a Turn Toward the Local.** San Francisco: Sierra Club, 1996.

٣٤- روج هذا الوصف المناسب للحصار الناشطون الشجعان المنتمون إلى مجموعةVoices in the Wilderness

٣٥- Barbara Nimri Aziz, "Nation for Sale: In Iraq, War and Embargo Have Cleared the Path For Privatization:. **Toward Freedom**, June 1997.

٣٦- **The Econmist Intelligence Unit Iraq Country Report**, 1995-1996, pp.6.

٣٧- John Field, "From Food Security to Food Insecurity: The Case of Iraq, 1990-1991. **GeoJournal** 30(2) 185-194, June 1993, Kluwer Academic Publishers.

٣٨- مقتبسة من شهادة جون فيلد أمام لجنة الكونجرس المختصة بالجوع دوليا، مطبعة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، واشنطون، ١٩٩٢.

٣٩- مؤشر القدرة الشرائية هو النسبة بين أقل دخل شهري ومجموع تكلفة الغذاء الأساسي لأسرة مكونة من ستة أشخاص، بما في ذلك رضيع.

٤٠- تقرير الأمم المتحدة عن وضع الحالة الإنسانية في العراق الصادر في ٣٠ مارس ١٩٩٩،

www. un.org/Depts/aip/panerirep.html

٤١- Iraq Immunization, Dianhoeal Disease, Maternal and Childhood Mortality Survey. **Volume 9 of MENA's Evaluation Series**. UNICEF Regional Office For the Middle East and North Africa.

٤٢- باربرا نمري عزيز، مرجع سبق ذكره.

٤٣- ندى عمران :"المرأة العراقية دخلت العمل من باب الأزمة"، **الأهرام العربي**، يوليو ٢٠٠٠.

٤٤- Stephen Kinzer, "It's no Life Now, Baghdad Women Say." **The New York Times,** December 25, 1998.

٤٥- المرجع السابق.

٤٦- بمجرد إصابتها للهدف، يحل بمقذوفات اليورانيوم المنضّب تفاعل احتراقي يولد جسيمات دقيقة تتبعثر في الهواء

وتنتشر في البيئة المحيطة. وهذا ما حدث في أثناء حرب الخليج.

٤٧- عمل هوسكينز كمنسق طبي لفريق جامعة هارفرد الدولي الذي قام بمسح للأوضاع الصحية في العراق والكويت بعد الحرب.

٤٨- لمتابعة الأدبيات الطبية المتعلقة بهذه الأبحاث، انظر:

Soheir Morsy, "Iraq as New Eril Empire". **Arab American University Graduates Monitor**, January 1998, Washington, D.C.: Association of Arab American University Graduates.

٤٩- Mary Doaglas, **Risk Acceptability According to the Social Sciences**. New York: Russell Sage Foundation, 1985.

٥٠- في صورته الأكثر تشددا، يدعو هذا الهجوم إلى طريقة تحليل تشكل موضع شك منهجي (وسياسي أيضا)، وهي "الكتابة المضادة للثقافة"، حسب تعبير "ليلى أبو لغد". انظر كتابها بعنوان:

Writing Women's World, Berkeley: University of California Press, 1991.

٥١- Paul Farmer, Commertary: AIDS and the Political Economy of Brutality." **Anthropology Newsletter**, April 1995. p.25.

٥٢- Charles Lindholm, "The New Middle Eastern Ethnography." **Journal of the Royal Anthropological Institute** (N.S.) 1: 805-920, 1996.

٥٣- Charley Reese, "Try Explaining to an Iraqi Mother Why her Child is Dead". **Orlando Sentinel**, January 27, 2000.

٥٤- Angela Gilliam, In **Decolonizing Anthropology**, Faye Harrison, ed. Washington, D.C. American Anthropological Association, 1992, 1997.

٥٥- Rosina Hassoun., Commentary, **Anthropology Newsletter**, October 1999.

٥٦- انظر فوزي منصور،

The Arab World and the "New" World Order, Universidad National Autonoma de Mexico, Mexico, 1994.

٥٧- J. Oloka - Onyango and Sylvia Tamale, "The Personal is Political", or Why Women's Rights are

Indeed Human Rights: An African Perspective on International Feminism". **Human Rights Quarterly** 17(4): 691-731, 1995.

٥٨- Rana Kabbani, **Europe's Myth of Orient**. Bloomington: Indiana University Press, 1986, p. 8.

٥٩- لنقد حاد لمنهج ما بعد الحداثة، انظر:

Samir Amin, **Specters of Capitalism: A Critique of Current Intellectual Fashions**. New York: Monthly Review Press, 1998.

٦٠- لنقد وافٍ لمثل هذا التقليص الثقافي، انظر:

Hania M. Sholkamy," Procreation in Islam: A Reading of Texts and People from Egypt." Paper presented to the **Workshop on Procreation, London School of Economics, London,** September 19-20, 1996.

٦١- Soheir Morsy and Jehan El-Bayoumi "Risk as an Analytical Construct: Implication for Childern's Health in Arab Society." **Childhood: A Global Journal of Child Research** 1(2), 1993.

٦٢- Jeremy Brecher and Tim Costello: **Global Village or Global Pillage**. Boston: South End Press, 1997.

٦٣- Ward Churchill, **Strurggle For the Land: Indigenous Resistance to Genocide, Ecocide, and Expropriation**. Monroe, Maine: Common Courage Press, 1992.

أثر الحصار على الواقع الصحي للمرأة العراقية

د. اتحاد صالح عماش

حظيت المرأة العراقية برعاية متميزة في الخطط الصحية منذ عقد السبعينات. وقد نصت الاستراتيجية الوطنية للنهوض بالمرأة العراقية على حفظ حقوق المرأة الاجتماعية والاقتصادية والصحية، و«تعزيز انتفاع المرأة من الخدمات الصحية بصورة كاملة في جميع مراحل حياتها». ومن الجدير بالذكر، أن العراق كان حتى عام ١٩٩٠ واحدا من أبرز دول الشرق الأوسط والدول النامية، في إحراز تقدم مضطرد في الميادين الطبية العلاجية والوقائية، خاصة في مجال رعاية الأم والطفل، للحصول على ولادة سليمة لطفل سليم مكتمل النمو. وإذ يعتبر مؤشر وفيات الأطفال أحد أهم المؤشرات في العالم على تطور الخدمات الصحية في الدول، فقد حقق العراق إنجازا كبيرا قبل عام ١٩٩٠ في خفض معدلات وفيات الأطفال الرضع، والأطفال دون الخامسة من العمر، إذ بلغت النسبة ٢٥ وفاة و٥٢ وفاة لكل ١٠٠٠ ولادة حية، بالتتابع، طبقا للمنظمات الدولية المختصة.

واستمرار الحصار الاقتصادي المفروض على العراق أدى إلى تعطيل الخدمات الصحية المباشرة والتكميلية، كلا أو جزءا، وتسبب في صعوبة العمل لتنفيذ الاستراتيجية الوطنية للنهوض بالمرأة، وتدهور الوضع الصحي للنساء والأطفال، وهم الفئات الأكثر تضررا في المجتمع. وفي ما يلي نستعرض بعضا من محاور متعددة تمثل الوضع الصحي الراهن للمرأة في العراق.

أولا – تضرر برامج الرعاية الصحية الأولية

تناقص عدد المراجعات إلى مراكز الرعاية الصحية الأولية بنسبة ١٠٪ في عام ١٩٩٧ عن ما كان عليه عام ١٩٩١، وذلك لأسباب عديدة، منها صعوبة المواصلات، وزيادة الأعباء التي تتحملها المرأة ضمن العائلة، وعدم توفر الأدوية بشكل منتظم، وتضرر عدد من مراكز الرعاية الصحية الأولية. وازداد عدد اللواتي يعانين مضاعفات الحمل والمعرّضات إلى خطورة، إذ بلغت نسبتهن بين الحوامل ٩٢٪. في حين حدث تحسن في الخدمات الصحية المقدمة إلى الحوامل، من خلال تدريب الكوادر الصحية والمجتمعية، نتيجة لحرص الجهات الصحية والطبية العراقية على نشر المعارف الصحية، للتقليل من الخسائر في الأرواح التي يسببها استمرار الحصار(١).

ثانيا – ارتفاع نسب الوفيات للأمهات و النساء

كشفت المسوحات الدولية الأولى(٢) منذ عام ١٩٩١ عن ارتفاع عدد وفيات الأمهات إلى ١١٧ وفاة لكل ١٠٠٠٠٠ ولادة حية، وبلغت الوفيات للأطفال الرضع ٩٢,٧ وفاة لكل ١٠٠٠ ولادة حية. وتوصلت منظمة اليونسيف، في أحدث مسح لها لتحديث المعلومات الخاصة بوفيات الأمهات والأطفال الرضع، على مستوى العراق، للفترة الواقعة بين شباط وأيّار (فبراير ومايو) – إلى أن معدل الوفيات للفئتين أعلاه قد زاد بأكثر من الضعف، إذ بلغ معدل وفيات الأمهات ٢٩٤ حالة وفاة لكل ١٠٠٠٠٠ ولادة حية، ووصلت وفيات الأطفال الرضع إلى ١٣١ وفاة لكل ١٠٠٠ ولادة حية(٣).

وعزت إحدى الدراسات ازدياد الوفيات بين النساء في عمر الإنجاب، في الموصل، إلى أسباب عديدة، ضمن الخمسة الأولى

منها السرطانات وعجز الكليتين المزمن. وأظهرت الدراسة، أيضا، ارتفاع حالات الوفاة بسبب الحمل إلى قائمة العشرة الأولى لمسببات الوفيات، وصعود التدرن الرئوي إلى قائمة هذه المسببات، وهو الذي لم يكن ضمنها قبل عام ١٩٩٠(٤).

ثالثا – شح الأدوية و المستلزمات العلاجية و التشخيصية

أدى شح الأدوية وعدم توفر المستلزمات العلاجية والتشخيصية إلى صعوبة تشخيص الحالات، وفقدان العديد من النساء لحقهن في الحصول على الخدمات الصحية، وفقا للتطورات العلمية الحديثة في الميادين الطبية التي كان العراق سبّاقا في تطبيقها، ضمن منطقة الشرق الأوسط، خلال سنين السبعينات والثمانينات.

وأظهرت الإحصائيات المتوفرة لدى وزارة الصحة تدني مستوى الخدمات الصحية والطبية المقدمة إلى المرأة العراقية في عام ١٩٩٨، مقارنة بما كانت عليه قبل الحصار عام ١٩٩٠(٥)، كما يلي:

نوع الخدمات	١٩٩٠	١٩٩٨	نسبة التدهور
العمليات الجراحية للنسائية والتوليد	٣٦١٩٨	١٠٨٦٠	٧٠٪
العمليات الجراحية الكبرى	٤٨٤٢٠	٢٥٢٦٠	٥٠٪
الفحوصات المختبرية (المعدل الشهري)	٥٤٥٦١٥	٢٤٩٤٩٤	٥٤٪
عدد الولادات داخل الوحدة الصحية	٣٢٥١١١	٢٢٤٩٧٦	٣٠٪

ويبين الجدول أعلاه أن العمليات الجراحية تراجعت إلى نسبة ٥٠ إلى ٧٠٪، والفحوصات المختبرية إلى ٥٤٪، وهو ما أدى إلى ظهور أمراض تمت السيطرة عليها لدى النساء في السابق أو زيادتها، وارتفاع المضاعفات الناتجة منها، بسبب صعوبة وتأخر الكشف عنها، أو عدم توفر الأدوية اللازمة لها. وقد أظهرت إحدى الدراسات أن من بين أهم الأسباب لحالات الإجهاض، الإصابة بأمراض السوطيات والسفلس، مما يبين، وبشكل مباشر، آثار الحصار على صحة المرأة مباشرة، وآثار ذلك على الصحة العامة(٦).

رابعا – صعوبة السيطرة على الأمراض المزمنة

أدى عدم توفر الوسائل التشخيصية الأولية، وتأخر تشخيص الحالات المرضية، وفقدان انسيابية الأدوية، وعدم انتظام علاج المريضة – إلى مضاعفات متعددة نتج منها ازدياد العوق البدني، جراء أمراض كان بالإمكان السيطرة عليها في السابق، ومثال ذلك، ازدياد مضاعفات مرض السكري، وارتفاع ضغط الدم الشرياني، وأمراض القلب، مثل: الذبحة الصدرية والجلطة الشريانية وعجز القلب الحاد والمزمن، وحالات عجز الكلى، وانفصال الشبكية والعمى، وحالات الجلطة الدماغية وشلل الأطراف. ويظهر المخطط أدناه التأثيرات المتعددة على الحالات المرضية.

خامسا – سوء تغذية المواطنة العراقية

من المعروف علميا أن سوء التغذية وعدم توفر الغذاء السليم يؤدي إلى ظهور أمراض سوء التغذية، الحاد منها والمزمن الذي قد تظهر أعراضه بعد سنين، ومن ذلك الهزال، وفقر الدم، واضطراب في عمل الغدة الدرقية، واضطراب الجهاز العصبي، ونقص

المغذيات الدقيقة (الفيتامينات)، والولادات المبكرة، وفقر الدم (٥١٪ من النساء العراقيات يعانين مشكلة فقر الدم(٧))، وازدياد نسبة المواليد بوزن أقل من ٢,٥ كجم الذي ورد في دراستين: الأولى في عموم العراق، والثانية أجريت في محافظة البصرة عام ١٩٩٨ . وأظهرت الدراستان أن نسبة الولادات بوزن أقل من ٢,٥ كجم بلغت ٢٤ و٢٥ لكل ١٠٠٠ ولادة حية، بالتتابع، في حين كانت ٤ لكل ١٠٠٠ ولادة حية في عام ١٩٩٠، في عموم العراق.

وقد ورد في دراسة للاتحاد العام لنساء العراق عن الحالة التغذوية للإناث، في سن ١٠ إلى ٦٠ سنة، في عموم محافظة بغداد(٨)، ما يلي: انتشار مشكلة نقص التغذية في مختلف الفئات العمرية، مشكلة نقص التغذية ظهرت في ٤٢٪ من النساء في سن ١٠ إلى ١٤ سنة، مشكلة سوء التغذية الحاد ظهرت في ١٦٪ من النساء في سن ١٠ إلى ١٤ سنة، ٤٨٪ من تلاميذ المدارس يعانون مشكلة نقص اليود، اضطراب نمو العظام، وما يسببه ذلك من مضاعفات على الحمل والولادة في المستقبل.

سادسا – تلوث البيئة وأثره في انتشار الأمراض الانتقالية و المستعصية و التشوهات الخلقية

سبّب تلوث المياه وتدني نوعية مياه الشرب، وعدم توفر الصرف الصحي والمكافحة السليمة لنواقل الأمراض من البعوض والذباب – انتشار الأمراض الانتقالية، وظهور أمراض سبق أن تمت السيطرة عليها في القطر.

وأدى القصف المعادي إلى تلوث البيئة العراقية بإشعاعات القنابل المحرمة دوليا والحاوية مادة اليورانيوم المنضب، وخاصة في المناطق الجنوبية من العراق – إلى التأثير بدرجة كبيرة في الصحة العامة والفئوية، ومن ذلك الأمهات في سن الإنجاب والحوامل وأطفالهن. فأظهرت الدراسات التي قدمت في أكثر من ندوة عن آثار العدوان الثلاثيني الغاشم على العراق، وكان آخرها ندوة آثار اليورانيوم المنضب على الوضع الصحي في العراق التي عقدت في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٨ – أن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا أسقطتا ما يقارب ٤٠٠ طن من مادة اليورانيوم المنضب على المنطقة الجنوبية من العراق، وإذا علمنا أن كل طلقة كانت تضرب على دبابة تخلف ٣ كجم من الغبار المشع، نستطيع أن نتخيل حجم التلوث الإشعاعي الذي تعرضت إليه الكائنات الحية في المنطقة، من نبات وحيوان وإنسان. هذا بالإضافة إلى حجم القصف والقنابل التي تعرض إليها القطر، إذ بلغ حجم القذائف ١٥٦٠٠٠ طن أسقطت على العراق خلال فترة ٤٥ يوما.

وقد لاحظ الأطباء الاستشاريون، في المناطق الجنوبية خاصة، وفي عموم القطر بشكل أقل، أن هناك ارتفاعا ملحوظا في معدل حدوث أمراض متعددة منها: الإسقاط، الأورام، وخاصة سرطان الثدي، حالات سرطان الدم، الولادات المشوهة أو الميتة، فقر الدم لدى الحوامل، داء السكر وارتفاع ضغط الدم، حالات تسمم الحمل الخبيث. ونظرا لتزامن هذه الحالات مع مرحلة ما بعد العدوان، ونظرا لعدم تغير العوامل الأخرى، فإن التلوث البيئي هو السبب الرئيسي الذي تعزى إليه هذه الزيادة.

ونلاحظ في الجدول التالي ازدياد حالات السرطان المسجلة، بشكل عام، ولدى النساء، بشكل خاص، خلال الأعوام ١٩٩٠ – ١٩٩٦(٩).

السنة	العدد الكلي لحالات السرطان	عدد النساء المصابات
١٩٩٠	٧٠٥٨	٣١٤٥
١٩٩١	٥٧٢٠	❖٢٥٩٥
١٩٩٢	٨٥٢٦	٣٧٩١
١٩٩٣	٨٤٧١	٣٨٣٩
١٩٩٤	٧٧٥٠	٣٥٥٥
١٩٩٥	٧٩٤٨	٣٦٠٤

$ يلاحظ انخفاض حاد عام ١٩٩١ ، وهو عام العدوان الثلاثيني ، بسبب الدمار الذي أصاب المدن العراقية ، وصعوبة انتقال المرضى ، وتدني التسجيل لدى المؤسسات الصحية .

$ $ نسبة الزيادة في عدد الحالات السرطانية المسجلة لدى النساء عام ١٩٩٦ هي ٢٣٪ على ما كانت عليه عام ١٩٩٠ .

وتبين الدراسات ، لدى مركز تسجيل السرطان في العراق ، أن نسبة حالات سرطان الثدي لدى الإناث التي كانت تمثل ١١٪ من مجموع حالات السرطان في العراق عام ١٩٩٠ ، ارتفعت إلى ١٤٪ من مجموع الحالات عام ١٩٩٦ ، مما يؤكد ارتفاع حالات الإصابة بهذا المرض لدى الإناث .

أما في ما يتعلق بالتشوهات الخلقية ، فقد ازدادت الإصابة بمتلازمة داون(١٠) في فترة ما بعد الحرب ، مقارنة بما قبلها ، خاصة في حالة الأمهات تحت عمر ٣٥ سنة ، إذ كانت ٤٪ وأصبحت ١٢ ,٨٪ ، وفي الأمهات أكبر من ٣٥ سنة ، ازدادت النسبة من ٢٤٪ إلى ٥٥٪ ، مما يؤكد وجود تغيرات في البيئة ، يصح أن تكون بسبب التلوث البيئي بالإشعاع ، أو البيولوجي ، أو نقص التغذية . وقد لفتت الزيادة انتباه المسئولين في دائرة صحة البصرة ، وهي إحدى المحافظات الجنوبية ، مما أدى إلى إجراء دراسة كانت نتائجها الآتي :

١ – حدوث التشوهات لدى الإناث أكثر مما هو لدى الذكور ، بنسبة ٥٨٪ من الحالات المسجلة .

٢ – ٩٣٪ من حالات التشوه الخلقي سجلت في عوائل لأول مرة ، وهذا يعني أنها لا تعزى إلى حالات وراثية .

٣ – معظم الحالات الغريبة والتشوهات أصابت الولادات البكر ، وكانت لأمهات في أعمار صغيرة (أقل من ٣٠ سنة) ، في حين أن الحالة المعروفة علميا هي زيادة نسب التشوهات الخلقية في أوساط الأمهات المتقدمات بالعمر (أكثر من ٤٥ سنة) .

٤ – ازدياد حالات الإسقاط ، إذ سجلت إحدى الدراسات في دائرة صحة البصرة زيادة حالات الإجهاض إلى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه(١١) مثلما تبين الأرقام أدناه .

السنة	عدد حالات الإسقاط
١٩٩٥	٤٤١
١٩٩٨	١٣٠٧

وقد سجلت العديد من هذه الحالات في مناطق الزبير وسفوان ، وهما من المناطق التي تعرضت إلى القصف الشديد ، وتقعان ضمن حدود المناطق الملوثة باليورانيوم المنضب .

سابعا – الصحة النفسية

لا شك في أن أحد أهداف الحصار الاقتصادي الظالم ، وهي كثيرة ، تحطيم البناء النفسي للمجتمع ، وهدم القيم والمبادئ التي يحملها ، لتفتيت وحدته . وقد أظهرت الدراسات والمسوحات التي أجريت لمعرفة تأثير الحصار على الحالة النفسية ، زيادة كبيرة في الإصابة بالحالات المرضية النفسية ، وخصوصا لدى النساء والأطفال . وتشير نتائج إحدى هذه الدراسات إلى أن ٥٧٪ من النساء يعانين حالات مرضية نفسية ، منها القلق النفسي والكآبة الانفعالية والأرق وفقدان الوزن والصداع . وتأكدت تلك النتائج عن طريق الدراسات والمسوحات التي أجرتها منظمات دولية وفرق علمية مستقلة زارت العراق ، ومنها فريق جامعة هارفرد .

وأشار تقرير منظمة اليونسيف عن الأطفال والنساء في العراق عام ١٩٩٣ ، إلى أن النساء هن ضحايا الحرب ، وأن معاناتهن ليست مقصورة على المخاوف والصدمات التي تعرضن إليها جراء القصف الجوي ، ولكنها تشمل تدبير الاحتياجات في أثناء العدوان وبعده .

وبينت إحدى الدراسات في الردهة النفسية في البصرة زيادة واضحة في النساء المسجلات. فبينما بلغ عدد حالات النساء المسجلات لعام ١٩٩٠ (١٩١) حالة، ازدادت في عام ١٩٩٦ إلى (٢٩٤) حالة، وفي عام ١٩٩٧ بلغت (٣٧٤) حالة مسجلة من النساء.

ومن الجدير بالذكر أن مجتمعنا لم يواجه قبل فترة الحصار الأمراض النفسية بهذا الانتشار، غير إن تسع سنوات من الحصار المقيت، وفي ظل الظروف الاقتصادية الصعبة، والعجز عن توفير الاحتياجات الضرورية للأسرة، كان لها أثر كبير في انتشار هذا النوع من الأمراض. ومما يساعد على تفاقم هذه الحالات – حسب ما يؤكد الأطباء الاختصاصيون – صعوبة الحصول على العلاج وتكاليفه ومستلزماته، حيث إن بعض المهدئات والحقن الخاصة ببعض الأمراض النفسية مرتفعة الثمن، وبعضها غير متوفر بسبب ظروف الحصار.

$ $ $

تستمر المرأة العراقية والجهود الوطنية الصحية في العمل الخلاق والإنتاج الفعلي. فعلى الرغم من كل ما تقدم، فإن العمل الجاد مستمر للسيطرة على آثار العدوان والحصار الجائر المفروض على القطر، إذ إن الخطط الوطنية تنفذ بنسب أعلى مما كانت عليه في السابق، لإيقاف التدهور في الوضع الصحي للمواطنة العراقية والنهوض بها، لتتمكن من حمل رسالتها الوطنية والإنسانية.

المصادر

١ – تغطية الحوامل المعرضات للخطورة ببرامج الرعاية الصحية الأولية، مجلة طب الموصل، عدد ٢٤، ١٩٩٨.

٢ – تقرير فريق جامعة هارفرد، ١٩٩١.

٣ – مسح وفيات الأمهات والأطفال في العراق، اليونسيف و وزارة الصحة، ١٩٩٩.

٤ – إحصائيات وزارة الصحة العراقية، ١٩٩٩.

٥ – أسباب الوفيات بين النساء في سن الإنجاب في الموصل، مجلة طب الموصل، عدد ٢٤، ١٩٩٨.

٦ – تكرار حالات الإسقاط، مجلة طب بغداد، مجلد ٤١، عدد ١، ١٩٩٩.

٧ – فقر الدم والحالة التغذوية للحوامل المراجعات لمركز الرعاية الصحية الأولية في بغداد، مجلة طب المجتمع، مجلد ١٠، عدد ١، ١٩٩٧.

٨ – الحالة التغذوية للإناث في بغداد، الاتحاد العام لنساء العراق، ١٩٩٨.

٩ – مركز تسجيل السرطان، بغداد، العراق.

١٠– زيادة نسب ولادات متلازمة داون بعد الحرب في العراق، مجلة طب بغداد، مجلد ٤٠، عدد ١، ١٩٩٨.

١١– دراسة إحصائية، دائرة صحة البصرة، ١٩٩٩.

الآثار الاجتماعية للحصار على المرأة العراقية

إيمان العزاوي

لا شك في أن آثار العدوان واستمرار الحصار قد طالت وتطول جميع أفراد المجتمع، رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا، بيد إن المرأة العراقية اختصت بالقسط الأكبر في مجمل هذه الآثار التي انعكست عليها بشكل كبير. وما نحاول تبيينه هنا هو الجانب المباشر والظاهر من الآثار الاجتماعية للحصار على المرأة العراقية الذي يمكن رصده، آخذين بنظر الاعتبار أن قياس جميع الآثار الاجتماعية من الصعوبة بمكان، نظرا لطبيعتها وتداخلاتها المركبة المتغيرة المشتملة على جوانب متعددة، مباشرة وغير مباشرة.

وتنبع أهمية هذا العمل من كون عدد النساء في العراق يزيد على نصف مجموع سكانه، حسب آخر إحصاء أجري في عام ١٩٩٧، فضلا عن أن المرأة العراقية كانت قد اضطلعت بمهام كثيرة وساهمت مساهمة فاعلة في جميع الميادين، في سنوات ما قبل الحصار، محققة طفرة نوعية من خلال هذه المساهمة في إنجاز خطط التنمية القومية الاجتماعية والاقتصادية في القطر، إلى جانب دورها المهم على صعيد الأسرة.

فبحكم موارده النفطية الكبيرة، كان العراق قد وضع ضمن أساسيات خططه وبرامجه التنموية منذ عام ١٩٧٠ هدف بناء الإنسان، فكانت توجهاته التنموية ذات بعد اجتماعي، تهدف بالدرجة الأولى إلى رعاية الإنسان والاهتمام به. وكان للمرأة ضمن هذا التصور نصيب مهم من هذه الرعاية، فقد أشار تقرير التنمية البشرية الذي أصدرته الأمم المتحدة في عام ١٩٩٥، إلى أن الفرد كان يتمتع حتى عام ١٩٩٠ بمستوى من الخدمات العامة المجانية التي ترفع دخله الحقيقي، مثل التأمين الصحي ومجانية التعليم والإسكان الشعبي وخدمات الهياكل التحتية، من إمدادات المياه والكهرباء والطاقة والصرف الصحي والمواصلات والاتصالات، مما وضع العراق في المرتبة (٩١) من بين (١٦٠) بلدا في تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩١. ولم يكن الحصول على هذه الخدمات خاضعا لمعيار التمييز حسب الجنس، بل كانت الفرص متكافئة في مجالات العمل والتعليم، مع انحيازها للأمومة والطفولة في قطاع الخدمات الصحية.

واستجابة لظروف الحصار وتعرض العراق قبله لحربين متتاليتين، اعتمد العراق سياسة تخفيض الإنفاق العام الذي أدى بدوره إلى نقص الموارد المتاحة للأسرة، مفضيا إلى الإخلال بالتوازن الأسري والاجتماعي، وبذلك تظافرت عوامل خارجية وداخلية متنوعة في معاناة العراق مشكلة الفقر التي لم يكن ليعاني منها لولا هذه الظروف. وقد كان لظهورها أثره في تدهور الوضع الصحي والتغذوي والتعليمي والاجتماعي للمرأة، بما أخلّ بتحقيق ما يعرف بشروط التنمية المستدامة لها.

لقد انعكس فقدان الأسرة لمصادر دخلها، أو تضاؤل أهميته بسبب التفاوت الحاد بين الدخل الحقيقي والنقدي للفرد، كأثر مهم

من آثار التضخم الاقتصادي الناجم عن استمرار الحصار- انعكس على تأمين حصول المرأة على حقوقها الأساسية في التمتع بمستوى معيشي لائق، مع ضمان حصولها على حقوقها العامة في الصحة والعلاج والتعليم التي هي جزء أساسي من حقوق الإنسان المقرة دوليا، إضافة إلى زيادة الأعباء المنزلية الملقاة على عاتقها، وتضاعف وتعقد أدوارها. وقد حدث هذا على النحو التالي:

١ - العمل على خلق بدائل غذائية، نتيجة نقص الموارد الغذائية، واضطرار المرأة إلى الاعتماد على قدراتها الذاتية في تصنيع الكثير من المواد التي كان يتم تأمينها من السلع المستوردة، أو البضائع المحلية قبل الحصار.

٢ - العمل على خلق بدائل دوائية باستخدام الأعشاب والعقاقير المنتجة محليا، تعويضا من نقص الدواء، وتلبية لاحتياجات الأسرة منه.

٣ - استخدام التكنولوجيا المنزلية المتخلفة والاعتماد على المعدات اليدوية، نتيجة نقص موارد الأسرة، واضطرارها إلى بيع الأجهزة الكهربائية المساعدة في العمل المنزلي، واستخدام قيمتها لتأمين الحاجات الأساسية للأسرة، أو تعطلها وعدم قدرة الأسرة على إصلاحها، إما لغلاء نفقات الإصلاح، وإما لعدم توفر الأدوات الاحتياطية اللازمة للإصلاح، إضافة إلى لجوء بعض الأسر إلى تأجير الأجهزة الكهربائية المنزلية، لقاء تأمين دخل إضافي يسهم في دعم موارد الأسرة. ومع احتساب ما لكل ذلك من هدر في الطاقة وتبديد للجهد، وجد عامل أساسي فرض الاعتماد على الطاقة اليدوية، وهو تقنين استخدام الطاقة الكهربائية على الصعيد الوطني، وزيادة ساعات القطع التي تتراوح في العاصمة بين ٦ و ١٢ ساعة يوميا، وتصل في بعض المحافظات إلى ٢٣ ساعة يوميا. ومعلوم أن ذلك ترتب على استهلاك معدات ومحطات توليد الطاقة الكهربائية في القطر، وحظر استيراد بدائل منها بفعل الحصار الاقتصادي.

٤ - قلة التسهيلات الخدمية الخاصة بقطاع المواصلات، نتيجة انحسار دور الدولة واعتماد سياسة تخفيض الإنفاق في القطاعات كافة، مع اضطرار الكثير من الأسر إلى بيع المركبات الخاصة بها، بسبب نقص موارد الأسرة الذي حال دون تمكنها من تحمل نفقات هذه المركبات، وبسبب العوز المادي الذي يدفعها إلى التفريط بها، تأمينا لسد الحاجات الأساسية لها. والمفهوم أن دور المرأة في تدبير المواصلات الخاصة بالأسرة وتأمين احتياجاتها، في هذا الجانب، يتضاعف في ظل هذه الأوضاع.

٥ - قلة التسهيلات الخاصة بخدمات رياض الأطفال والحضانات المدعومة من الدولة، وزيادة تكاليف إيداع الأطفال في الحضانات الخاصة، وارتفاع نفقات السلع اللازمة لتربية الأطفال، خاصة حديثي الولادة - كلها ترتب مشكلة معقدة للمرأة تتمثل في ضرورة خلق بدائل لاستيفاء خدمات رعاية الأطفال، أو الاستغناء عن بعضها، بما يؤدي إلى مضاعفة مسئولياتها داخل المنزل.

٦ - إذا عرفنا أن الهدف الأساسي من فرض الحصار هو تقويض البنى الاجتماعية وزعزعة الجانب القيمي في المجتمع، لأدركنا ما للمرأة العراقية من دور في الحفاظ على تماسك الأسرة، وفي تعزيز الجانب القيمي في نفوس أبنائها لوقايتهم من الانحراف، سواء لإدراكها أبعاد وحجم التآمر على بلدها، منطلقة من روح التحدي لإبعاد خطر هذا التآمر عن أفراد أسرتها، أو بفعل غريزتها كأم واعية تحاول دفع الأذى عن أولادها. وأيّا كان المنطلق، فإن المرأة العراقية تتحمل مسئولية ضخمة كمربية ومرشدة تضطلع بمهمة عسيرة لملاحظة ومواجهة أية تصدعات أو انحرافات، تترتب على الحصار وتؤثر على أفراد أسرتها.

لقد كان لهذه الأعباء وغيرها مما لا يمكن حصره أثر بالغ في مضاعفة الضغوط على الأسرة، بما في ذلك أجواء القلق والتوتر النفسي والعصبي، فإذا ما أضفنا غياب النشاطات الترفيهية التي يمكن أن تبدد فعل هذا العوامل، أو تلافي جزءا من تأثيراتها السلبية، كان لنا أن نتصور مقدار الأعباء التي تضطلع بها المرأة في ظل الحصار. وقد يتبادر إلى الذهن أن المسئولية هنا مشتركة بين الزوجين، وأن فعل هذه العوامل يمكن أن يؤثر في كليهما بقدر متساو، وهذا -بطبيعة الحال- اعتقاد وارد ولكنه لا يمثل الواقع. فانشغال رب البيت بأعمال مضاعفة لزيادة دخل الأسرة، وطبيعة الأنماط الاجتماعية السائدة في المجتمع العربي، تفرض اضطلاع المرأة بتدبير كل ما يتعلق بالأمور المنزلية، بما يضطرها - في أحيان كثيرة - إلى ترك وظيفتها أو عملها خارج المنزل، وإن كانت

تتمتع بالكفاءة والمقدرة العلمية.

والواقع أن مجمل العوامل المتقدمة كانت سببا في حدوث اضطرابات ونزاعات أسرية أثرت -بشكل واضح- في زيادة حالات الطلاق. وتشير الإحصائيات المتوفرة إلى زيادة هذه الحالات في أثناء فترة الحصار، وهذا ما يتضح من الجدول أدناه الذي يفيد بارتفاع معدلات الطلاق بشكل يتناسب طرديا مع فعل الأزمات الاقتصادية الحادة في المجتمع. ففي عام ١٩٩٥ الذي وصل فيه سعر صرف الدولار الأمريكي الواحد إلى (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف دينار عراقي، بعد أن كان الدينار العراقي الواحد يعادل (٣,٣) دولار، مما أدى إلى ارتفاع معدل التضخم الاقتصادي، بشكل غير معقول، اضطرت معه الأسر إلى بيع دور سكنها وموجوداتها من السلع المعمرة، لتؤمن سد احتياجاتها من الغذاء والدواء - في هذا العام، تحديدا، تفاقمت حدة المشاكل الأسرية، بفعل عوامل الفقر والعوز المادي الشديد، فبلغت حالات الطلاق المسجلة أعلى معدل لها، وإذا ما أضفنا حالات الطلاق غير المسجلة في محاكم الأحوال الشخصية وهي - على سبيل المثال - حالات الطلاق الرجعي التي يراجع فيها الزوج زوجته في أثناء فترة العدة الشرعية، أو الاضطرار إلى إقامة دعوى أمام المحاكم المختصة لتصديق الطلاق وهي حالات لا يمكن حصرها بحال - لأدركنا مدى التعاظم في عدد حالات الطلاق، بفعل ظروف الحصار، وهو ما يؤكده تناقص هذا المعدل تدريجيا مع بدء تنفيذ مذكرة التفاهم في إطار الأمم المتحدة عام ١٩٩٦، بشكل يتناسب طرديا مع التطور الحاصل في تنفيذ هذه الاتفاقية، وبما يعزز تأثير استمرار الحصار في زعزعة البنى الاجتماعية وتقويض البناء الأسري.

السنة	١٩٨٨	١٩٨٩	١٩٩٠	١٩٩١	١٩٩٢	١٩٩٣	١٩٩٤	١٩٩٥	١٩٩٦	١٩٩٧	١٩٩٨
عدد حالات الطلاق	١٩٣٦٨	٢٣٦١٤	٢٥٩٧٢	٩٣٤٦	٢٧٥٠٤	٢٨٩٧٤	٣٠٩٠٤	٣٣١٦١	٣٢١٩٢	٢٨٨٠٠	٢٥٦٥٢

وفي ما يلى تفصيل لبعض التأثيرات الاجتماعية التي يرتبها الحصار على أوضاع المرأة العراقية.

أولا - الحصار وحقوق المرأة في الأحوال الشخصية:

كان للحصار أثره في حرمان عدد كبير من النساء من الحصول على حقوقهن المكفولة قانونا في حالات الهجر والطلاق والتفريق، لأسباب تتعلق بعدم قدرة الزوج على الوفاء بهذه الحقوق، نتيجة إعساره المادي في ظروف الحصار، أو لأن الكثير من الرجال ترك العمل في القطاع الحكومي لقلة مردوداته، ولجأ إلى العمل في القطاع الخاص.

وباستعراض الجوانب التالية، يمكن قياس مدى تأثير الحصار على تمتع المرأة بحقوقها الشرعية.

$ النفقة: أدى الحصار إلى تضاؤل قيمة النفقة المقدرة من المحكمة لسدّ احتياجات المرأة وأولادها، إن كان لها أولاد، وكون الزوج ذا دخل محدود في الأساس يجعل النفقة المقدرة في حدود هذا الدخل ضئيلة، لا تغطي إلا جزءا غير ملموس من احتياجات الأسرة. ولقد حدا هذا بالكثير من النساء إلى عدم تنفيذ قرارات النفقة الصادرة من المحاكم المختصة، أو عدم استلامها أصلا. وعندما يكون الزوج من العاملين في القطاع الخاص، فإنه يستطيع، بسبب طبيعة هذا القطاع، غالبا، التهرب من موجبات القانون بدفع النفقات المستحقة للزوجة والأولاد، فالزوجة - في هذه الحالة - لا تقدر على احتساب مردودات الزوج المالية وإثباتها بشكل دقيق، بما يمكنها من الحصول على مستحقاتها منه. وهذا ما دفع الكثير من الزوجات - وفي أحيان كثيرة - إلى التنازل عن حقوقهن في النفقة، وعدم اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة لتحصيلها، وهي إجراءات تكلفهن الكثير من الجهود والنفقات دون طائل، إزاء تهرب البعض واعتماده مختلف الأساليب لحرمان زوجته من مستحقاتها المالية. وهذا ما يمكن ملاحظته من مقارنة عدد دعاوى النفقة في عام ١٩٩٨ الذي بلغ (٢٠٦٧٥) بعددها في عام ١٩٩٠ الذي وصل إلى (٢٩٧١٨) - وهي أرقام لا تتناسب مع حجم دعاوى الطلاق التي تزايدت بفعل الحصار، كما أشرنا سابقا.

وفي مقابلة هذه المتغيرات، أقرّ المشرّع قرارا بالحبس لكل من يتهرب من دفع نفقة زوجته وأولاده أو من هو مكلف بإعالتهم شرعا مع قدرته على ذلك، مع تشديد العقوبة في حالة العود. ثم عاد المشرع، في إطار الموازنة بين مصلحة الزوجين، ونظرا لارتفاع معدل التضخم بشكل غير متوقع، ليحدد حق الزوجة في المطالبة بنفقتها الماضية بمدة لا تزيد على سنة، بعد أن كانت القاعدة المعتمدة – في هذا الصدد – أن النفقة الماضية دين ثابت في ذمة الزوج طيلة فترة تركه لزوجته، بدون مبرر شرعي، تطالب بها الزوجة في أي وقت تشاء، وهكذا كان لاستمرار الحصار أثره في حرمان المرأة من جزء من حقوقها، بفعل الظروف الاستثنائية الناجمة عنه.

$ حق الزوجة المطلقة في السكنى: دفع الوضع المادي المتأزم ومشكلة السكن الخانقة، بسبب الحصار، بعض الأزواج إلى نقل ملكية الدور التي يملكونها إلى الغير، أو ترتيب حقوق أخرى عليها كتأجيرها أو رهنها قبل إيقاع الطلاق، لحرمان الزوجة المطلقة من حقها في السكن في الدار بعد الطلاق، كحق أُقر لها بموجب ما يسمى قانون حق الزوجة المطلقة في السكنى. وقد أثرت هذه الحالات على فئة من النساء المطلقات، وحرمتهن من التمتع بهذا الحق، وزادت أعباءهن كمعيلات بعد الطلاق. والأزمة المادية الخانقة التي شملت بآثارها جميع الأسر العراقية، تعسر تأمين سكن للزوجة المطلقة ولا سيما إذا كان لديها أولاد، حتى بفعل العلاقات الاجتماعية التي تربطها بالأسرة الممتدة، فبرغم أهمية هذه العلاقات كرصيد في الأزمات، فإن فاعليتها في نهاية الأمر محدودة كمظلة أمان اجتماعي، ولا يمكن بحال التعويل عليها كضمان دائم.

وأمام هذا الوضع، أصدر المشرّع تعديلا على قانون حق الزوجة المطلقة في السكنى المشار إليه أعلاه، يتضمن عدم نفاذ التصرفات التي يقوم بها الزوج بحق زوجته قبل وقوع الطلاق، أو من تاريخ إقامة دعوى التفريق إلى يوم وقوع أي منهما، إذا كان من شأن تلك التصرفات نقل ملكية الدار أو الشقة محل إقامة الزوجين إلى الغير، أو ترتيب أي من الحقوق العينية الأصلية أو التبعية عليها، إذا كان من شأن تلك الحقوق حرمان الزوجة من التمتع بحقها في السكن. واشتمل التعديل، أيضا، على فقرة إضافية تتضمن انتقال الحقوق والالتزامات المقررة في عقد الإيجار المبرم مع الزوج إلى الزوجة، في حالة الطلاق أو التفريق، مع إلزام المحكمة الاستفسار من الزوجة في الحالتين عن رغبتها السكن في الدار عند الطلاق، لتجاوز حالات فقدان الزوجة لحقها في التمتع بهذا النص، نتيجة جهلها بالقانون.

$ مؤخر الصداق: أدى التضخم الاقتصادي، أيضا، إلى تضاؤل حق المرأة في مؤخر صداقها، خصوصا بالنسبة إلى فئة النساء المتزوجات منذ فترات طويلة اللائي قد يبلغ مؤخر صداقهن – بموجب عقد الزواج – خمسين دينارا، مما جعلها أقرب إلى فقدان حقها هذا في حالات الطلاق، وبشكل لافت للنظر. فإذا علمنا أن قيمة رغيف الخبز المدعوم من الدولة الآن تبلغ ثلاثين دينارا، لتبينا ضآلة ما تستحقه المرأة عند طلاقها كمؤخر للصداق، وهذا ما أضاع حقوق بعض المطلقات لفترة طويلة، ومنذ بدء الحصار، وبنسب متفاوتة، وحسب درجة التضخم. ولهذا استصدر تشريع جديد يعادل مؤخر الصداق في حالات الطلاق بسعر الذهب وقت عقد الزواج، ليتم احتساب مؤخر الصداق في ضوئه، لرفع الحيف الذي يمكن أن يصيب بعض النساء في حالات الطلاق، بسبب المتغيرات الاقتصادية الحادة الناتجة من استمرار الحصار.

ثانيا – الحصار والزواج:

كان لارتفاع تكاليف الزواج الناجم عن التضخم الاقتصادي الأثر في عدم تمكن الكثير من الشباب من توفير الحد الأدنى من مستلزمات البدء بحياة زوجية مشتركة، قياسا إلى ضآلة مردوداتها وعدم استقرارية وضعها المادي في ظروف الحصار. وبالطبع، فإن ظروفا استثنائية من قبيل ما ذكر أثرت في انخفاض حالات الزواج عن ما كانت عليه قبل فرض الحصار، وأدت إلى عزوف الكثير من الشباب عن التورط في مهمة عسيرة وشاقة كهذه، في ظرف عصيب لا تعرف له نهاية. وهذا ما يتضح من المؤشرات الرقمية التالية:

السنة	١٩٨٨	١٩٨٩	١٩٩٧	١٩٩٨

عدد حالات الزواج ١٧٤٦٩١ ١٩٢٤٨٧ ١٢٧٩٠١ ١٣٦١٤٩

والمشكلة لها أكثر من بُعْد، ذلك إن عزوف الشباب عن الزواج يقلل من فرص زواج الشابات بصورة مطلقة، وعند النظر إلى هجرة الكفاءات العلمية التي غالبا ما تكون من الشباب الذكور، بسبب قلة فرص العمل المناسبة، في ظروف انحسرت فيها مشاريع الدولة التنموية إلى حدودها الدنيا، باستثناء ما يتعلق بإعادة بناء ما دمره العدوان – سنرى ما للحصار من أثر في تحديد فرص الزواج بالنسبة إلى الكثير من النساء، وهو ما دفع بالبعض منهن إلى قبول فرصة الزواج الثاني بمعزل عن شروط الكفاءة والتناسب في شريك الحياة. وهذا – بحد ذاته– يعُد تراجعا عن ما حققته المرأة في مسيرة التطور الحضاري في المرحلة السابقة للحصار، ناهيك عن الآثار الاجتماعية التي يرتبها الإقدام على مثل هذه الخطوة والمشكلات التي تنشأ عنها وفي مقدمتها طلاق إحدى الزوجتين، أو استلاب حقوق إحداهما، لعدم قدرة الزوج على إعالة زوجتين في ظروف الحصار. وهذا ما ألجأ البعض إلى إسكان الزوجة الثانية في السكن المهيأ للزوجة الأولى. ولنا أن نتصور حجم المشاكل الناجمة عن مثل هذا الوضع الشاذ آخذين بعين الاعتبار عدم تهيؤ جميع الأطراف، بما في ذلك الزوج، لتقبل مثل هذه الحالة، نظرا للتطور الحضاري الذي أصابه المجتمع في المراحل السابقة للحصار، والذي فرض نمطا اجتماعيا رافضا لمبدأ تعدد الزوجات، خصوصا في المناطق الحضرية، وفي أوساط المثقفين، حتى من ذوي المستوى التعليمي المنخفض.

وهنا، أيضا، تدخل المشرّع بإصدار تشريع يؤكد فيه حق الزوجة الأولى في السكن المستقل المقرر لها قانونا، وبعدم السماح للزوج بأن يسكن مع زوجته زوجة ثانية دون رضائها.

ومن الجدير بالذكر، أن حق الزوجة في السكن المستقل كان قد أقر قانونا، وبشروط حددها المشرع في قانون الأحوال الشخصية العراقي النافذ رقم ١٥٧ لسنة ١٩٥٩ وتعديلاته. وقد جرت أحكام المحاكم على إقرار هذا الحق والتقيّد بما حدده القانون في عدم السماح للزوج بأن يسكن في دار الزوجة أحدا من أقربائه عدا ولده الصغير غير المميز، إلا إن ظروف استمرار الحصار وما نجم عنه من أزمات مادية خانقة، حدت بالكثيرين، خاصة كبار السن غير القادرين على العمل الشاق، إلى بيع دور سكنهم لتأمين حاجاتهم الأساسية، مما أدى – في أحيان كثيرة – إلى تدهور ظروفهم المعيشية، الأمر الذي دفع المشرع إلى إصدار تشريع يلزم بموجبه الزوج بإسكان والديه في دار الزوجية، استثناء من الأحكام الخاصة بالبيت الشرعي التي تم ذكرها أعلاه، وهكذا، حرمت ظروف استمرار الحصار الزوجة من حق مقرر لها قانونا حفاظا على مصلحة أكبر فرضت نفسها في ظل ظروف استثنائية، وهي الحفاظ على التماسك الأسري ورعاية الأبوين.

ثالثا – الحصار والنساء المعيلات:

كان لما ذكر من زيادة حالات الطلاق والتفريق وقلة فرص الزواج، إضافة إلى ما خلفته حربان متتاليتان من أسر للشهداء، أثره في ارتفاع نسبة النساء المعيلات. وهؤلاء يعانين، حتى في الظروف الاعتيادية، إشكالات كثيرة ناتجة من انفراد المرأة بجميع الأدوار في العائلة، فتنخفض كفاءتها في أداء جميع تلك الأدوار، من منظور التحليل الاقتصادي، حيث يغيب التخصص وتقسيم العمل، وتنخفض العوائد وترتفع التكاليف الاجتماعية والاقتصادية المترتبة على أدائها لتلك الأدوار، بما يضعها وأفراد عائلتها في دوامة الفقر والعوز. ولهذا، كان فعل الحصار وتأثيراته السلبية على هذه الفئة من النساء مضاعفا، خاصة في ما يتعلق بالجوانب النفسية والصحية.

رابعا – الحصار وعمل المرأة:

اضطرت الكثير من النساء العراقيات مع الحصار الذي زاد أعباءها الأسرية إلى ترك العمل الوظيفي، سواء بشكل قانوني، أي بالتقاعد والاستقالة والحصول على الإجازات الطويلة بدون مرتب، أو بشكل غير قانوني بترك العمل، مما أدى إلى اتخاذ إجراءات قانونية بحقهن، سواء بالفصل أو بالإقالة الإدارية. وكان لذلك أثره في تفريط عدد غير قليل من النساء بطموحاتهن الإدارية والوظيفية والأكاديمية، وهو ما يمثل – بلا شك – خسارة إنسانية وحضارية وتنموية كبيرة وهدرا لطاقة إنتاجية فعالة في المجتمع.

ولا سيما أن الكثيرات ممن تركن العمل من حملة الشهادات الجامعية والشهادات العليا.

ومن ناحية أخرى، أجبرت ضرورات توفير موارد إضافية للأسرة، واستغلال طاقات أفرادها بحدودها القصوى، لتأمين مستلزمات الحد الأدنى من العيش – الكثير من النساء على العمل بمشاريع مدرّة للدخل داخل المنزل كاختيار أفضل لهن في ظل الحصار، على حساب طموحاتهن العلمية، وإدراكا منهن لعدم ملاءمة فرص العمل المتاحة لقدراتهن وكفاءاتهن العلمية، وبدافع الحفاظ على الأسرة، واستيعاب ما يتهدد أفرادها من أخطار جرّاء العوز المادي. وتجدر الإشارة هنا إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي أن الأعداد الكبيرة من النساء اللائي فضلن العمل المنزلي بفعل ظروفهن، قابلتها أعداد أخرى من النساء استمرت في العمل في القطاعين الحكومي والمختلط، محققة زيادة في نسبة النساء العاملات في هذين القطاعين، بفعل اتجاه الكثير من الرجال إلى العمل في القطاع الخاص وترك العمل الحكومي، لقلة مردوداته في ظروف الحصار، وهكذا، يبدو أن كل حالة سلبية يكون لها إفرازات إيجابية يفرضها واقع الحال، نتيجة لعوامل التكيف الاجتماعي. وتفيد الإحصائيات بأن عدد النساء العاملات في هذين القطاعين من حملة الشهادة الجامعية أو ما دونها، بلغ (٣٣٨٥٢٣) في عام ١٩٩٨، في حين بلغ عدد الذكور في هذين القطاعين من الفئة ذاتها (٥٠٢١٠٥) في العام نفسه، وفي الوقت الذي زاد فيه عدد النساء على عدد الذكور، من هذه الفئة، في مجالات وظيفية معينة، يوضحها الجدول التالي:

الوظيفة	الإناث	الذكور	النسبة المئوية للإناث
الاختصاصيون والفنيون	٢١٥٦٥٨	١٨٠٦٤٢	٥٤٪
ومن يرتبطون بهم			
الموظفون التنفيذيون	٦٥٧٣١	٤٩٣٥٧	٥٨٪
والكتبة			
العاملون في البيع	٨٦٢	٨٠٠	٥٦٪

والواقع أن الأرقام والنسب الواردة تعبر عن طفرات نوعية على صعيد عمل المرأة، فقد أصبحت نسبة مشاركتها في إجمالي قوة العمل في هذين القطاعين، حسب آخر إحصائية في عام ١٩٩٨ – ٤٠٪، بعد أن كانت ٣٤٪ عام ١٩٩٠.

ويرتبط هذا التطور باتساع قاعدة تعليم الإناث، وارتفاع نسب التحاقهن بالتعليم بمختلف مراحله وقنواته، وتحسين ظروف العمل بالنسبة إلى النساء، إضافة إلى عوامل التطور الحضاري والمجتمعي التي حصلت في العراق قبل الحصار، والتي تم الاستناد إليها في فترة الحصار، برغم جميع المعوقات التي ذكرناها آنفا.

والمؤكد أن تطورا من هذا القبيل كان له دوره في تعديل الكثير من المقولات التقليدية السائدة التي تشكك في قدرات المرأة وكفاءتها في ميادين العمل، وتحمل المسئولية الإدارية والاجتماعية، ثم إن استمرار الحصار كان له دوره في التأثير على كل ما يتعلق بتنمية المرأة اجتماعيا، كحقها في التعليم وفي الثقافة وفي الحصول على الفرص العلمية والتطور العلمي والتقني، وعلى صعيد ممارستها لحقوقها السياسية وإثبات كفاءتها في مراكز صنع القرار وتولي المناصب العليا في الدولة، وعلى حقوق أخرى لا يتسع المجال لذكرها تفصيلا.

المرأة العراقية وتغير أنماط حياتها تحت وطأة العقوبات الاقتصادية

نادية العلي

تأثرت بشدة من لقائي مع أسرتي خلال زيارتي الأولى لبغداد بعد حرب الخليج وفرض العقوبات الاقتصادية. كان ذلك في شهر أكتوبر ١٩٩٧، وكانت الحرب، فضلا عن العقوبات، قد تركتا بصماتهما على كل فرد التقيته. وعلى الرغم من أن أسرتي كانت من بين الأسر «المحظوظة»، مع وجود أحد الأقرباء (والدي) يعيش في الخارج ويدعم الأسرة ماليا، فقد كان البؤس واضحا بجلاء: لم تكن الأسرة مفتقدة إلى الإمدادات الأساسية من الغذاء أو الملابس أو الأدوية (التي كان أغلبية السكان في حاجة ماسة إليها)، ومع ذلك، بدا الاكتئاب واضحا على جميع أفراد الأسرة، كان الجميع مفعما باليأس والقنوط. حاولت أن أضع نفسي في موضع أفراد أسرتي، وتخيلت أنني أشعر بالامتعاض والغيظ تجاه إحدى القريبات (هي أنا) التي تعيش في الخارج، بعيدا عن هذا الجحيم، وتدرس وتتحرك بحرية في مختلف الأماكن. وبدلا من الامتعاض، أحسست بمشاعر غريبة بشأن حياتي، كما شعرت بسعادة حقيقية لأن الأمور تسير سيرا حسنا معي. ولقد فتحت هذه التجربة عيني على أمور عديدة.

وعند هذه اللحظة، قررت أن أوجه مهاراتي وقدراتي (التي اكتسبتها من ميزة الحصول على تعليم جيد والسفر إلى أنحاء العالم كافة) إلى المساهمة في رفع الوعي حول تلك الجريمة الشنعاء التي تقترف ضد الشعب العراقي. وفي المملكة المتحدة – مكان إقامتي – انتابتني الدهشة عندما وجدت أعدادا متزايدة من العراقيين بلا أقرباء أو أصدقاء في العراق، وتعرضوا، أيضا، إلى عمليات اعتداء وحشية نتيجة للحرب على العراق وموقفهم ضد استمرارها. توجد في مختلف أنحاء بريطانيا جماعات وأفراد يقومون، عبر وسائلهم البسيطة، بمحاولة مقاومة سياسات حكومتهم، ورفع الوعي حول عملية التدمير المستمرة للشعب العراقي. يقومون بتنظيم المظاهرات والندوات، وتوزيع المنشورات، وكتابة الرسائل للساسة، فضلا عن السفر إلى العراق تحطيما لقرار العقوبات، والمشاركة في أنشطة التمرد المدني... إلى آخر ذلك. وفي حين ظلت الحكومة البريطانية حليفا لسياسة الولايات المتحدة التي لا تخضع للمساومة، فقد تعرضتْ إلى ضغوط متزايدة من جانب الأصوات التي تشعر بالاستياء داخل البلد. ويبقى واضحا أن الحركة المعادية للعقوبات إذا استطاعت كسب جماهيرية أكبر، فإنها ستكتسب قوة أكبر في مواجهة الحكومة. ولم يعُد من الضروري الفصل فحسب بين النظام العراقي والشعب العراقي، وإنما، أيضا، كما أصبح واضحا بالنسبة إليّ، بات ضروريا الفصل بين الحكومة البريطانية والشعب البريطاني. ولا يعني ذلك القول إن الشعب البريطاني كله يعارض العقوبات، وإنما يعني تزايد أعداد المعارضين للعقوبات، بل إن البعض منهم يعبر بنشاط عن معارضته.

ولقد قررت، في سياق الحملة المعادية للعقوبات في المملكة المتحدة، أن أبحث عن إجابة عن السؤال التالي: ما مدى تأثر المرأة العراقية على نحو خاص؟ وبدلا من التركيز على القضايا المشتعلة – مثل ارتفاع معدل وفيات الأطفال، وسوء التغذية، والفقر، وعدم كفاية الرعاية الصحية(١)– حاولت النظر بعمق في التغيرات الاجتماعية والثقافية داخل المجتمع العراقي. ونظرا لصعوبة بقائي لفترة طويلة في العراق، استخدمت مجموعة من الوسائل البحثية غير الرسمية. ولمّا كنتُ قد حصلت على تدريب كباحثة أنثروبولوجية، فقد اشتركت تلقائيا في «ملاحظات المشارك»، في أثناء زيارتي لأسرتي في العراق. والنقاشات التي دارت بيني وبين الأصدقاء الذين كانوا يزورون العراق بصورة دورية، علاوة على المقابلات التي أجريتها مع اللاجئات العراقيات اللاتي وصلن إلى المملكة المتحدة مؤخرا، كانت تتسم بموقع مركزي بالنسبة إليّ، في ما يتعلق ببناء عدد من الظواهر الاجتماعية والثقافية التي تتعلق بالأثر الناجم عن العقوبات. ومع ذلك، يجب التأكيد على أن هذه الدراسة ليست سوى نتائج بحث أولي، تضع الخطوط العريضة لتوجهات وتحولات عامة، ولا تقدم بيانات قابلة للقياس.

نضالات الحياة اليومية

في محاولة لتقييم أثر العقوبات على الحياة اليومية للمرأة العراقية، من المهم إدراك أن النساء العراقيات لا يشكلن مجموعة متجانسة، وأن أشكال تأثرهن بالعقوبات اختلفت. ويصدق الشيء نفسه على الرجال. والاختلافات العرقية والدينية لا تتسم بالدلالة ذاتها التي يتسم بها مكان الإقامة، وأعني الريف أو الحضر. وبرغم ذلك، فربما تتسم الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها المرأة بأهمية أكبر، فبالنسبة إلى النساء المنتميات إلى الطبقات المنخفضة الدخل في المناطق الحضرية، أو النساء الفقيرات اللاتي يعشن في الريف، فإن مجرد البقاء أصبح هدفهن الأساسي. وما من شك في أن هذا الوضع يصدق، على نحو خاص، على

الأمهات المنتميات إلى الطبقات المنخفضة الدخل اللاتي من المرجح أن يصبح أطفالهن مجرد أرقام إحصائية أخرى ضمن معدلات وفيات الأطفال الشديدة الارتفاع، أو اللاتي يعاني أطفالهن من الأمراض وسوء التغذية. وربما تقع على كاهل النساء الفقيرات في الحضر صعوبات أكبر، إذ يعجزن عن إطعام أنفسهن مثلما يفعل الناس في الريف. ومع ذلك، فإن الطبقات الوسطى الحضرية(٢) هي التي خبرت أكبر انخفاض في مستويات المعيشة، تلك الطبقات التي كانت قد بنيت، بدرجة كبيرة، على العمل في الدولة، واستفادت من وراء ذلك.

إن العقوبات، وما يستتبعها من إفقار وفقدان الشعور بالأمان، قد عرّضت النساء من مختلف الخلفيات الاجتماعية إلى ضغوط مادية كبيرة. فإدارة الأسرة في ظل ظروف الانقطاع المتكرر للكهرباء، فضلا عن نقص المياه، أصبحت تستغرق وقتا كبيرا، علاوة على ما تستتبعه من إرهاق وشعور بالإحباط. ولسوف أسوق مثالا واحدا فقط في هذا الصدد: سعر الخبز أصبح باهظا عند شرائه من السوق، ولم يعُد لدى كثير من النساء العراقيات خيار آخر سوى الخَبْز يوميا، باستخدام حصة الدقيق التي توزعها الحكومة. وهناك سبب آخر وراء زيادة صعوبة الحفاظ على الأسرة وشعور أفرادها بأنهم ينتمون إلى أسرة واحدة، يكمن في أنه نتيجة لتكرار انقطاع الكهرباء عادة ما يصبح تخزين الطعام مشكلة كبيرة، بل مستحيلا، أحيانا، في بعض المناطق.

إن كثيرا من النساء المنتميات إلى الطبقة الوسطى المتعلمات والموسرات ماديا في السابق، تعرضن إلى تدهور حاد في ظروف معيشتهن. لقد أصبحت عملية إطعام أطفالهن تمثل شغلهن الشاغل وقلقهن الأساسي. وتتذكر هناء(٣)، مثلا، وهي التي تركت العراق مؤخرا وتعيش الآن في لندن، قائلة: «كنت أقوم بإطعام أطفالي وزوجي قبل أن آكل أي شيء، بل عادة ما أظل جوعانة. وكنت أقوم، أيضا، بإطعام أطفالي قبل زيارتي لأي من صديقاتي. قبل العقوبات، كان الناس كرماء. عادة ما كنا نقدم الشاي والبسكويت، إن لم نقدم وجبة طعام كاملة، عند قدوم الزائرين. أما الآن، فقد توقفت الزيارات حتى لا يشعر أحدنا بالحرج».

وعلاوة على الآثار الواضحة للعقوبات في ما يتصل باستراتيجيات البقاء الأساسية وصعوباتها، فقد تركت العقوبات الاقتصادية بصمتها على النسيج الاجتماعي والثقافي للمجتمع العراقي، أيضا. وما من شك في أن المرأة العراقية فقدت بعضا من الإنجازات التي كانت حصلت عليها خلال العقود الماضية. لم تعُد المرأة العراقية قادرة على تأكيد ذاتها من خلال القنوات التي طرقتها سابقا، مثل التعليم والعمل المأجور. وهنا تجدر الإشارة إلى بعض المعلومات الأساسية: كانت فترة السبعينات وباكورة الثمانينات تمثل سنوات الازدهار الاقتصادي بشكل عام، وظهور الطبقة الوسطى وتوسعها. ولقد نجحت سياسات الدولة في محو الأمية وتعليم النساء وإدماجهن في قوة العمل. وكانت الفترة الأولى التالية لتأميم صناعة النفط العراقية عام ١٩٧٢ تتسم بصعوبات اقتصادية. ومع ذلك، فإن الحظر على النفط الذي فرضته الدول المصدرة للنفط (أوبك) عام ١٩٧٣، المعروف باسم «أزمة النفط»، تبعته فترة من الازدهار والتوسع. فقد ارتفعت أسعار النفط، وبدأت الدول المصدرة للنفط تعي قوتها في مجال المساومة، في ما يتعلق باعتماد البلدان الغربية على النفط. وفي سياق هذا التوسع الاقتصادي السريع، نشطت الحكومة العراقية في توجهها نحو المرأة وإدماجها في قوة العمل. وفي عام ١٩٧٤، صدر مرسوم حكومي ينص على أن جميع خريجي الجامعات – سواء من الرجال أو النساء – سوف يحصلون على وظائف. وفي مهن معينة – مثل الرعاية الصحية والتدريس– كان التعليم ذاته يتطلب تعاقدا مع الحكومة التي أجبرت الطلاب على شغل وظائف في هذه المهن.

والمؤكد أن سياسات تشجيع المرأة على الدخول إلى سوق العمل لا يمكن تفسيرها من زاوية المساواة أو حتى المبادئ النسوية، على الرغم من أن كثيرا من النساء اللاتي تحدثت معهن قدّمن تعليقات إيجابية حول السياسات البعثية المبكرة، بشأن دمج المرأة اجتماعيا. ويخرج على نطاق حديثنا هذا إجراء تحليل دقيق لدوافع النظام البعثي الخاصة والأيديولوجية بشأن أدوار المرأة ومواقعها. وتجدر الإشارة إلى أن العمالة كانت قليلة. وبينما بدأت دول الخليج في البحث عن عمالة خارج حدودها الوطنية، كانت الحكومة العراقية تمتلك موارد بشرية كبيرة. وبذلك أصبح عمل المرأة خارج البيت أمراً مقبولاً، بل أمر يحظى بالإحترام. وعلينا أن نأخذ بالاعتبار إتجاه الدولة ببسط سيطرتها على المواطنين بواسطة الدعاية الواسعة لسياستها على المواطنين – سواء أكانوا رجالا أم نساء. وقد كان من الأيسر، بطبيعة الحال، التوجّه نحو جذب المرأة في اللحظة التي كانت فيها جزءا مما يسمى مجال

العمل العام، وكانت تتواجد في مختلف أماكن العمل. وجدير بالذكر أن عددا كبيرا من أعضاء الحزب جرى تجنيدهم من خلال أماكن عملهم.

وأيّا كانت دوافع الحكومة، فقد أصبحت المرأة العراقية من بين أكثر النساء تعليما وارتباطا مهنيا في المنطقة برمّتها. ولكن إلى أي مدى أسفر نفاذ المرأة إلى التعليم وسوق العمل عن تحسين وضعها، يبقى أمرا شديد التعقيد عند الفحص. وكما هي الحال في أماكن أخرى عديدة، فإن القيم المحافظة والأبوية لا تتغير تلقائيا لمجرد أن المرأة بدأت تعمل. وهنا توجد اختلافات كبيرة بين المرأة الريفية والمرأة الحضرية، وفي ما بين النساء من مختلف الطبقات الاجتماعية، أيضا.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى عراق اليوم، نجد تدهورا متسارعا في التعليم وظروف العمل. لقد انهار التعليم العالي عمليا، وأصبحت الدرجات العلمية لا قيمة لها في سياق تفشي الفساد، واستمرار الهجرة الجماعية لأساتذة الجامعات. وازدادت، بصورة مفارقة، عمالة المرأة في القطاع العام، ولكن رواتبه الشهرية انخفضت بصورة كبيرة لا تناظر ارتفاع التضخم وتكاليف المعيشة(٤).

قالت لي وداد، وهي امرأة متعلمة من الطبقة الوسطى وفي نهاية الأربعينات من عمرها، كانت تعمل مدرّسة في مدرسة عُليا حتى عام ١٩٩٥: «لم نشعر بضراوة الأمر في السنوات الأولى من العقوبات، ولكننا صدمنا بالفعل عام ١٩٩٤ مع تدهور الأوضاع الاجتماعية. لقد انخفضت قيمة العملة، في حين ظلت الرواتب ثابتة. وبدأ كثير من النسوة يتركن العمل. لم تستطِع بعض صديقاتي دفع حتى ثمن المواصلات إلى المدرسة. قبل فرض العقوبات، كانت المدرسة تضمن لنا مرور حافلة على منازلنا يوميا، ولكن ذلك كله توقف خلال السنوات الأخيرة. ولقد تركت العمل بسبب أطفالي، أساسا. لم أكن أرغب في أن يعود أطفالي إلى المنزل ويبقوا فيه بمفردهم، فالوضع لم يعد آمنا. وبعد ذلك، عرفت من عملي كمدرّسة أن المدارس أصبحت سيئة، نظرا لترك أغلب المُدرسّات العمل وعدم توفر المال لأي شيء. شعرت بأنني يجب أن أقوم بالتدريس لأطفالي في المنزل».

وبسبب سوء الظروف في المدارس، نتيجة لنقص الموارد والمدرسين، شعر كثير من أولياء الأمور بضرورة مساهمتهم في تعليم أطفالهم. ونعني بأولياء الأمور هنا الأمهات، وهو ليس بالأمر الفريد من نوعه بالنسبة إلى العراق، بطبيعة الحال. فالنساء العاملات، مثل وداد، عانين من انهيار نظم الدعم. كانت الدولة تقوم بتمويل إحدى نظم الدعم السابقة، وهو النظام الذي كان يضم عديدا من دور الحضانة والمواصلات العامة المجانية من المدرسة وإليها، وإلى مكان العمل بالنسبة إلى المرأة. أما نظام الدعم الآخر، فكان يرتكز على الروابط العائلية الممتدة وعلاقات الجيرة التي كانت تساعد في مجال الرعاية بالطفل. ولكن النساء في هذه الأيام لا يرغبن في ترك أطفالهن مع الجيران أو الأقرباء، بسبب شعور عام بعدم الأمان.

من ناحية أخرى، ازدادت معدلات الجرائم. لقد أفادت العديد من النسوة بأنهن اعتدن، منذ عشرة أعوام، ترك أبواب بيوتهن مفتوحة، نظرا لشعورهن بالأمان الكامل. أما الآن، فتنتشر عمليات السطو على المنازل – وعادة ما تكون عمليات سطو مسلح. وأفادت عديد من الأمهات، أيضا، بأن أطفالهن أصبحوا يشعرون بالحاجة الماسة إليهن والارتباط بهن أكثر، بعد حرب الخليج والتهديد المستمر بالقصف. ومع غياب عمليات المشورة والعلاج النفسي، أصبحت الأمهات يحملن عبء التعامل مع أطفالهن المثقلين بالمتاعب. وهناك، أيضا، شعور عام بعدم الثقة في محيط الأسرة، باستثناء الأسرة النووية المغلقة. ويتناقض ذلك تناقضا صارخا مع القيم الثقافية التقليدية التي تؤكد علاقات الأسر الممتدة تأكيدا كبيرا.

وتجد المرأة نفسها، في بعض الحالات، مجبرة على الاستمرار في العمل، على الرغم من أن الأفضل بالنسبة إليها ترك العمل، بسبب انخفاض المرتب وشعورها بالقلق على أطفالها. قالت لي امرأة في الخمسينات من عمرها وصلت إلى المملكة المتحدة منذ تسعة شهور، إن البعض من قريباتها وصديقاتها في بغداد يرغبن في الاستقالة من وظائفهن في القطاع العام، لأن المرتبات، مع ثباتها، لم تعُد تغطي حتى تكلفة المواصلات من العمل وإليه، ومع ذلك، فقد شعرن بأنهن مجبرات على الاستمرار في العمل، لأن الحصص الشهرية التي يحصلن عليها من الغذاء ترتبط بوظائفهن.

وفي حين يجنّب نظام توزيع الطعام للمواطنين مستويات أعلى من سوء التغذية ومعدل الوفيات، فمن الواضح أنه يستخدم

لزيادة الاعتماد على الدولة، فضلا عن استبعاد جماعات بعينها.

التغيرات الديموجرافية

إن وجود ذلك العدد الكبير من الأسر التي تعيلها النساء هو نتيجة للتكلفة الديموجرافية لحربين، والهجرة الاقتصادية الإجبارية للرجال التي غذّاها فرض واستمرار العقوبات الدولية. وهؤلاء النسوة اللاتي يقدن أسرهن لسْن فحسب أرامل وجدن أنفسهن بلا أزواج نتيجة للحرب(٥)، وإنما هن، أيضا، نساء غادر أزواجهن إلى الخارج فرارا من قسوة الظروف، ومن أجل البحث عن طرق لدعم أسرهم. وهناك رجال آخرون هجروا فحسب زوجاتهم وأطفالهم لعدم قدرتهم على التأقلم مع العجز عن تلبية التوقعات الاجتماعية، باعتبارهم يمثلون مصدر الرزق لأسرهم.

وهناك أثر جانبي آخر لعدم التوازن الديموجرافي الراهن بين الرجال والنساء، يتمثل في صعوبة زواج النساء الشابات. إن تعدد الزوجات الذي كان قد أصبح مقيدا بدرجة كبيرة في المناطق الريفية ولغير المتعلمين، أخذ يزداد في السنوات الأخيرة. كما يتنامى توجه بين الشابات نحو الزواج من العراقيين المغتربين الذين عادة ما يكبرونهن في السن. ووفقا للمقابلات التي أجريتها، توجد حالات لنساء تركن العراق وتزوجن من رجال يكبرونهن في السن بعشرين أو ثلاثين عاما. وتواجه هؤلاء الشابات صعوبات كبيرة في التأقلم مع الحياة في الخارج، وتشعر كثيرات منهن بغربة كاملة عن أزواجهن، وعن البيئة الجديدة التي وجدن أنفسهن فيها.

وهناك ظاهرة شائعة أخرى تتمثل في ما أسمته امرأة عراقية «الزواج من طبقة أدنى». لقد كان العراق، من الناحية التقليدية، مجتمعا طبقيا إلى حد كبير، حيث يمكن أن يفتح أو يغلق اسم أسرة الفرد وخلفيته العديد من الأبواب. ويمكننا الآن أن نقتفي أثر حراك اجتماعي متزايد مع تقلص الحواجز الطبقية. ويرجع ذلك، جزئيا، إلى عدم تكافؤ الوضع الديموجرافي بين الرجال والنساء، ولكن المسألة ترتبط، أيضا، بالتغير الكامل في البنية الطبقية. إن ما تعرضت إليه الطبقات الوسطى من إفقار – وهي التي كانت موسرة في السابق – يسير جنبا إلى جنب مع ظهور طبقة «الأثرياء الجدد»، أثرياء الحرب والمستفيدين من العقوبات، وكما هي الحال في أية مأساة، فقد أثرى أناس بعينهم من وراء العقوبات، خاصة أولئك المرتبطين بتجارة السوق السوداء.

وفي الوقت نفسه، وحيث أصبح الزواج مشروعا عسير التحقق نسبيا، بدأت الشابات يشعرن، على نحو خاص، بضغوط البيئة «الثقافية» الجديدة التي تتحدد، في آن واحد، عبر هبوط القيم الأخلاقية المتصلة بالأمانة والكرم والاختلاط الاجتماعي، من ناحية، والتدين وتزايد النزعة المحافظة، بشكل عام، من ناحية أخرى. إن كثيرا من النساء اللاتي أجريت معهن مقابلات قد التقين أقربائي في بغداد، وتحدثن بأسًى عن التحول الكامل للأنماط الثقافية والقيم الأخلاقية. ولن أنسى أبدا عندما قالت لي عمتي «أتعرفين... يمكن إعادة بناء الجسور والبيوت بسهولة. قد يستغرق الأمر وقتا، ولكنه ممكن. إن معنوياتنا أو قيمنا هي ما دمروه بالفعل». وقد أضافت قائلة، مثلها مثل كثير من النساء العراقيات اللاتي تحدثت معهن، إن الأمانة لم تعُد ذات قيمة، لقد أصبح الناس فاسدين ويتصفون بالجشع والطمع، وأصبحت الثقة كلمة نادرة، وأصبح الحسد قائما حتى بين أقرب الأقرباء.

ووسط عملية تحول القيم الأخلاقية والأنماط الثقافية، وفي خضم الصعوبات الاقتصادية والقهر السياسي، كانت النزعة المحافظة والقيود الاجتماعية في تزايد، مستهدفة النساء على وجه خاص، ويبدو أن أقصى الأمثلة وأكثرها إثارة للحزن، حول تزايد الضغوط والقيود على المرأة، هو ما يسمى «جرائم الشرف» التي أصبحت شائعة خلال السنوات الماضية، وأصبح لها قانونها. إن النساء اللاتي «أخجلن» عائلاتهن أو أزواجهن بالخوض، أو حتى الاشتباه في الخوض، في ما يطلق عليه العلاقات غير المشروعة، عادة ما يتعرضن إلى القتل باسم إنقاذ «شرف» الأسرة.

ويجب النظر إلى القيود المتزايدة على حركة المرأة وسلوكها في إطار زيادة الدعارة بدرجة كبيرة. لقد أخذت هذه الظاهرة في التزايد داخل العراق وفي البلدان المجاورة له. ونجد، على سبيل المثال، أن غالبية العاهرات في الأردن اليوم عراقيات. إن فرض الحكومة لوجود مرافق «محرم» مع المرأة التي تغادر العراق، لم يفلح في وقف هذا التوجه. فالقانون الجديد لا يسمح للمرأة بمغادرة البلد بدون مصاحبة أحد أقربائها من الذكور، إلا إذا كانت سن المرأة تجاوزت الخامسة والأربعين. ويذكر أن هذا القانون

بدئ بتنفيذه بعد الشكوى التي قدمتها الحكومة الأردنية إلى الحكومة العراقية، بشأن انتشار الدعارة في عمّان بواسطة العراقيات.

ويبدو أن العقوبات تركت بصماتها، أيضا، على العلاقات بين الأزواج والزوجات. فعلى الرغم من عدم توفر أرقام إحصائية محددة، يبدو أن معدلات الطلاق قد تزايدت. لقد أفادت واحدة من النساء اللاتي يعملن في مجال دراسة حالات اللاجئات العراقيات في لندن، بأن معدلات الطلاق بين الأزواج القادمين مؤخرا من العراق قد ارتفعت بصورة ملحوظة. فنحو ٢٥٪ من اللاجئين العراقيين في المملكة المتحدة منفصلون أو مطلقون. وأفاد عدد قليل من النساء بأن أزواجهن أصبحوا أكثر عنفا وسوءا في المعاملة منذ فرض العقوبات. إن اليأس والإحباط المنتشرين، فضلا عن الخجل من عدم القدرة على إمداد الأسرة بما تحتاج إليه، لا يثير الإحباط فحسب وإنما يقود إلى الغضب، أيضا. وعادة ما يقع إحباط الرجل على كاهل المرأة.

ومع ذلك. قالت نساء أخريات إن علاقاتهن بأزواجهن قد تحسنت. تقول علية – وهي ربة منزل في نهاية الثلاثينات من عمرها – «إن زوجي لم يكن يفعل أي شيء في المنزل قبل فرض العقوبات. كان يعمل في مصنع خارج بغداد. وبعد أن توقف عن العمل، بدأ يساعدني في الخبيز وفي رعاية الأطفال. لقد أصبحت علاقتنا أفضل مما كانت عليه من قبل، لأنه بدأ يدرك أنني أقوم بعمل شاق في البيت».

لقد أصبح تنظيم الأسرة مصدرا كبيرا للتوتر والنزاع بين الأزواج والزوجات. كانت وسائل منع الحمل متاحة وقانونية قبل الحرب الإيرانية العراقية. وفي أثناء الحرب، أضحت وسائل منع الحمل غير قانونية، إذ كانت الحكومة العراقية تعمل على تشجيع العراقيات على «إنتاج» عدد أكبر من مواطني المستقبل، لتعويض الخسارة في الأرواح في أتون الحرب. ومنحت الحكومة المرأة العديد من الحوافز، فإجازة الوضع التي كانت مدتها ستة شهور مدفوعة الأجر جرى مدها إلى عام كامل مدفوع الأجر. كما قامت الحكومة باستيراد مختلف احتياجات غذاء الأطفال وشملته بالدعم.

وفي هذه الأيام، ماتزال موانع الحمل غير متاحة، لكن سلوكيات المرأة تجاه الأطفال تغيرت، نتيجة للظروف المادية والمناخ الأخلاقي السائدين. وعلى خلاف ما كان يحدث سابقا، أصبحت المرأة العراقية غير راغبة في إنجاب العديد من الأطفال. ونظرا لعدم قانونية الإجهاض، خاطرت كثير من النساء بصحتهن وحياتهن من أجل الحصول على إجهاض غير قانوني. وقالت لي مديرة دار للأيتام في بغداد إنهم يواجهون منذ سنتين ظاهرة جديدة في العراق، فالنساء يهجرن أطفالهن الرضّع حديثي الولادة تاركين إياهم في الشارع. وقد يكون هؤلاء الرضّع «نتاجا» لما يسمّى بالعلاقات غير الشرعية، ولكنهم، عادة، كما تقول المديرة، أطفال لنساء متزوجات تركن أطفالهن، لأنهن غير قادرات على مواجهة عجزهن عن تغذية أطفالهن.

إن تلك الصورة الكئيبة التي رسمتها لا تمس سوى بعض جوانب تأثير العقوبات على المرأة. لقد حاولت الإشارة إلى الظواهر الاجتماعية والثقافية التي برزت خلال السنوات الأخيرة، ولا يجري الحديث عنها، عادة، عند التفكير في أثر العقوبات. ولسوف أنهي مقالي هذا بملحوظة أكثر إشراقا، وهي أننا ينبغي ألا ننسى أن المرأة العراقية ليست مجرد ضحية سلبية. وهنا، فإنني لا أتحدث عن النساء المرتبطات بالنظام، بل أتحدث عن المرأة العادية المنتمية إلى مختلف الطبقات الاجتماعية. فعلى نقيض ما تقدمه وسائل الإعلام من صور شائعة عن النساء المضطهدات، فإن المرأة العراقية واسعة الحيلة وقادرة على التأقلم مع الوضع الجديد أكثر من الرجل. ونحن نشهد تكاثرا للمشروعات الصغيرة غير الرسمية، مثل إعداد بعض الأطعمة وبيعها. كما أن المهارات الحرفية وإعادة حياكة الملابس، وغيرها من الأعمال، إنما تقدم دليلا ملموسا على ذلك الإبداع المذهل. وليس المقصود هنا الإعلاء من شأن النساء على حساب الرجال، إذ أن مستقبل العراق، إذا كنا نأمل أن يكون له مستقبل أفضل لا يمكن في تفتيته ووضع النساء في مواجهة الرجال، بل في التركيز على مجمل النساء الذين احتفظوا بكرامتهم الإنسانية.

الهوامش

١ – قامت منظمة اليونيسف، ومنظمة الصحة العالمية، ومنظمة الأغذية والزراعة، علاوة على مختلف الفرق البحثية المستقلة والصحفيين، بإجراء عملية توثيق واسعة لأثر العقوبات من زاوية معدلات وفيات الأطفال، وسوء التغذية، وانتشار الأوبئة، ونقص الدواء، وعدم كفاية الرعاية الصحية، فضلا عن تدهور البنية الأساسية.

2- Sarah Graham-Brown, Sanctioning Saddam: The Politics of Intervention In

Iraq, London &New York: I.B. Tauris,1999:184.

٣ – جميع الأسماء غير حقيقية.

٤ – يوضح تقرير منظمة الأغذية والزراعة (الفاو) لعام ١٩٩٧ أن مؤشر القوة الشرائية للأسرة ينخفض على نحو مستمر في العراق. لقد انخفض مؤشر القوة الشرائية للأسرة من ٣,٦٢ عام ١٩٩٠ إلى ٠,١٥ عام ١٩٩٣ وإلى ٠,٠٦ عام ١٩٩٥، وظل على هذا المستوى. ويعني ذلك أن قيمة مؤشر القوة الشرائية للأسرة تقع أسفل مستوى ١,٢٥، وهو المستوى الذي تعتبر منظمة الفاو أن العجز الغذائي للأسرة المعيشية ينتج عنده. راجع:

FAO/WFP: "Food Supply and Nutrition Assessment to Iraq", Special Report Rome, October1997.

٥ – هناك تقدير بأن ١٠٪ من النساء العراقيات أصبحن أرامل بسبب الحروب المدمرة. وهؤلاء الأرامل عادة ما يعانين الفقر المدقع، ويعشن اعتمادا على معاشات تبلغ ما يعادل ٢ – ٢,٥ دولار شهريا. راجع:

Bela Bhatia, The International Study Team (IST), Women's Survey, "Unheard Voices: Iraqi Women in War and Sanctions", London, CHANGE, March1992:35.

دور المرأة في مواجهة الحصار الظالم

د. شذى عبد الباقي العجيلي

حظيت المرأة، منذ بدايات الحضارة في العراق، بمكانة خاصة أكدت دورها وتأثيرها في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتوجت هذه المكانة، منذ أن بدأ الإنسان العراقي تنظيم الحياة من خلال القوانين والتشريعات. وكان المشرّع الأول حمورابي الرائد في تثبيت الشخصية القانونية للمرأة، حيث ضمّن شريعته العديد من الأحكام القانونية التي تؤكد خصوصيتها ومكانتها في المجتمع.

وعندما نزل القرآن الكريم، حمل في آياته أسمى تشريع سماوي لتنظيم حياة المجتمع بمختلف أجناسه وجنسياته، وأفرد للمرأة الأم والزوجة والبنت أحكاما ضمنت لها حقوقها وواجباتها، ونظمت علاقاتها كافة داخل المجتمع، وأعادت إليها مكانتها التي فقدتها في العصور الغابرة. وفي الوقت الذي كانت فيه أغلب المجتمعات تتعامل مع قضية المرأة بكثير من التخلف والاستهانة، كانت المجتمعات الإسلامية تتعامل مع المرأة بما يليق بمكانتها، ويعزز دورها كمربية للأجيال.

وقد عالجت الثورة العراقية الموقف من حرية المساواة في الحقوق والواجبات، وانعكس موقفها وترجم إلى واقع عملي، ذلك إن أهداف ثورة ١٧/ ٣٠ تمُّوز (يوليو) حظيت فيها قضية المرأة باهتمام مميز، وتحقق لها ما حرمت منه خلال عهود الاستعمار والتخلف، ووقفت مع الرجل في خندق البناء والإعمار والتضحية، وهي تزهو بما حصلت عليه من حقوق وامتيازات ورعاية، تفوق ما حصلت عليه المرأة في أغلب بقاع العالم. وكان العراق من الدول الرائدة في المصادقة على جميع الاتفاقيات الدولية والعربية التي تعنى بشؤون المرأة، وتصون حقوقها، وتعرّف بواجباتها، وفتح أبواب العمل والتعليم أمامها، للمشاركة في مجالات الحياة كافة.

ولعل أبرز القوانين التي شرعت لضمان حقوق المرأة وتحررها من القيود وتساويها مع الرجل هي:

١ – قانون الأحوال الشخصية وتعديلاته (شرح القانون)، ٢ – قانون العمل الذي شمل المرأة بكل ما يتمتع به الرجل العامل، ٣ – قانون الإصلاح الزراعي الذي لم يفرق بين الرجل والمرأة في أي حق أو واجب نص عليه لصالح الفلاح، ٤ – دخول المرأة إلى

الجيش الشعبي منذ عام ١٩٧٦ ، وفسح المجال أمامها للدخول إلى القوات المسلحة وحمل الرتب العسكرية ، ٥ – قوانين الرعاية الخاصة بمنح المرأة العاملة والموظفة إجازة الولادة قبل الوضع وبعده ، ٦ – قانون الأمومة الذي منح المرأة إمكانية الحصول على إجازة مدتها سنة لرعاية طفلها ، ووفر لها دور الحضانة ومراكز رعاية الأمومة والطفولة والرعاية الاجتماعية ، انطلاقا من مبدأ الحرص على الأسرة وحمايتها .

لقد تزايد إسهام المرأة في النشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي . ففي مجال التعليم ، تحقق تقدم كبير في ميدان مساهمة المرأة ، حيث قارب عدد الطالبات في الدراسة الابتدائية والتعليم الجامعي في العام ١٩٨٠ نسبة ٥٠٪ من مجموع المنخرطين في هاتين المرحلتين ، وفي المرحلة المتوسطة والإعدادية والتعليم المهني ، زاد عددهن على نسبة ٣٠٪ من المجموع الكلي للمنتظمين فيها .

وفي الهيئات التدريسية والتعليمية ، بلغ عدد المعلمات ١٠٠٥٤ في المدارس الثانوية ، و٣٧٧٤٨ في المدارس الابتدائية ، و٢٨٦٢ في رياض الأطفال ، للعام الدراسي ١٩٨٠ .

وقد تزايد عدد الإناث الملتحقات في كل مراحل التعليم بمعدلات فاقت معدلات الذكور ، ففي رياض الأطفال زادت نسبة الإناث بمعدل ٣٠٪ ، وفي التعليم الثانوي بمعدل ١٣٢٪ ، وفي التعليم العالي بمعدل ١٥٦٪ ، مقابل نسبة زيادة للذكور بلغت ٧٥٪ و٨١٪ و٩١٪ ، على التوالي .

وبلغ عدد المتخرجات في كليات الطب وطب الأسنان ١٩٧٦ متخرجة ، من بين ٣٢٥٠ طبيبا وطبيب أسنان وصيدلانيا يمارسون هذه المهن ، في إحصائيات عام ١٩٨٠ .

وإن مساواة المرأة بالرجل في قانون المجلس الوطني والمجلس التشريعي ، من حيث الترشيح والتصويت ، لهي دليل واضح على الموقف التقدمي والإنساني الواضح للثورة العراقية ، والمكانة التي احتلتها المرأة العراقية بجدارة في كل مجالات الحياة في المجتمع .

وباندلاع الحرب العراقية الإيرانية ، كان على المرأة العراقية أن تتحمل مخاطر تهديد سيادتها ، فأسهمت إسهاما كبيرا في الحيلولة دون تعثر البرامج التنموية للبلاد ، وملأت الفراغ الذي تركه الرجل بانشغاله في جبهات القتال ، فاستطاعت المرأة أن تلعب أدوارا متعددة في آن واحد ، فهي الأم والزوجة والعاملة ، حتى تسير عجلة التقدم والتطور .

وشكل العدوان الذي قادته الولايات المتحدة الأمريكية والقوى الصهيونية وحليفاتها تحديا أكثر خطورة وأعمق أثرا لسيادة المرأة ، بسبب استمراره لفترة طويلة ، إذ مثّل هذا العدوان أعنف هجمة عرفها التاريخ مصحوبة بحصار طويل لايزال مستمرا منذ عشر سنوات ، يستهدف الوعي التربوي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي للبلاد ، ومشروعها الحضاري ، ويترك آثاره المدمرة في البيئة العراقية وفي صحة العراقيين ، ناهيك عن آثاره النفسية عليهم .

واستمرار مأساة الحصار الشامل المفروض على العراق أدى إلى انحسار كبير في دور المرأة ، وتراجع مساهمتها في الحياة العامة ، وتقويض ما حققته من إنجاز كبير وتقدم . فعلى الرغم من الجهود التي بذلت للتخفيف من هذه الآثار ، فإنها لم تستطع أن تعالج كل هذه السلبيات . فعلى صعيد المجال التربوي ، بذلت الجهود لمعالجة ظاهرة التسرب ، لكن الإحصائيات تشير إلى ارتفاع نسب التسرب على النسب الطبيعية ، بسبب تأثير الحصار الاقتصادي والعلمي والثقافي ، وبمختلف أساليبه التعسفية التي شملت المستلزمات التربوية كافة . فمن المعلوم أن للأحوال الاقتصادية الصعبة أثرها السلبي في مواصلة الدراسة ، فهي تدفع بعض العوائل إلى تفضيل الزواج المبكر لبناتها ، عند بلوغهن السن القانونية للزواج ، للتخفيف عن كاهلهم في نفقات الدراسة والأمور الأخرى .

ولقد أشارت إحصائيات عام ٩٦/ ١٩٩٧ إلى أن عدد المتسربات في المرحلة الابتدائية بلغ ٣٠٨٢٣ تلميذة ، من العدد الإجمالي للتسرب البالغ ٦٧٤٠٩ ، أي بنسبة ٤٥,٨٪ . كما أشارت إلى أن عدد المتسربات في المرحلة المتوسطة وصل إلى ٢٣٩٣٦ ، من العدد الإجمالي البالغ ٥٢٠٤٧ ، أي بنسبة ٤٠٪ ، وفي المرحلة الإعدادية ٦١٣٩ طالبة من أصل ٩٨٥٦ ، بنسبة ٦٠٪

تقريبا .

إن هذه الأرقام والنسب تعني أن حالات التسرب من التعليم العائدة إلى العدوان والحصار أدت إلى انتشار الأمية في العراق ، بعد أن كان من الدول الرائدة في مجال محو الأمية ، فالأمية تسير جنبا إلى جنب مع الفقر . وهكذا ، أدى تدني المستوى الاقتصادي للفرد والعائلة العراقية إلى تخلفها في الجانب الثقافي .

كيف استطاعت المرأة التغلب على الحصار و مواصلة التقدم و النهوض

أثرت الظروف القاسية التي يمر بها القطر العراقي جرّاء الحصار على كل مفاصل الحياة ، بما فيها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية . وكانت انعكاسات العدوان العسكري والحصار الاقتصادي كبيرة وذات نتائج خطيرة ، مباشرة وغير مباشرة . فالمباشرة منها استهدفت صحة المرأة وحياتها ومساهمتها في عملية التنمية والعطاء ، وغير المباشرة أثرت على راعية الطفولة ومربية الأطفال والمعلمة الأولى .

ومع كل ما حمله التدمير والعدوان والحصار ، فإن المرأة العراقية لم تقف مكتوفة الأيدي وتستسلم له ، باعتباره قدرا لا خلاص منه ، بل قادها ذلك إلى تحقيق أهدافها التي تصبو إليها . فقد سجلت أسطورة في التضحية وفي مجابهة المعتدين وفي تأمين متطلبات الحياة الكريمة لأفراد عائلتها ، بما يتوافر من غذاء شحيح وأدوية قليلة ومستلزمات إنسانية متدنية . فذكرت بعض الدراسات أن تقدما ما حدث خلال السنوات الخمس الأخيرة في مساهمة المرأة ، بصورة فعالة وجدية ، في مجالات الحياة كافة ، في المنظمات وفي الجمعيات والنقابات ، حتى إنها احتلت مواقع قيادية وإدارية لم تكن فيها من قبل . وما حدث يتفق مع نتائج دراسة بيترسون Peterson التي أجراها على المجتمع الأمريكي ، لفحص التعارض في الأدوار التي تلعبها المرأة أو الزوجة ، إذ ظهر أن المرأة عندما تتعرض إلى أدوار متعددة وتعب جسماني وعمل مضاعف ، يمكنها القيام بجميع الأدوار الأخرى بصورة متكاملة مثل دور الزوجة والأم ، إضافة إلى دورها في العمل .

ففي المجال التربوي ، شكلت المرأة العراقية نسبة مهمة في مجموع أعضاء الهيئة التعليمية والتدريسية ، بلغت ٧١٪ في المراحل الابتدائية ، و٥٨٪ في المدارس الثانوية ، و٤٩٪ في المدارس المهنية ، و٥٧٪ في معاهد إعداد المعلمين والمعلمات ، و٢٦,٩ في الجامعات .

واستطاعت المرأة أن تشترك في وضع السياسات والبرامج والمناهج التعليمية ، إذ منحت ٢٥ امرأة في التربويات إجازات لفتح معاهد تقوية للدراسات المهنية ، ومثلهن إجازات لفتح رياض للأطفال . كما شاركت في الدورات التدريبية والتطويرية ، حيث بلغ عدد اللواتي شاركن فيها ٢٣٧٦٧ امرأة ، عام ١٩٩٨ . وتم إيفاد ٩٦ امرأة للتدريب خارج القطر في اختصاصات شتى ، ومنحت ٩١١ موظفة إجازات دراسية مدفوعة الأجر ، لإكمال دراساتهن للمراحل المتقدمة : الماجستير والدكتوراة .

وبلغ عدد المحاميات المسجلات في نقابة المحامين ألفي محامية عام ١٩٩٧ ، أي بزيادة تقدر بنسبة ٢١٪ على السنوات السابقة في عقد التسعينات ، كما بلغ عدد المعلمات المسجلات في نقابة المعلمين ٢٥ ألف معلمة ، فباتت نسبة المعلمات في إجمالي عدد المعلمين البالغ ٢٩,٣١٩ معلما ومعلمة ٧٥٪ ، وبلغ عدد العاملات في الاتحاد العام لنقابات العمال مئتي ألف عاملة ، إذ زادت أعدادهن بنسبة ١٨٪ على ما كانت عليه في السنوات الأولى من الحصار .

ولم تكتف المرأة بالتحصيل الجامعي ، بل اتجهت إلى إكمال دراساتها العليا ، فبلغت نسبة المسجلات لدراسة الماجستير والدكتوراة ٢٨,٥٪ في مجمل المسجلين عام ١٩٩٧ ، بعد أن كانت ١١٪ في الأعوام السابقة ، وبذلك ، أصبحت نسبة النساء في مجموع أعضاء الهيئة التدريسية للجامعات نحو ٢٦,٩٪ .

وجدير بالذكر أن النساء احتللن نسبة عالية ضمن القوى العاملة في وزارة الصحة من ذوي المهن الطبية ، فشكلن نسبة ٥٧٪ من عدد أطباء الأسنان عام ١٩٩٦ ، ونسبة ٧٧٪ من عدد الصيادلة ، في العام نفسه .

وفي ما يلي جدول بأعداد الكوادر الطبية النسوية مقابل السنوات المسجلة :

السنة	عدد الكوادر الطبية النسوية
١٩٩٥	٥٢٥
١٩٩٦	٦٨٥
١٩٩٧	٧٢٣
١٩٩٨	٧٩٧
١٩٩٩	١٣٨٨

وبالنظر إلى إلزام قانون التعليم الإلزامي للعام ١٩٧٦ بتسجيل الأطفال من الجنسين، بين ٦ و١٠ سنوات، في المرحلة الابتدائية، إضافة إلى مجانية التعليم، فقد بلغت نسبة الإناث في رياض الأطفال في عام ١٩٩٧– ٤٨,٧٪، وفي المرحلة الابتدائية ٤٤,٢٪، وفي المرحلتين المتوسطة والإعدادية ٣٩٪، وفي المدارس المهنية ١٠,٩٪، وفي معاهد إعداد المعلمين ٦٠,٦٪، وفي المرحلة الجامعية ٣٣,٧٪، وبين الخريجين ٤٠,٤٪.

وفي دراسة مطلك (١٩٩٨)، ظهر تفوق الإناث على الذكور في التفكير التأملي، مما جعلهن أكثر تفوقا من الذكور في عملية التذكر، على مستوى الدارسين في جامعة بغداد.

وفي دراسة عزيز (١٩٩٨) تفوقت طالبات المرحلة الإعدادية على الذكور في التفكير الإبداعي الابتكاري، بعد أن تلقّين برنامجا في العَصْف الذهني، مخالفات بذلك نتائج الدراسات السابقة في المجال التي تشير إلى تفوق الذكور في هذه المهارة، على المستوى العالمي.

لقد وضع عالم النفس ماسلو Maslow هرما للحاجات لدى الإنسان، يمتد من حاجات ذات مستوى منخفض للبقاء (الحاجات الفسيولوجية)، إلى حاجات ذات مستوى مرتفع كالمعرفة والفهم، وأخيرا، تحقيق الذات الذي يقصد به ماسلو الاستخدام الأمثل لأقصى طاقات الفرد وقدراته الكامنة. ويرى ماسلو أنه عندما يتم إشباع قاعدة الهرم، ولو إشباعا جزئيا، يتم التحرك عبر مستوياته الآتية: الشعور بالأمن النفسي، الحاجة إلى الحب والانتماء، الحاجات المعرفية، الحاجات الجمالية، تحقيق الذات الذي يقصد به ماسلو التفوق.

ولقد أثبتت مجموعة من الدراسات، ومنها دراسة ثلما التي تناولت الأدوار التي احتلتها المرأة في حضارة وادي الرافدين، في عصور ما قبل التاريخ، وتطورها ومكانتها، أثبتت أن المرأة في هذه الحضارة الممتدة كلما زادت تعبا زادت عطاء وإبداعا وقدرة على تخطي العثرات التي أمامها.

خاتمة

أثرت التحديات المفروضة على العراق بشدة على تقدم المرأة العراقية التي حققت مكاسب هائلة على مدى التاريخ، منذ أن قدم العراق معالم أول حضارة إنسانية للعالم. فقد أثقلت العمليات العسكرية وما أحدثته من دمار مادي ومعاناة إنسانية، مترافقة

مع حصار شائن، كاهل المرأة، وطبعت آثارها النفسية والجسمية والاجتماعية عليها، جراء المعاناة اليومية بسبب نقص الغذاء والدواء ونقص الاحتياجات الإنسانية للمرأة بشكل خاص.

وعلى الرغم من ذلك، تبقى مرحلة الحصار التي فرضت على شعب العراق الصامد مرحلة لم يعد لها ما يسوغها قانونا، استطاعت خلالها المرأة العراقية أن ترتقي بمستواها من الناحية النوعية، وهو ما تشير إليه الإحصائيات والدراسات المسجلة على مدى السنوات العشر الأخيرة.

المصادر

١ – عبد الدايم، عبد الله، التربية عبر التاريخ، ط٢، ١٩٧٥.

٢ – قانون الاتحاد العام لنساء العراق المعدل، بغداد، ١٩٧٧، ص ٨ – ١١.

٣ – الخولي، البهي، المرأة بين البيت والمجتمع، مكتبة دار العروبة، ١٩٦٥، ص ١٨.

٤ – إحصائيات شعبة الإحصاء في وزارتي التربية والتعليم العالي، الأعوام ٩٦ – ١٩٩٨.

٥ – عبد الغني، همام، الاتحاد العام لنساء العراق، ترجمة لأهداف الثورة في العمل والإبداع، بغداد، ١٩٨٠، ص ١٢– ١٩.

٦ – الاتحاد العام لنساء العراق، استراتيجية النهوض بالمرأة وإنجازاتها، المؤتمر العام السادس عشر، ١٩٩٩، بغداد، ص١ و٧ و١٤.

7- Peterson, E.T.,The impact of maternal employment on the mother daughter relationship, Marriage and Family Lives,1961.

٨ – مطلك، فاطمة عباس، التذكر وعلاقته بالأسلوب المعرفي (التأملي – الاندفاعي) لدى طلبة الجامعة، جامعة بغداد، كلية التربية/ ابن رشد، ١٩٩٨ (أطروحة دكتوراة غير منشورة).

٩ – عزيز، عمر إبراهيم، العصف الذهني وأثره في تنمية التفكير الابتكاري عند طلبة الإعدادية، ١٩٩٨ (أطروحة دكتوراة).

١٠– العصف الذهني Brain storming هو تكنيك أو طريقة تستخدم لتنمية التفكير الابتكاري على اعتبار أن الكم من الأفكار يولد الكيف. والبرامج المعنية به تطرح فيها أفكار متنوعة للتوصل إلى الابتكار.

١١– ثلما، ستيان، المرأة ودورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٧٥، رسالة ماجستير، ١٩٧٥.